

الابتلايات طبيعتها وسبل النجاة

تأليف
أسامة الجوهري

مراجعة
د. محمد محمود الشاذلي

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى

الكتاب : الإبتلاءات طبيعتها وسُبل النجاة

المؤلف : أسامة الجوهري

غلاف : محمد عطية

إخراج: محمد سالم

المقاس ١٧ × ٢٤

رقم الإيداع : ٢٠١٧ / ٢٨٣٢

التقويم الدولي : 8 - 61 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى كل من ضاق صدره وظن أن الدنيا أصبحت أضيق من
ثُقب الإبرة

إلى كل من يُعاني ويتألم ويظن أن الله قد تَخلى عنه
إلى كل مهموم وكل حزين وكل مُكتئب
إلى كل مُبتلى

أبشروا جميعاً فإن فرج الله قريب، وإليكم أهدى هذا
الكتاب

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

لماذا خلقنا الله

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ (البقرة - ٣٠).

خلق الله الإنسان، ورفع مكانته وكرمه ليحقق غاية العبودية له سبحانه، أن يخلف من كان قبله من الجن الذين أفسدوا في الأرض، فيقيم العدل ويعمل الصالحات وفقاً لمراد الله.

وزود الله هذا الإنسان بمجموعة من الصفات الجسدية والعقلية التي تؤهله لأداء هذه المهمة، فأعطاه الإرادة الحرة، والعقل الذي يستقبل المعلومات ويجمعها ويحللها ويربط بينها ويستخلص منها خبرات، وبه يستطيع الإنسان أن يميز بين الخير والشر، وزوده أيضاً بالدوافع والشهوات التي تحرك السلوك، والعواطف المختلفة للتعبير عن هذا السلوك، هذا بالإضافة للقدرات الجسدية والعضلية المختلفة لتنفيذ هذا السلوك.

وقدر رب العالمين لهذا الإنسان معيشتة، وهبى له الأرض لاستقباله، فيقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۚ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكُونَ ۝ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ ۝ ١٣ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ ١٤ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَبْعِدَ بَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ١٥ وَتَهْتَدُونَ ۝ ١٦ وَعَلَّمَتِ بِالْجَمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝ ١٧﴾ (النحل: ١٠ - ١٦).

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَثَمَنًا إِلَى حِينٍ ۝۸۰﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿۸۱﴾

(النحل: ٨٠ - ٨١).

وزود الله الإنسان بالمنهج والمسار الذى يجب عليه أن يسلكه حتى يُحقق مراد الله، والغاية من خلقه.

نعم زود الله الإنسان بخريطة تفصيلية للتعامل مع الأحداث المختلفة، وللتعامل مع المواهب والقدرات والنعمة التى وهبه إياها، هذا بالإضافة إلى شئ فى غاية الأهمية، وهو كيفية التعامل مع الشهوات، فمن ضمن الصفات التى غرسها رب العالمين فى الإنسان، الشهوات، وهى غرائز تدفع الإنسان دفعاً لإشباعها، ونتيجة لشدة هذه الغرائز فقد زود الله الإنسان بمنهج لكيفية التعامل معها، وتطويعها لتكون دافع للخير.

﴿لِيَبْلُوكُمُ فِي مَاءَاتِكُمْ﴾ (الأنعام - ١٦٥).

وبعد أن هيئ الله الأرض لاستقبال الإنسان، وبعد أن زوده بالصفات والقدرات اللازمة لإداء مهمته، وزوده بالمنهج والمسار، وضعه فى موضع الاختبار، فجعل الناس مُتفاوتين فى الصفات والقدرات، وجعل كل ما يملكه الإنسان من حسب ونسب وأموال، وكل ما لديه من مواهب وذكاء وقدرات، جعل من كل ذلك محلاً للاختبار، لينظر ماذا سيفعل هذا الإنسان بكل ما يملكه، هل سيركن إلى الحياة الدنيا المحدودة المؤقتة، ويركن إلى ما لديه من قدرات وإمكانات، أم يستغل ذلك كله لتنفيذ مراد الله؟

وبالتالى لا تنظر إلى الوضع الذى أنت فيه الآن من منطلق أن الله امتن عليك بكل ما لديك لتعيش فى راحة وهناء فقط، كلا!
إن الوضع الذى أنت فيه الآن هو محل اختبارك، أنت تختبر به الآن،

فحسبك ونسبك، وأموالك وقدراتك، ومصادر قوتك، كل ذلك هو بيئة اختبارك التي وضعك الله فيه، ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس - ١٤).

وجعل الله فترة الاختبار محدودة بعمر الإنسان، وبانتهاء أجل الإنسان بالموت يفقد كل ما امتلكه في الدنيا من أموال وبنين وحسب ونسب، ويبقى شئ واحد، عمله، ما قدمه في الحياة الدنيا، وكيف استغل فيها ما وهبه الله إياه من صفات وقدرات، لينطلق الإنسان بعد ذلك في رحلة خلود مُستحقة، فإما إلى جنة، وإما إلى نار، فإن كان من أهل الجنة استرد أعظم مما ترك في الدنيا، ورجع إلى أهله، وعاش في نعيم دائم، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ (١٧) فَتَكِيهِنَّ بِمَا ءَاتَاهُمُ رَبُّهُنَّ وَوَقَّهِنَّ رَبُّهُنَّ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ الْحَقِّ بِيَمِينٍ ذُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَلْنَاهُمْ مِنْ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْسِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُكُمْ مَكُونٌ ﴿٢٤﴾ (الطور: ١٧ - ٢٤).

بينما من كان من أهل النار، خَسِرَ كل ما كان يملكه في الدنيا: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر - ١٥)، بل وخسر الصفات البشرية التي كرمه الله بها من سمع وبصر وعقل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف - ١٧٩).

لقد استحق هؤلاء هذه المهانة، لأنهم انشغلوا بما آتاهم الله في الدنيا عن السبب الأساسي لوجودهم فيها، فظنوا أنهم خالدين في الدنيا بأموالهم وأولادهم، فعملوا على زيادة أموالهم وتعظيمها بأى وسيلة كانت، لتنتقل باسمهم بعد ذلك لورثتهم، فيظل الاسم محفوظاً كعظيم من العظماء، هذا في الدنيا، بينما في الآخرة شأن آخر، والآخرة خير وأبقى لمن آمن وعمل صالحاً فقط.

نأتى إلى الدنيا ونحن سواسية طفلُ الملوك هنا، كطفل الحاشية
ونغادر الدنيا ونحن كما ترى متشابهون على قبور حافية

أعمالنا تُعلَى وتُخَفَضُ شأننا
حورٌ، وأنهارٌ، قصورٌ عالية
فاختر لنفسك ما تُحب وتبتغى
وغداً مصيرك لا تراجع بعده
وحسابنا بالحق يوم الغاشية
وجهنم تُصلى، ونارٌ حامية
ما دام يومك والليالي باقية
إما جنان الخلد وإما الهاوية^(١)

قرأ قارئ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣)﴾
(التكوير: ١-٣)، وفي الحاضرين أبو الوفاء ابن عقيل، فقال له قائل:
يا سيدي، هب أنه (أى الله) أنشر الموتى للبعث والحساب، وزوج النفوس
بقرنائها بالثواب والعقاب، فلم يهدم الأبنية، وسير الجبال، ودك الأرض،
وفطر السماء، ونثر النجوم، وكور الشمس؟

فقال: إنما بنى لهم الدار للسكنى والتمتع، وجعلها، وجعل ما فيها للاعتبار
والتفكر والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر، فلما انقضت مدة السكنى وأجلهم
من الدار، خربها لانتقال الساكن منها، فأراد أن يعلمهم بأن الكونين (يعنى
السموات والأرض) كانت معمورة بهم، وفى إحالة الأحوال وإظهار تلك الأحوال
وبيان المقدرة بعد بيان العزة، وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقة المنجمين وعباد
الكواكب والشمس والقمر والأوثان، فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، فإذا رأوا
آلهتهم قد انهدمت، وأن معبوداتهم قد انتثرت وانفطرت، ومحالها قد تشققت،
ظهرت فضائحهم وتبين كذبهم، وظهر أن العالم مربوب مُحَدَّث مُدَبَّر، له رب
يصرفه كيف يشاء، تكذيباً لملاحدة الفلاسفة القائلين بالقدم، فكم لله من حكمة
فى هدم هذه الديار، ودلالة على عظم عزته وقدرته وسلطانه، وانفراده بالربوبية
وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره وإذعانه لمشيئته فتبارك الله رب العالمين^(٢).

(١) الأبيات لأبى العتاهية

(٢) بدائع الفوائد، لابن القيم، الجزء الثالث

منهج الاختبار الإسلام لله

﴿قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُضَلِّ وَأُضِلُّ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام - ٧١).

الإسلام هو دين الله ﷻ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿١٩﴾ (آل عمران - ١٩)، من لدن آدم إلى محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، وقد أرسل الله الرسل للناس بقضية أساسية وهي توحيدة وإفراده بالعبودية، فيقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل - ٣٦)
فهذا هو أمر رب العالمين الذي جاءت به الرسل جميعاً وجاء به رسول الله محمد ﷺ أن الله واحد أحد لم يلد ولم يولد وليس له شريك في الملك، وأنه ليس كمثله شيء.

وهذه هي (صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع، توحيد الألوهية التي يتوجه إليها البشر كما تتوجه إليها سائر الخلائق في الكون بالعبودية، وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله، فلا يقوم شيء إلا بالله تعالى، ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى، ومن ثم يكون الدين الذي يقبله الله من عباده هو «الإسلام» وهو في هذه الحالة، الاستسلام المطلق للقوامة الإلهية، والتلقى من هذا المصدر وحده في كل شأن من شؤون الحياة، والتحاكم إلى كتاب الله المنزل من هذا المصدر، واتباع الرسل الذين نزل عليهم الكتاب، وهو في صميمه كتاب واحد، وهو في صميمه دين واحد، الإسلام^(١).

(١) في ظلال القرآن سورة آل عمران

رسالة رسول الله ﷺ

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

أرسل رب العالمين رسولاً هو محمد ﷺ، النبي العربي الصادق الأمين، أرسله إلى الناس كافة برسالة تتضمن طريقاً ومنهجاً، فمن اتبع الطريق وسار على المنهج فلا يضل ولا يشقى وهو في الآخرة من الفائزين، ومن اتبع غير هذا الطريق وجعل إلهه هواه، فقد ضل ضلالاً مبيناً وهو في الآخرة من الخاسرين.

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء: ١١٥)

— أما الطريق فهو الإسلام فيقول تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٨٥).

— وأما المنهج فهو كتاب الله وسنة رسوله الكريم محمد ﷺ الذي قال: (إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي)^(١).

أرسل رب العالمين، رسوله محمد ﷺ لِيَتِمَّ الْبِنَاءُ الَّذِي تَمَّ تَشْيِيدُهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِنَاءِ التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ لِلَّهِ، فَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَتَمَّهَا وَأَكْمَلَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَيَقُولُونَ: لَوْلَا مَوْضِعُ اللَّبْنَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَأَنَا مَوْضِعُ اللَّبْنَةِ، جِئْتُ فَخْتَمْتُ الْأَنْبِيَاءَ)^(٢).

(١) رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة

(٢) رواه مسلم

فأصل الدين واحد، وهو الإسلام لله، توحيده، ونفى الشريك له، وعبادته وطاعته والانقياد لأوامره، وقد جاء كل رسول إلى قومة بشرعة ومنهاج ليتناسب مع تطور القوم وقدراتهم العقلية والنفسية والعلمية، وأرسل الله رسولنا الكريم ﷺ ليكون النبي الخاتم، لكل الناس، ويخرجهم من الظلمات التي عاشوا فيها وتراكمت عبر الأجيال المتتابة، إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم: ١)، ولذلك جاء الإسلام تاماً في بناءه، قوياً صلباً ضد مُنكرى رسالة رب العالمين، تشد تعاليمه وفرائضه بعضها بعضاً، يخاطب الفطرة ويخاطب العقل والمنطق، ويقودهما إلى معرفة رب العالمين، والهدف أن يسيروا على المنهج الذي إرتضاه رب العالمين فيكونوا من السعداء في الدنيا والآخرة.

رأس الأمر الإسلام

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ فى سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله، أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة، ويباعدنى من النار؟ قال: (لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت) ثم قال:

(ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار، وصلاة الرجل فى جوف الليل)، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ (السجدة: ١٦ - ١٧).

ثم قال: (ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟)

فقلت: بلى يا رسول الله.

قال: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)^(١).

رأس الأمر الإسلام: أى أن يكون الإسلام هو دليلك ومرشدك، فى رحلة حياتك الدنيا إلى الآخرة، فالرأس تحدد المسار والاتجاه، فأنت كمسلم إرتضيت بالله رباً وشهدت بذلك، وإرتضيت بالإسلام ديناً، وبالتالي يجب أن يكون هناك دليل على ذلك، يجب عليك أن تجعل من الإسلام دستوراً لحياتك ومعيشتك، وتسير فى مساره وتدور مع دورانه، وتخضع إرادتك له، وتعرض حياتك على منهجه، هل يستقيم إسلامك مع ما تقوم به وتحيا من أجله أم تتبع هواك؟ فإن استقام أسلوب حياتك مع الإسلام فأنت مسلماً حقاً، وإلا فراجع نفسك فالحياة الدنيا أقصر من أن تكون أكبر همك.

الإسلام ليس مجرد لفظ (لا إله إلا الله محمد رسول الله) دون أن تصبح واقعا عملياً فى كل مناحى حياتك.

وهذا هو عين اختبارك، فأنت تختبر كمسلم بمدى التزامك بالمنهج الذى ارتضاه الله لك ولسائر البشر، فهل ستخضع إرادتك الحرة لمراد الله الذى يحبك أن تكون عليه؟ أم ستتمرد نفسك وتتبع هواها؟

فى هذا الكتاب سوف نتعرف على معنى الابتلاءات ولماذا نصاب بها؟ وهل هناك حكمة فى نوع الابتلاء الذى يصيب الإنسان؟ مع استعراض لبعض الابتلاءات التى قد تصيب المؤمنين.

كما سوف نجيب عن بعض الأسئلة التى قد تدور فى عقل البعض منا، مثل:

لماذا خلقنا الله؟ ولماذا يبتلىنا؟!

لماذا هناك شخص مُنعم بكل أنواع النعم، وآخر معدوم ليس لديه شىء؟!

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح

هل الله غير عادل بإصابته لنا بالابتلاءات أم أن هناك حكمة خفية لم ندركها

بعد؟!

ماذا يعنى أن أصبر على الابتلاءات؟ وما هى حدود هذا الصبر؟

وهل هناك مخرج من ذلك كله؟!

والهدف من ذلك أن نستطيع اجتياز اختبارات الحياة الدنيا بنجاح فنكون من

الفائزين برضوان الله يوم القيامة.

obeikandi.com

الفصل الأول

أنت تصلى وتصوم وتتصدق وتفعل الخيرات وتؤمن بالله ، وتبذل جهدك في سبيل إتباع سنة رسول الله ﷺ ، ولكن هل تظن أنك مؤمن حقاً وأن الإيمان قد ثبت في قلبك لن يزعجه شيء؟
جاءت ساعة الحقيقة... ساعة الاختبار...
جاءت الابتلاءات ، الساعة التي يظهر فيها مستوى الإيمان الحقيقي في قلبك!
فاستعد.

obeikandi.com

معنى الابتلاء

– البلاء والابتلاء يلتقيان في معنى الاختبار والامتحان. جاء في لسان العرب: (وقال ابن الأعرابي: ابتلاه الله: امتحنه). وقال الفيروزآبادي: (وابتليته: اخترته، والبلاء: الغم كأنه يبلى الجسم، والتكليف بلاء، لأنه شاق على البدن أو لأنه اختبار، والبلاء يكون منحة ويكون محنة)^(١).

وفي المعجم الوسيط:
(ابتلاه: جربه وعرفه، والبلاء: الحادث ينزل بالمرء ليختبر به، والبلاء الغم والحزن، والبلاء: مبالغة الجهد في الأمر)^(٢).
وقال القرطبي:

قال أبو الهيثم: البلاء يكون حسناً، ويكون سيئاً، وأصله المحنة، والله عز وجل يبلو عبده بالصنع الجميل ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التي يكرها ليمتحن صبره، فقليل للحسن بلاء وللسيئ بلاء^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: ٣٥).
وقال أبو هلال العسكري الابتلاء هو: استخراج ما عند المبتلى، وتعرف حاله في الطاعة والمعصية بتحميله المشقة، ويقال للنعمة بلاء، لأنه يستخرج بها الشكر.
– من المفاهيم السابقة عن الابتلاء يمكن القول إن الابتلاء ينزل بالإنسان كاختبار في ظروف الحياة الدنيا، وقد يكون مع شدة ومبالغة في الجهد، أو يكون

(١) القاموس المحيط ج ٤ بتصرف.

(٢) المعجم الوسيط ج ١

(٣) الجامع لأحكام القرآن. تفسير سورة البقرة، آية: ٤٩

حسناً مما تستهويه النفس، فيختبر المرء بالخير والشر لإظهار مكنونات نفسه، ومعرفة حقيقة إيمانه.

– كذلك يأتي الابتلاء بمعنى المحنة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى﴾ (الحجرات: ٣)، أى: الذين ضرب الله قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الشاقة حتى ظهرت وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق^(١).

فالمحن تأتي لتنقية قلوب المؤمنين مما علق فيها حب الدنيا والركون إليها، ومن أمراض القلوب التي قد تصيبها، وتزيل منها كل شائبة، حتى تصبح صافية، طاهرة.

(١) تفسير الم راغى، بتصرف، سورة الحجرات

مَهَيِّدٌ

قبل الحديث عن الابتلاءات التي قد يتعرض لها المؤمن بالله، لابد من إرساء مجموعة من القواعد الأساسية، والتي يجب عليك أن تكون على يقين بها، وأن تغرسها في قلبك، وتراقبها في حياتك العملية، وخاصة عند مواجهتك لهذه الابتلاءات، فهي ستمثل المعيار الصحيح الذي ينبغي أن تبني عليه قناعاتك حتى تستطيع إن شاء الله الصبر والثبات في خلال فترة تعرضك لها.

القاعدة الأولى:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾

اعلم أن ما أصابك، وما سيصيبك في هذه الحياة الدنيا سواء من خير أو من شر، هو كله بقضاء الله وقدره، ومكتوب عنده في اللوح المحفوظ، ولو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوك بشئ، لن ينفعوك إلا بما كتب الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشئ، لن يضروك إلا بمقدار ما كتب الله عليك، وهذا بعلم الله قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال رسول الله ﷺ: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء) (١).

قَالَ تَعَالَى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام - ٥٩).

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل - ٧٥)

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَاهُهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد - ٢٢).

وعن عبد الواحد بن سليم قال: (قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح، فقلت له: يا أبا محمد: إن أهل البصرة يقولون في القدر، قال: يا بنى أقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فاقراء الزخرف، قال: فقرأت: ﴿حَمْدٌ ۝١ ۝٢﴾ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ ۝٣﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٤﴾ وَلَئِنَّهُ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّى حَكِيمٌ ۝٥﴾ (الزخرف: ١-٤)، فقال: أتدرى ما أم الكتاب؟

قلت: الله ورسوله أعلم! قال: فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السماوات، وقبل أن يخلق الأرض، فيه أن فرعون من أهل النار، وفيه تبت يد أبى لهب وتب،

قال عطاء: فلقيت الوليد بن عباد بن الصامت صاحب رسول ﷺ فسألته: ما كانت وصية أبيك عند الموت؟

قال: دعاني أبي فقال لي: يا بني، اتق الله، واعلم أنك لن تتقى الله حتى تؤمن بالله، وتؤمن بالقدر خيره وشره، فإن مت على غير هذا دخلت النار، وإنى سمعت رسول ﷺ يقول: (إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. فقال: ما أكتب؟ قال اكتب القدر ما كان وما هو كائن إلى الأبد) (١).

وروى الإمام أحمد في مسنده، عن الوليد بن عباد بن الصامت قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت فقلت يا أبتاه أوصني واجتهد لي. فقال أجلسوني، قال يا بني إنك لن تطعم طعم الإيمان ولن تبلغ حق حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: قلت: يا أبتاه فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله تبارك وتعالى القلم ثم قال اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة، يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار) (٢).

وعن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ، فنكس فجعل ينكت بمِخْصَرَتِهِ، ثم قال: (ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كُتِبَتْ شَقِيَّةٌ أو سَعِيدَةٌ) قال، فقال رجل: يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟!

فقال: (من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة)

(١) رواه الترمذی - القدر (٢١٥٥)، وقال: حسن صحيح غريب

(٢) رواية أحمد وأبو داود والترمذی بإسناد حسن

فقال: (اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة)، ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ كَفَلَ الْهَسْرَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ (١) (الليل: ٥-١٠)، ومنها أيضاً قول النبي ﷺ لأبى هريرة: (جف القلم بما أنت لاق) (٢).

وبما أن الله قد خلق كل شئ بقدر، فإن كل ما يحدث لك ولغيرك ولكل موجود أوجده الله، هو بمشيئة رب العالمين، وله سبب وحكمة، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالله هو المدبر لهذا الوجود الذى نعيش فيه، بمشيئة مطلقة وعلم إحاطة وتدبير حكيم، ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (الأنعام- ٨٠)، وبالتالي فإن الابتلاءات التى تصيبك، لها أهداف، وأسباب ونتائج، والواجب عليك كمؤمن أن تخضع لحكم الله وترضى بقضائه وقدره، سواء علمت مراد الله فى تدبيره أم لم تعلم.

القاعدة الثانية:

أنه لا مفر من الابتلاء، يصيب الله به المؤمنين كل حسب قوة إيمانه وتقواه. نعم إن الله سيبتليك ليختبرك، إن اتخذت الإسلام منهج لحياتك، وإن اخترت أن تكون مؤمناً بالله ثابتاً على ذلك، لا محالة ستقع فى الاختبار، فسنة الابتلاء سنة شاملة تشمل جميع أفراد الأمة دون استثناء أو محاباة لأحد، حتى الأنبياء، ستوضع فى اختبار تلو اختبار بحكمة الله وبعلمه، وستقابل مضايقات شديده مصحوبة بآلام ومعاناة، وعليك أن تتحملها وتتغلب عليها.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤) وقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ

(١) متفق عليه وهذا لفظ مسلم برقم ٢٦٤٧

(٢) متفق عليه

قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ (آل عمران: ١٨٦).

وقال: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣) (العنكبوت: ٢-٣).

قال الشيخ أحمد المراعى^(١) فى تفسير هذه الآية الأخيرة: يقول تعالى: (أيها الناس لا تظنوا أني خلقتكم سدى بل خلقتكم لترقوا إلى عالم أعظم من عالمكم وأرقى منه فى كل شأنه، ولا يتم ذلك إلا بتكليفكم بعلم وعمل، واختباركم من أن إلى آخر بانزال النوازل والمصائب فى الأنفس والأموال والثمرات والتخلى عن بعض الشهوات، وفعل التكاليف من الزكاة والحج والصيام ونحوها، فحياتكم حياة جهاد وشدة، شئتم أم أبيتم، وبمقدار ما تصبرون على هذا الاختبار وتفوزون بالنجاح فيه يكون مقدار الجزاء والثواب، وتلك سنة الله فيكم وفى الأمم الماضية من قبلكم وتاريخ الأديان ملئء بأخبار هذا البلاء وما لقيه المؤمنون من المكذبين بالرسول)^(٢).

قال المروزى: دخلت يوماً على أحمد، فقلت: كيف أصبحت؟

قال: كيف أصبح من ربه يُطالبه بأداء الفرائض، ونبيه يُطالبه بأداء السنة، والمملكان يُطالبانه بتصحيح العمل، ونفسه تُطالبه بهواها، وإبليس يُطالبه بالفحشاء، ومملك الموت يُطالبه بقبض روحه، وعياله يُطالبونه بنفقتهم؟^(٣).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد)^(٤).

(١) هو الأستاذ أحمد مصطفى المراعى عالم من الأزهر، مفسر مصرى من العلماء تخرج بدار العلوم، القاهرة، ١٩٠٩ م، عمل مدرساً للشريعة واللغة العربية بالقاهرة والخرطوم (ت ١٩٥٢ م) بالقاهرة

(٢) تفسير المراعى سورة العنكبوت

(٣) تهذيب الأداب الشرعية، ص ٢١٢

(٤) متفق عليه

قال العلماء: معنى الحديث أن المؤمن كثير الآلام في بدنه أو أهله أو ماله، وذلك مُكفر لسيئاته، ورافع لدرجاته، وأما الكافر فقليلها، وإن وقع به شيء لم يُكفر شيء من سيئاته، بل يأتي بها يوم القيامة كاملة^(١).

ويقول صاحب الظلال رحمه الله: (والمؤمن ذو نسب عريق، ضارب في شعاب الزمان، إنه واحد من ذلك الموكب الكريم، الذى يقود خطاه ذلك الرهط الكريم: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ويعقوب ويوسف، وموسى وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون: ٥٢).

هذا الموكب الكريم، الممتد في شعاب الزمان من قديم، يواجه مواقف متشابهة، وأزمات متشابهة، وتجارب متشابهة على تطاول العصور، وكر الدهور، وتغير المكان، وتعدد الأقسام، يواجه الضلال والعمى والطغيان والهوى، والاضطهاد والبغى، والتهديد والتشريد.

ولكنه يمضى فى طريقه ثابت الخطو، مطمئن الضمير، واثقا من نصر الله، متعلقا بالرجاء فيه، متوقعا فى كل لحظة وعد الله الصادق الأكيد ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) (إبراهيم: ١٣ - ١٤).

موقف واحد وتجربة واحدة، وتهديد واحد، وواقين واحد، ووعد واحد للموكب الكريم، وعاقبة واحدة ينتظرها المؤمنون فى نهاية المطاف، وهم يتلقون الاضطهاد والتهديد والوعيد^(٢).

قال ابن الجوزى: (أما بعد، فإننى رأيت عموم الناس ينزعجون لنزول البلاء انزعاجاً يزيد عن الحد، كأنهم ما علموا أن الدنيا على ذا وضعت! وهل ينتظر الصحيح إلا السقم؟! والكبير إلا الهرم؟! والموجود سوى العدم؟!)^(٣).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٧

(٢) الظلال، المقدمة

(٣) الثبات عند الممات لابن الجوزي

وكلما عظم البلاء، عظم الجزاء، والله الحكمة أنه إذا أحب قوماً ابتلاهم بالشدائد، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط، قال رسول الله ﷺ: (أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، لقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة، يجوبها^(١) فيلبسها، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدهم بالعطاء)^(٢).

القاعدة الثالثة:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

وهذا من عدل الله، فإله يكلفنا بما نقدر عليه ونطيقه، وما ستعرض له من فتن وابتلاءات، مهما كانت شدتها، كالفقر والحاجة، وفقدان المال والولد، والسجن والتضييق والتشريد ومهما كانت نظرتك إليها، أنها محنة عظيمة وأن النجاة منها قد تكون مستحيلة، فإنك تستطيع أن تتغلب عليها إن صبرت واحتسبت، وأن الله سيجعل لك منها فرجاً ومخرجاً، وهذا هو اختبارك فإن مع العسر يسرا، قال ابن القيم رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥-٦)، فالعسر - وإن تكرر مرتين - فتكرر بلفظ المعرفة، فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة، فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين، يسر قبله، ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين^(٣).

إن الله يختبر عباده بشدائد الأمور ولكن بفضله يجعل مع كل شدة سبيل النجاة. عندما اشتد إيذاء قريش للمسلمين، ورأى رسول الله ﷺ أنه لا بد من أرض أخرى تساعد على نشر دعوته، أمر صحابته بالهجرة، وبالفعل بدأ الصحابة

(١) أي يقطع وسطها ليلبسها

(٢) صحيح، السلسلة الصحيحة، رقم ١٤٤

(٣) بدائع الفوائد، ٢

بالهجرة في الخفاء، وانتظر رسول الله ﷺ الإذن من رب العالمين حتى يُهاجر هو أيضاً، وفي نفس الوقت كان زعماء قريش يعلمون أن رسول الله ﷺ سوف يلحق بصحابته، إن عاجلاً أو آجلاً، ولذلك فقد عقدوا اجتماعاً للتشاور ولتقرير ماذا ينبغي عليهم عمله ضد رسول الله ﷺ.

وفي اجتماعهم قرروا أن يقتلوا رسول الله ﷺ بطريقة تجبر عائلته أن يقبلوا بالدية بدون قتال وبدون أخذٍ للثأر، وأجمعوا أمرهم على أن يقتلوه عند خروجه من بيته صباحاً، وبالفعل أحاطوا بالمنزل استعداداً لتنفيذ الخطة، ولكن!!! لماذا أذن الله لرسوله بالهجرة في هذا الوقت تحديداً وهم مُحيطون بالمنزل؟! لماذا ليس قبل ذلك وهم غير مُستعدون هذا الاستعداد؟!

لماذا حتى بعد أن خرج رسول الله ﷺ من منزله والتجأ إلى غار ثور، وصل المشركون إلى حافة الغار حتى قال أبا بكر الصديق رضي الله عنه، لو نظر أحدهم أسفل قدميه لرآنا؟! أسفل قدميه لرآنا؟!

هي رسالة من رب العالمين للدعاة إليه، وللسائرين في طريقه على صراط مستقيم، أن لا تجزع ولا تخاف، حتى وإن أحيط بك وظننت أنك هالك لا محالة، فاعلم أن هناك رب، يسمع ويرى، يُدبر بعلمه، وهو ناصر ومؤيد عباده المؤمنين وسيجعل لهم سبيل النجاة، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، وما ينبغي عليك هو اليقين بذلك، فمهما اشتد العُسر فإنه لن يغلب يُسر الله.

القاعدة الرابعة:

﴿إِنْ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠)

قال رسول الله ﷺ في خطبته ذات يوم: (ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل

الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب...^(١).

الله خلق الخلق، وهى لهم الأرض ورزقهم كما سبق وأشرت، ثم جاءت الشياطين وأضلت بنى آدم وجعلتهم يعبدون الأوثان، حتى أن الله عندما اطلع على أهل الأرض بغضهم أشد البغض، إلا القليل الباقي من أهل الكتاب الذى ظل متمسكاً بدينه، وكان ذلك قبل بعثة رسول الله ﷺ، ولكن عندما بعث الله رسوله ﷺ، وأنزل عليه القرآن نرى عجباً، إن سور القرآن لم تبدأ ببسم الله المنتقم الجبار، أو بسم الله شديد العقاب، زجراً لمن كفر من الناس، وتحذيراً من عقاب رب العالمين، بل على العكس نزلت سور القرآن ببسم الله الرحمن الرحيم، وبلى وتكرر الرحمن الرحيم فى أول سورة من القرآن الكريم فى ترتيب المصحف الشريف فقال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣﴾ (الفاتحة - ١:٣).

والسبب أن رحمة الله سبقت غضبه، وعفوه سبق انتقامه، فهو يريد الرحمة للناس، ولا يريد لهم العذاب والألم والمشقة ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَادِيكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَاَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء - ١٤٧).

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: قدم على النبى ﷺ بسبى، وإذا امرأة من السبى يتحلب ثديها، كلما وجدت صبياً فى السبى أخذته فألصقته ببطنها، فقال رسول الله ﷺ: (أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ قالوا: لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه، فقال: والله، لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها)^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: (جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)^(٣).

(١) رواه مسلم برقم ٢٨٦٥، باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار

(٢) متفق عليه

(٣) متفق عليه، وهذا لفظ مسلم برقم ٢٧٥٢

هذه هي رحمة رب العالمين ، رحمة أعظم مما يمكنك تخيلها ، يقول تعالى عن نفسه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) ، وضرب رسول الله ﷺ مثالا لكي يمكننا تصور بعضاً من هذه الرحمة عندما سأل صحابته (أترى هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟) ، وكان ردهم الطبيعي (لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه).

والمعنى المقصود أن رحمة الله قريبة منك فلا تظن في الابتلاءات التي تتعرض لها أن الله يريد لك المشقة والألم والمعاناة ، بل ما أرسل عليك هذه الابتلاءات إلا لأنه يحبك ويريد لك الخير وعليك أن تفتن لذلك وتفهم حكمة الله من هذه الابتلاءات كما سنرى بعد قليل.

القاعدة الخامسة:

لست وحدك من يتعرض للابتلاءات

بل ابتلى و يُبْتَلَى كل المؤمنين من لدن آدم إلى قيام الساعة بالخير والشر ، بل وابتلى من هم خير منك أنبياء الله عليهم السلام ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَنْهَضَهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الانعام: ٢٤) ، وبما أن الكثيرين من المؤمنين استطاع الصبر على البلاء وتحمل مشقته وفتنته ، فيمكنك أنت أيضا ، وإعلم أن قوة إيمانك هي التي ستحدد طريقة تعاملك مع الابتلاء وصبرك عليه.

قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

(عن خباب بن الارت رضى الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا : ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا . فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه

فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصدده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون^(١).

وفى ابتلائك، أمرك كله خير إن صبرت على الضراء كان خير لك وإن شكرت على السراء كان خير لك.

إن الله خلقك ابتداءً وهو يعلم أنك ستتعرض لهذه المحن وهذه الابتلاءات، وجعل في ذلك اختبار لك ولتحصل على المكانة الكريمة التي أعدها لك، ولو نظرت جيداً إلى حقيقة الابتلاء ستدرك أن الابتلاء ماهو إلا تكريم من رب العالمين لك، أن اختارك أنت ليُعدك لتكون عبد من عبيده الفائزين في الآخرة وجند من جنده في الدنيا.

القاعدة السادسة:

(إن الله مطلع عليك يسمع ويرى، ينظر ماذا تعمل)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس - ٦١).

وقال رسول الله ﷺ: (إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون)^(٢).

وعندما جاء الأمر لنبي الله موسى عليه السلام بالذهاب هو وهارون إلى فرعون قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوَّانٌ يَظْعَنُ﴾ (طه - ٤٥)، فكان رد رب العالمين: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (طه - ٤٦).

(١) صحيح البخارى - كتاب الإكراه - باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر

(٢) صحيح مسلم، كتاب الرقائق

نعم إن الله يسمع ويرى ما أنت فيه، فأرى الله من نفسك صبر وجلد، وإن أخلصت له دينك سيكون معك ويهديك، فأنت لست وحدك بل معك رب العالمين، وليكن شعارك ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف - ٨٦).

قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور - ٤٨).

وقال: ﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُونٌ﴾ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ (الشعراء: ٦١ - ٦٢).

وفى الهجرة فزع أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وهما فى الغار وخاف على النبى ﷺ وقال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرْنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، قَالَ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بَاثْنَيْنِ اللَّهُ تَالِثُهُمَا؟) ^(١)

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا، فقال النبى ﷺ: (أيها الناس اربعوا) ^(٢) على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ولكن تدعون سميعا بصيرا) ^(٣).
إن الله لم يغفل عن حبة فى ظلمات الأرض، فهل يغفل عن عباده المؤمنين؟!

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩).

فكن على يقين أنه لن يغفل عنك، ولن ينساك، فهو يسمعك ويرى مكانك، واعلم أن الله هو من أرسل عليك الابتلاء، وهو من يُلهمك الصبر إن إستعنت به، ويريد الله أن يرى ثباتك وقوة خطواتك فى السير على المنهج الذى إرتضاه لك.

(١) متفق عليه

(٢) أى ارفقوا ولا تجهدوا أنفسكم

(٣) صحيح البخارى - كتاب الدعوات

القاعدة السابعة:

﴿وَلْنُصَنِّعْ عَلَىٰ عَيْنَيْكَ﴾ (طه - ٢٩)

– إن البلاء ليس كله شر، بل يتضمن خيراً أيضاً، فأنت فى فترة الابتلاء تكتشف نفسك، وتكتشف طبيعتها التى كانت غائبة عنك ولم تظهر إلا بنزول البلاء، والمؤمن الفطن هو من يستطيع أن يلحظ ذلك، فهو لا يدع الحوادث تمر هكذا، مر الكرام.

– فى البلاء يكتشف المؤمن نقاط القوة والضعف فى نفسه، وإن أراد لنفسه خيراً سعى فى إصلاح الخلل (فهو أدرى الناس بنفسه) ليستحق تكريم رب العالمين بالإستخلاف والتمكين.

– إنك كمؤمن لن تستطيع أن تغير ما فى نفسك، حتى تكتشف ما فى نفسك أولاً، تكتشف عيوبها وثغراتها^(١)، تكتشف ضعفها وعجزها، تكتشف جبنها وبخلها.

فى الابتلاء أنت تأخذ الفرصة كاملة لترى نفسك على حقيقتها، مجردة من الأهواء، مجردة من الشهوات، مجردة من حب الدنيا.

فى الابتلاء أنت تكتشف الإيجابيات والسلبيات التى فى نفسك. وإن أردت لنفسك ولدينك الخير ستفهم رسالة رب العالمين فى الابتلاء وستسعى جاهداً لإصلاح نفسك وإصلاح ما حولك.

– قال الحسن البصرى رحمه الله:

لا تكرهوا البلىا الواقعة، والنقمات الحادثة، فَلَربَّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك، وَلربَّ أمرٍ تؤثره فيه عطبك (أى هلاكك).

وقال الفضل بن سهل: إن فى العلل لنعماً لا ينبغى للعاقل أن يجهلها، فهى

(١) أماكن الضعف فى نفسك والتى ينفذ منها الشيطان إلى نفسك

تمحيص للذنوب، وتعرض لثواب الصبر، وإيقاظ من الغفلة، وتذكير بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء للتوبة، وحض على الصدقة.

القاعدة الثامنة:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم - ٤٧)

إن العاقبة للمتقين، والنصر لا محالة سيكون للمؤمنين، ومعيار النصر ليس فقط كما قد يتصور البعض بأن تغلب عدوك وأن تظهر عليه، ويكون لك التمكين، بل إن من النصر الثبات على الإيمان، حتى تموت عليه، فهو نصر عظيم يضع صاحبه في مراتب الشهداء، فهو نوع آخر من الاصطفاء لمن يرى فيه الله استحقاقه للشهادة، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ (آل عمران - ١٤٠).

إن النصر الحقيقي هو الثبات والصبر وتحمل المشاق حتى يأتي الفرج من الله بالتمكين لدينه، أو اصطفاء المؤمن شهيداً.

وبالتالي فإن مقياس الأمور هو عاقبتها ونهايتها، بينما المراحل فهي أزمنة عابرة، بعسرها ويسرها، فمن صبر فله النصر ومن ارتد على عقبيه، فقد خسر آخرته بدنيا فانية والآخرة خير وأبقى، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. - عندما خرج رسول الله ﷺ مهاجراً، خرج هو والصديق رضى الله عنه، رجلان وفقط تتبعهما مكة عن بكرة أبيها تبحث عن رسول الله ﷺ لترده عن سبيله وتقتله، واستطاع النجاة منهم بفضل الله ومعونته، وتمر السنين ويرجع رسول الله ﷺ بصحبة عشرة آلاف مقاتل، فيهرب منه أهل مكة، فمنهم من يلزم بيته ومنهم من يلزم المسجد الحرام طمعاً في النجاة.

نتألم ونحزن عندما نقرأ عن رسول الله ﷺ وهو ينظر إلى مكة في ساعة الهجرة وهو يتألم أن يتركها وهي أحب البلاد إليه، ولكن نسعد ونفرح ونستبشر عندما نقرأ عن دخوله مكة معزراً مُكرماً في كتائب المسلمين، هذا هو تأييد رب العالمين الذي يؤيد بنصره من يشاء إن سار على طريقه ولم يُغير أو يُبدل، فلا تنظر للابتلاء

الذى يصيبك الآن أنه هو النهاية ولا مخرج لك، بل استبشر وكن دائم الصلة بالله حتى تستحق منه المعونة.

قال تعالى ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنُؤْتِيهِمُ الْأَشْهَادَ ﴾ (غافر - ٥١)
قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية: (وهذه سنة الله فى قديم الدهر وحديثه أن ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا ويقرأ عينهم ممن أذاهم.

وقال السدى: لم يبعث الله عز وجل رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلونهم فيذهب ذلك القرن، حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم فى الدنيا، فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا وهم منصورون فيها) (١).

(ومعنى ذلك أن المؤمنين وهم أهل الحق هم المنصورون وإن قتلهم أهل الباطل وانتصروا عليهم فى الظاهر إلا أن العاقبة للمؤمنين ولو بعد حين، حيث يأتى من يعاقب المبطلين ويقتلهم جزاء ما فعلوه بأهل الحق، وهذه علامة على اندحار أهل الباطل وغلبة أهل الحق عليهم) (٢).

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كُفْمُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧١) ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ (١٧٢) ﴿ وَإِنْ جُنَدَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١٧٣) (الصافات: ١٧١ - ١٧٣).

القاعدة التاسعة والأخيرة:

(بعد الموت لا يوجد فناء، ولكن يوجد خلود)

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

الخلود: أى الدوام والبقاء.

أبداً: ظرف زمان للمستقبل، ويدل على الاستمرار.

وخالدين أبداً: أى حياة دائمة وباقية باستمرار، بلا موت.

(١) تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ٢٢٩

(٢) السنن الإلهية د. عبد الكريم زيدان

الموت، مرحلة انتقالية في دورة حياة الإنسان، الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أصبح جنيناً في بطن أمه ليبدأ دورة حياته، ثم خرج منها، في طور جديد، وتدرج من ضعف إلى قوة، واستمرت حياته حتى عادت من قوة إلى ضعف، ثم تبدأ دورة جديدة بالموت، فهو ليس فناء للإنسان ولكنه تحول من مرحلة العمر المحدود إلى مرحلة الخلود.

مكان الخلود: (مكانين لا ثالث لهما):

١ - جنة الرحمن حيث سعادة وهناء دائم، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، فيها ما لم يخطر على قلبك أو على قلب بشر، فيها مُلك لا يبلى، والأعظم من ذلك، أن هذا النعيم يصحبه خلود بلا موت، (سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول أى رب! كيف؟! وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب! فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال فى الخامسة: رضيت رب! فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك. فيقول: رضيت، رب!

قال: رب! فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر^(١).

ومصادقه فى كتاب الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة - ١٧).

٢ - ولكن، هناك خلود من نوع آخر، هناك نار تلظى، عذاب وشقاء دائم لا ينقطع، يأكلون من شجر الزقوم، شرابهم من الحميم (تخيل الحميم البركانية)، يصرخون فيها، ربنا أخرجنا منها نعمل غير الذى كنا نعمل، سنتبع صراطك

(١) رواه مسلم برقم ١٨٩

المستقيم، ولكن أخرجنا من النار، ولكن كلا إنهم لابئين فيها أحقابا (تقاس الحقة بملايين السنين)، ولا يموتون فيها فهم خالدون، أى عذاب هذا؟! أى شقاء هذا؟! ومن أجل ماذا؟!

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۚ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۚ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۚ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ۚ حَتَّىٰ آتَيْنَا آلِيَقِينَ ۚ ﴾ (المدر: ٤٢- ٤٧).

- ما هى الأعمال التى أوجبت لهؤلاء عذاب الجحيم؟!

ترك الصلاة: والتى تعنى ترك الخضوع لأوامر الله، فالصلاة هى عمود الإسلام والأساس الصلب الذى يقوم عليه، فهى الركن الثانى من أركان الإسلام بعد توحيد رب العالمين والاعتراف برسالة رسوله ﷺ، وبها يتحدد مدى صلاح الأعمال ومدى فسادها، فإن صلحت الصلاة، فهذا يعنى أن المحافظ عليها يُحافظ على تنفيذ أوامر الله، ويعنى بالتالى أن يصلح باقى العمل، بينما إن فسدت الصلاة وضيعها صاحبها، فهو لغيرها من أوامر الله أضيع، وبالتالى فسد كل عمله، واستحق العقاب من رب العالمين.

ترك الصدقة: فقد كانوا يبخلون بأموالهم فى الدنيا، ولم يُعطوا الفقراء حقوقهم، فى الوقت الذى كانوا يكتزون هم الذهب والفضة ويعلون فى البنيان، كان هناك فقير بجوارهم، لا يجد ما يسد به جوعه، فكان يُعانى وهم يتنعمون، ولو أخرجوا صدقات أموالهم لرفعوا عن هؤلاء الفقراء كل المعاناة التى تعرضوا لها، ولجزاهم الله عنها خير الجزاء فى الآخرة، ولكنه شح النفس التى لم تؤمن بالله.

الخوض مع الخائضين، السير فى ركاب الظالمين، ومشاركة أهل الفساد فى إفسادهم، سواء بعلم أو بغير علم، ونقل الشائعات والخوض فى المحرمات، والخوض فى أعراض المسلمين، فلم يكن هناك إيمان يمنعهم من ذلك بل كانوا يتبعون هوى النفس.

والتكذيب بيوم الدين، فلو أنهم كانوا يوقنون بيوم الدين حقاً، لو أنهم كانوا مُوقنين بالحساب والجنة والنار، لما ضيعوا الصلاة، ولما فرطوا فى أوامر الله

ونواهيته، ولأدوا زكاة أموالهم، ففقدانهم اليقين بيوم الدين كان السبب الرئيسى الذى جعلهم يخوضون فى المعاصى والآثام بدون تحرج وبدون وازع من ضمير.

وبالتالى: فأنت فى فترة عمرك الزمنية المحدودة فى هذه الحياة الدنيا من تصنع مصير خلودك الآن، فإما خلود بلا موت فى جنة الرحمن، وإما خلود بلا موت فى السعير، فاختر لنفسك!

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (آل عمران - ١٨٥).

الفصل الثانی

حکمة الإبتلاء

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك_٢).

obeikandi.com

لماذا ينزل الابتلاء بالمؤمنين؟

ينزل الابتلاء بالناس كافة، فالحياة الدنيا هي دار ابتلاء وشدة، وليست دار مُستقر وراحة، ولكن ما سأتعرض له هو الابتلاءات التي تصيب المؤمنين، فهي تنزل بهم لأسباب كثيرة، منها ما نعلم حكمته، ومنها ما لا نعلم الحكمة منه، ولكن نرضى بقضاء الله وقدره، ونسعى جاهدين لمعرفة هذه الحكمة، ومن هذه الأسباب:

- ١ - اختبار صدق العبد: فيما يدعى من حب الله وطاعته، واختبار صبره على أداء الأوامر الإلهية، والانتهاز عند نواهيها، فالإدعاء بالإيمان لا يُغنى شيئاً بدون دليل على هذا الإيمان، وهي الأعمال التي تثبت ذلك.
- ٢ - تحديد مستوى إيمان المؤمن:

إن الإيمان درجات، وما يحدد درجة إيمانك هو نجاحك في الاختبارات التي تتعرض لها (الابتلاءات)، فالابتلاءات أنواع ومستويات من الشدة، كما سنرى بعد قليل، وبالتالي كلما نجحت واجتزت هذه المستويات، كلما دل ذلك على مستوى الإيمان الذي أنت فيه، وبالتالي بالنظر إلى الابتلاء الذي تتعرض له الآن، ستعلم ما هو مستوى إيمانك عند رب العالمين.

- ٣ - تمكين الإيمان من قلوب المؤمنين: فإن الابتلاء يحمل حكمة، ورسالة من رب العالمين، إن فهمها المؤمن حقق الابتلاء هدفه من إظهار المعدن الأصيل للمؤمن، وقاد خطاه لتسمو نفسه فوق الشهوات، ليحقق معنى الإيمان كاملاً، فإنه لتحقيق العبودية والتوحيد الخالص لله، لا بد أن يكون الإيمان مُكَّن في قلوب المؤمنين، ولذلك كان لزاماً إعداد المؤمنين بالاختبارات (الابتلاءات)، لتَهْذِيب أنفسهم وتنقيتها مما علق بها من حب الدنيا، وتقويم سبيلهم، وتدريبهم على الصبر على الصعوبات التي ستواجههم في الحياة الدنيا حتى يكون الدين كله لله.

- ٤ - أن يعلم المؤمن أن الدنيا ليست دار مُستقر: ولذلك يصاب فيها بالابتلاءات،

فيتجه بقلبه إلى العمل لدار المستقر الدائم في الجنة، فقد جعل الله الابتلاءات الشديدة وسيلة أن يرى المؤمن الحياة الدنيا على حقيقتها، وهي مجردة من الزينة، مجردة من الزخرف الذي قد ينخدع به في فترة من الفترات، وعندها يفهم المؤمن حقيقتها، ويفهم مراد الله في أرضه، وأن هذه الحياة ما هي إلا سلسلة متواصلة من الابتلاءات سواء بالخير أو بالشر، فتنتطلق روحه ومشاعره في طريقها الصحيح، لا تأخذه في الله لومة لائم، قوى النفس في السمع والطاعة، قوى النفس في المنشط والمكروه، قوى النفس في الإنفاق في سبيل الله في العسر واليسر، قوى النفس في الدفاع عن منهج الإسلام كما يدافع عن أهله وماله.

يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله: (ما معنى الابتلاء؟ الناس يظنون أنه شر ولكنه في الحقيقة ليس كذلك، لأن الابتلاء هو امتحان، إن نجحنا فيه فهو خير، وإن رسبنا فيه فهو شر، فالابتلاء ليس شر ولكنه مقياس لاختبار الخير والشر، فالذي إبتلى هو الله، هو الرب، والرب معناه المربي، الذي يأخذ من يربيّه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه، ومن أساس التربية أن يمتحن المربي من يربيّه ليعلم هل نجح في التربية أم لا؟^(١).

٥ - وملخص لما سبق، فإن الابتلاء ينزل لمصلحة المؤمن الشخصية، فالله يعلم ونحن لا نعلم، فالابتلاء تكفير للذنوب، ورفع للدرجات، وتهذيب للأخلاق، وتربية للنفس، وتقويم لسبيل المؤمن، وسنرى ذلك كله خلال عرض أنواع من الابتلاءات.

- واعلم أخى الكريم أنه لا أحد فوق الابتلاء، بل الجميع سيُبتلى، مهما علا شأنه، وزادت مكانته العلمية والاجتماعية، فلا بد له من الابتلاء، ليميز موقعه في الصف المسلم.

- وكما أن الإيمان درجات متفاوتة، فإن الابتلاء يتفاوت بين الناس كل حسب

(١) تفسير الشعراوي سورة البقرة آية ١٢٤

إيمانه، فإن الله سبحانه وتعالى يبتلى الناس ليميزهم ويصنفهم فى درجات، ويظل الابتلاء فى الناس، حتى يتميز الصف المؤمن، ويظهر صف المنافقين وأصحاب المصالح وذوى الأهواء وأصحاب النفوس الضعيفة، بالإضافة إلى إعداد المؤمنين، بأنواع معينة من الابتلاءات، حتى إذا استعدت النفس المؤمنة لتحمل تبعات حمل رسالة رب العالمين، أتى نصر الله لعباده المؤمنين بالتمكين لهم فى الأرض.

الدروس والحكمة الخفية فى الابتلاء

– لو نظرنا إلى الحياة الدنيا كدار اختبار وابتلاء، سنجد أن فى كل يوم جديد اختبار جديد، ستتعرض فيه لفتن وبتلاءات ومواقف شتى، وكلها لها حكمة وقدر، والمؤمن الكيس الفطن هو الذى يغتنم الفرصة اليومية الجديدة فيحاول تعلم طرق النجاح فى الاختبار، ويستعد لما سيأتى بعد ذلك.

– إن الله خلق عباده لتحقيق العبودية الكاملة له سبحانه، وكل العبادات التى يؤديها المسلم فى مجملها هى لتحقيق هذه العبودية ليقوم المسلم بتنفيذ أوامر الله ويجتنب نواهيه، ومن جانب آخر فإنه بعبوديته لله، يتعرف على الله ويتقرب منه، وكلما ازداد المسلم حرصاً على القيام بواجباته وأداء ما افترضه الله عليه، كلما ازداد إيمانه، وارتقت نفسه، والعكس، فكلما أهمل المسلم أداء واجباته وما افترضه الله عليه، كلما قل إيمانه وران على قلبه، فيأتى الابتلاء ليصيب الإثنين من أطاع الله ومن عصاه، ليقود خطى الإثنين للارتقاء أعلى وأعلى فى مستويات الإيمان، وما ذلك إلا رحمة من رب العالمين بعباده، فهو يريد لهم الرحمة والدرجات العلا فى الجنة، ودرجتك تتحدد حسب مستوى إيمانك.

– الأمر أشبه بالطفل الذى يدخل المدرسة لأول مرة فى حياته، ويذهب إليها يومياً ليتعلم دروساً جديدة، فإن كان طالباً مجتهداً، فإنه سيسعى إلى تحصيل العلم الكافى الذى يُمكنه من اجتياز الاختبارات المتكررة خلال العام، حتى يأتى الامتحان الأصعب فى نهاية كل سنة دراسية (والذى يشبه تدرج شدة الابتلاءات كما سنرى)، وفى نهاية كل مرحلة دراسية وباجتيازها بنجاح ينطلق الطالب إلى مستوى أعلى، والذى سوف يواجه فيه منهج أشد، وبالتالي اختبارات أشد، وبالتالي أيضاً وجب عليه أن يزيد فى أداء واجباته، حتى يستطيع اجتياز العقبات الجديدة، وهكذا يرتقى الطالب فى المستويات الدراسية، (وهكذا يرتقى المؤمن فى

المستويات الإيمانية)، حتى يصل الطالب إلى السنة الدراسية الأخيرة والتي تحدد مسار حياته التالى.

– ارجع بذاكرتك إلى موقف مؤلم تعرضت له، إلى حادثة مررت بها، أو سمعت بها وكان لها وقع شديد على نفسك، هل تعلمت منها شيئاً؟ هل علمت الحكمة منها؟

– اعلم أن الله قبل خلق السماوات والأرض، قد أعد لك هذه الحادثة، فى هذا الوقت تحديداً، ليختبرك بها، وليعلمك منها درس وليمنحك منها حكمة.

واعلم أن الفتن التى يُعانى منها المسلم لها دور رئيسى فى تحديد مواطن الخلل فى قلب المسلم^(١)، بينما الابتلاء له دور رئيسى فى علاج هذا الخلل.

– واعلم أن أى ابتلاء يصيبك حتى وإن تشابه مع ابتلاء فرد آخر، إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون له نفس الحكمة ونفس الرسالة التعليمية، وذلك لأن الطبيعة الشخصية (القلبية) لكل فرد، وطبيعة نشأته تختلف من إنسان لآخر، وبالتالي فإن كل ابتلاء مُعد بحكمة بحيث يتناسب مع ما يجب على المؤمن تعلمه حتى ترتقى نفسه ويكتمل إيمانه.

وصدق القائل :

نوائب الدهر أدبتنى وإنما يُوعظ الأديب
قد ذُقت حُلواً وذُقت مُراً كذاك عيش الفتى ضروب
لم يمض بؤس ولا نعيم إلا ولى فيهما نصيب
كذلك من صاحب الليالى تغذوه من دَرّها الخطوب^(٢)

إن من أسماء الله الحسنى: الخبير، العليم، الحكيم، اللطيف
الخبير: أى الخبير بأمور عباده فلا يخفى عنه شئ، (هو الذى لا تعزب عنه

(١) وهو ما سألينه إن شاء الله فى كتاب (فتنة الدهيماء)

(٢) آداب الدنيا والدين ٢٥٦

الأخبار الباطنة، ولا يجرى فى الملك والملكوت شئ ولا يتحرك ذرة ولا يسكن، ولا يضطرب نفس ولا يطمئن إلا ويكون عنده خبر^(١).

العليم: أى المحيط بكل شئ علماً.

الحكيم: أى يضع الأشياء فى موضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتقنها وأحسنها فى الأمور المختلفة، لما يعطى أحسن النتائج، ولما كانت الحكمة تقتضى أن يكون الحكيم ذا علم بكل الاحتمالات الممكنة، حتى يختار منها ما هو الأحكم، يأتى ذكر العليم الحكيم معاً اختياراً كاملاً للتلائم فى الثناء على التصارييف الربانية فى الكون بصورة عامة، وفى العباد ذوى الإرادات الحرة بصورة خاصة^(٢).

اللطيف: هو الذى يجرى تدابير وأعماله برفق، أى أن أعماله تجرى دون أن تدرك بإحساس، حتى تظهر نتائجها، وقد تجرى على خلاف المظنون من الأسباب^(٣).

إن الله خبير بأنفس عباده، خبير بطرق علاجها وتقويمها، حكيم فى إختيار نوع الابتلاءات والأحداث التى يمكن أن تسوق المؤمن إلى أن يتبع المنهج الربانى كاملاً إن فطن إلى ذلك، لطيف بطريقة صياغة الأحداث فتهون بذلك على قلب المؤمن. * فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّضَلِّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ (التوبة - ١١٥)، (أى أن الله لا يحكم على قوم بالضلال حتى يبين لهم ما يجب عليهم أن يحذروا منه ويتقوه) (أى إلزام أمر الله ونهيه)، فإن وافقوا هذا البيان هداية معونة، وإلا كانوا من الضالين^(٤).

(١) الإمام الغزالى: المقصد الأسنى

(٢) معارج التفكير ودقائق التدبر، (١٠ / ٧٤١)

(٣) المرجع السابق يتصرف

(٤) انظر تفسير الشعراوى، وابن كثير والقرطبى للآية

أمثلة على بعض من الحكم الخفية في الابتلاءات^(١)

• المثال الأول:

قد ترجع من عملك في يوم من الأيام (وقد يكون دائماً)، وأنت مُرهق وتكاد أن تسقط فاقداً الوعي من شدة التعب، ونتيجة لتعبك قد تهمل أداء الصلاة، أو أداء واجبات يجب عليك أدائها قبل الراحة.

في هذا اليوم عندما رجعت إلى بيتك وجدت ابنك مريض بشدة، في هذه اللحظة قد تتردد قليلاً أن تستريح أولاً، ثم تذهب بعد ذلك بابنك إلى الطبيب، ولكن شدة مرض ابنك تجعلك تنفض عن نفسك التعب والإرهاق وتأخذ ابنك سريعاً إلى أقرب طبيب.

ما هي الحكمة من هذا الابتلاء في هذا الوقت تحديداً؟!

– للوهلة الأولى سنقول هو ابتلاء من عند الله يُكفر به بعض الذنوب، وهذا حق.

– ولكن من الحكمة الخفية والدرس التعليمي الذي يجب أن يفطن إليه المؤمن،

هو أن هذا الابتلاء جاء برسالة: **الأن تهمل تنفيذ أوامر رب العالمين.**

لقد ألقى التعب والإرهاق جانباً وانطلقت سريعاً لإنقاذ ابنك، أفلا يكون أولى أن تُنقذ نفسك من عقاب رب العالمين وتؤدي الصلوات، والواجبات قبل راحتك، إن المؤمن الفطن هو من سيعي الدرس، فالتعب والكسل لم يكن حقيقياً، بل هو وسوسة شيطان حتى لا تقوم بتنفيذ أوامر رب العالمين، مثل حديث رسول الله ﷺ: (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة – عليك ليل طويل فارقد – فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة،

(١) لا أدعي أن هذه هي الحكمة التي أرادها رب العالمين، ولكنها محاولة لفهم طريقة عمل الابتلاء، وطبيعتها

فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس، كسلان^(١) بينما الغافل سيمر عليه الحدث فلا يتعلم منه شيء.

• المثال الثانى:

طالب مُجتهد فى دراسته، يؤدى واجباته كما ينبغي، وفجأة قبل الاختبار النهائى بيوم واحد يُصاب بمرض شديد يمنعه من الإستذكار قبل الاختبار، ما هى الحكمة من ذلك؟!

– بالنسبة للطالب المجتهد فإن المرض لن يُغير من علمه شيء، لأنه كان مُستعداً قبل ذلك، واحتمالية أن يتجاوز الاختبار بكفاءة إحصائية كبيرة.

– بينما الطالب غير المجتهد، فسيكون المرض عليه بلاء شديد، فهو أساساً غير مُستعد للاختبار، يزداد على ذلك المرض، وبالتالي فاحتمال تجاوز الاختبار ضعيف جداً.

– فى العادة سنقول إنه قضاء وقدر، ولا يوجد نصيب، هو ابتلاء وكفى، وهذا أيضاً حق، ولكن!!!

– إن الحكمة الخفية للمؤمن أنه يجب عليه أن يستعد دائماً بالأعمال الصالحة، ويأخذ جانب الحيطة والحذر من تقلبات الحياة الدنيا.

فلا تدرى نفس تقلبات القلوب فى الفتن، ولذلك كانت وصية رسول الله ﷺ: (بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مُطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مُفنداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر)^(٢)، تتقلب الأحوال والأزمان، فمن كان مُستعداً لذلك فسيكون الأمر عليه يسيراً.

وكذلك لا تدرى نفس متى ستموت، فالموت يأتى بغتة، وفجأة ستجد نفسك

(١) متفق عليه

(٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن

أمام ملائكة رب العالمين، إنتهت الدنيا، إنتهى الإختبار، فإن لم تكن مستعداً، فستنادى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿ (المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠)، كلا، كانت لديك الفرصة كاملة وأنت لم تستفد منها، لا يوجد رجوع لتصحيح الأخطاء، ولذلك فحكمة الابتلاء إما أن تعمل صالحاً من الآن، وإما أنك ستقع فريسة للحياة الدنيا، فيضيع عمرك ذات اليمين وذات الشمال حتى تُلَاقَى ربك وليس لك حُجَّة تُنْقِذُ بها نفسك.

• المثال الثالث:

قد تكون مهتماً جداً بموضوع معين، وتستعد له، وتقوم بترتيب حياتك عليه، ثم يحدث أمر ما يُعطلك عن هذا الموضوع، وتفقد ما كنت تأمل أن تحصل عليه من مكسب، قد يكون مالياً، قد تكون وظيفة كبيرة، وقد يكون غير ذلك، وانتشر بين الناس مقولة لا تصح أن تُقال وهى: (يا مستعجل عطلك الله)، ولكن أيضاً ما هى الحكمة من فوات الفرصة التى كنت تتمناها وتتطلع إليها؟

— هى رسالة إلى كل صاحب عقل، أن متاع الحياة الدنيا إن فاتك، فإن الحياة ستستمر، وستظهر غير هذه الفرصة فرص أخرى كثيرة، فلا تجعل من الدنيا أكبر همك ومبلغ علمك، فيكون سبب فى هلاكك، ولن تحصل منها إلا على ما كتب الله لك، وفى نفس الوقت احذر أن يفوتك عمل الآخرة، لأن فواته قد لا يُمكنك تعويضه، كمن لم يصم يوم فى رمضان مثلاً، أو كمن كان فى استطاعته رفع الظلم عن مسلم ولم يفعل ذلك.

• المثال الرابع:

قد يُصاب أحد أفراد أسرتك التى تُحبها وتبذل حياتك من أجلها، بمرض شديد يدفعك إلى أن تُنفق الأموال الطائلة فى سبيل علاجه، وقد يموت بعد كل المحاولات التى قمت بها.

بالنظرة الأولى سنرى أنه ابتلاء بالصبر، وابتلاء بتكفير السيئات ورفع الدرجات.

ولكن، أين الحكمة الخفية التى ينبغى عليك أن تتعلمها من هذا الابتلاء؟
 - إنك فى سبيل علاجك لأحد أفراد أسرته قد أنفقت كل هذه الأموال الطائلة،
 ولكن على الجانب الآخر فإن الله قد أمرك بأقل من ذلك بكثير، أمرك بأداء زكاة
 أموالك، وأمرك بالصدقة على الفقراء والمساكين، وأن تصل بهذا المال رحمك،
 بل لقد جعل فى الصدقة (التى لم تقوم بها) الشفاء، فقال ﷺ: (داووا مرضاكم
 بالصدقة)^(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ (سبأ - ٣٩)، فمهما أنفقت
 من شئ فى سبيل الله سواء قل أو كثر فإن الله سيُخلفه فى الدنيا، قبل الثواب العظيم
 فى الآخرة.

قد تكون بخلت بمالك أن تُنفق منه فى سبيل الله، فجاء الابتلاء ليعلمك الدرس:
 ليس المال الذى تكتنزه هو الثروة الحقيقية، إن يشأ الله يجعله هباء منثوراً، ولكن
 الثروة الحقيقية هى ما ستجده من ثواب نتيجة إنفاقك عند رب العالمين فى الآخرة،
 فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: (أنهم ذبحوا شاة)، فقال النبي ﷺ: (ما
 بقى منها؟)، قالت: ما بقى منها إلا كتفها، قال: (بقيت كلها غير كتفها)^(٢).
 وصدق رسول الله ﷺ، فما تصدقت به هو الباقي، وما أكلت فهو الفانى، وما
 تكتنزه سيكون به عذابك إن لم تؤدى حقه.

• المثال الخامس والأخير:

فى الابتلاءات العامة والشديدة التى تجتاح مناطق كاملة مثل زلزال مدمر
 أو فيضان مُهلك، فيموت الكثير، ويتشرد الأكثرية، وينجو القليل، فإن هذا الابتلاء
 يحمل فى طياته ابتلاء التحذير من غضب ونقمة رب العالمين، ولكنه وفى نفس
 الوقت يحمل حكمة خفية!

- هذه الحكمة لها جانبان: جانب عام وجانب خاص.

(١) أخرجه الشيخ الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم ٣٣٥٨ وحسنه

(٢) حديث صحيح، رواه الترمذى

الجانب العام:

إنه ينبغي على الناس أن يتكاتفوا جميعاً لرفع آثار هذا الابتلاء، والعمل على تقليل حجم الأضرار الناشئة عنه، فلن يستطيع واحداً بمفرده أن يقوم بذلك ولا حتى مجموعة قليلة من الأفراد، بل يجب على كل قادر منهم أن يتعاون، وإلا هلكوا جميعاً وذلك لأن وجود جثث الموتى، بالإضافة إلى غياب الرعاية الصحية قد يؤدي إلى إنتشار الأمراض المهلكة إن لم يتم إنقاذ سريع، والحكمة أنه عندما يزيد المنكر في المجتمع، ويخرج عن السيطرة، على الصالحين من أبناء المجتمع، أن يتركوا خلافاتهم، و يتكاتفوا لتغيير هذا المنكر، وإلا هلكوا جميعاً، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا^(١) خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)^(٢).

بينما الجانب الخاص:

– عندما يرى كل فرد أن كل ما اكتسبه في حياته الدنيا، وضيع من أجله سنوات عمره، قد هلك واختفى هكذا في غمضة عين، أو كان قريباً من أن يضيع كله، فهذا الابتلاء رسالة: أن لا يرتكن المؤمن إلى الدنيا لأنها فانية، وكل ما فيها فان، وعليه أن يوجه عمله إلى الدار الباقية التي لا تزول، وهي الدار الآخرة.

– هذا الابتلاء جاء لتعليم كل فرد أن له دور في المجتمع يجب عليه أن يؤديه، جاء لتعريفه بقيمته الحقيقية في المجتمع، فكل فرد له قيمته، وليس كل مهمل

(١) أشبه بمن يقول الحرية الشخصية، وليفعل كل امرء ما يشاء

(٢) رواه البخاري

بلا قيمة، وبالتالي لا يُقلل أحد من شأن نفسه، ولا من شأن مساهمته في إصلاح مجتمعه.

– هذا الابتلاء يجعلك ترى الجانب الخير في الناس وهم يتعاونون سويًا من أجل إصلاح ما يمكن إصلاحه، فقاعدة أن الناس إنتهازيين، وأنهم يعملون لمصلحتهم فقط تختفى في هذه اللحظة، فجانب الخير موجود ولكنه في حاجة لمن وما يُخرجه.

– هذا الابتلاء يُعلمك الإيثار والتضحية التي فقدناها نتيجة الإقبال على الدنيا، وترك العمل للأخرة، ففيه يبذل كل فرد كل ما يستطيع من جهد ومعونة من أجل الآخرين، إبتغاء وجه رب العالمين.

الفصل الثالث

أنواع من الابتلاءات

فى هذا الجزء من الكتاب سوف أتعرض لثمانية أنواع من الابتلاءات، والتي يأتى كل ابتلاء منها لسبب وحكمة تختلف عن غيره من الابتلاءات، ولكنها تجتمع جميعاً لخدمة الغاية الأساسية من وجود الابتلاءات فى حياة المؤمنين، التى ذكرتها سابقاً، وليس بالضرورة أن يُبتلى المؤمن بابتلاء واحد فى المرة الواحدة، فقد يتعرض المؤمن لمجموعة من الابتلاءات فى وقت واحد، ولئن صبر على ذلك كله فسوف يفوز فوزاً عظيماً إن شاء الله.

obeikandi.com

١- اختبار الإيمان

وفية يتم تمييز وتنقية الصف المؤمن

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران - ١٧٩)

أى أنه من حكمة الله ومن سنته فى عباده المؤمنين ألا يتركهم على إيمانهم دون أن يبتليهم بالابتلاءات الشديدة حتى يتميز بينهم صف المنافقين، الخبيثاء. فالكل يدعى محبة الله ورسوله ﷺ، الكل يدعى إيمانه بالله وتوكله عليه، الكل يدعى أنه يضحى بالغالى والنفيس فى سبيل الله، لذلك جاءت الاختبارات تباعاً، ومراراً وتكراراً ليميز الله الخبيث من الطيب، ليرى قوة إيمانك ومدى صدقك وكذبك فيما ادعيت، وهل حقاً تستحق أن تكون من خير أمة أخرجت للناس؟

﴿ وَمَا أَصْبَحْكُمْ يَوْمَ التَّنَاقُ الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣١) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧).

إن من المسلمين من هو ضعيف الإيمان، فينقلب على عقبيه بمجرد وقوعه فى فتنة أو ابتلاء يصيبه، وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج - ١١).

فيصور رب العالمين فى هذه الآية حالة من يعبد من أجل تحقيق منفعته فى الحياة الدنيا، فهو يقيم بين المؤمنين طالما كانوا فى عافية وأمن، ولكن بمجرد تعرضه لفتنة أو ابتلاء قد يؤثر على مصالحه، فإنه يرتد سريعاً ويبحث عن طريق منفعة آخر غير سبيل المؤمنين.

بل من عجيب أمر المنافق الموجود فى الصف المؤمن أنه قد لا ينتظر وقوع البلاء، ولا ينتظر أن يعانى ويكابد كما يعانى المؤمنين، كلا، إنه ينسحب مبكراً، بمجرد ظهور أولى إشارات الابتلاء على طريق الإيمان، يبدأ فى البحث عن طريق يُمكنه

من الهرب من الصف المؤمن، ولذلك تجده يُسارع في مولات الكافرين، وأيضاً يسوق الحجج والبراهين التي لن تغنى عنه من الله شيئاً، فهو لا يُريد أن يُبتلى، بل يعبد الله كما يشتهي هواه، وكيفما كانت المنفعة المرجوة من وراء ذلك.

قال الفضيل بن عياض: (الناس ما داموا في عافية، مستورون، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم، فصار المؤمن إلى إيمانه، وصار المنافق إلى نفاقه).

فى غزوة أحد:

استشار النبي ﷺ أصحابه قبل المعركة، فكان رأى عبد الله بن أبي بن سلول (وهو رأس النفاق) التحصن فى المدينة، وعدم الخروج لمواجهة المشركين، لكن الشباب والمتحمسين وخاصة من الذين لم يشهدوا غزوة بدر، كانوا يرون فى الخروج للقتال أفضلية، ورجوا أن يصيبهم من الثواب والفضيلة ما أصاب أهل بدر، فنزل النبي ﷺ على رأيهم، وخرج فى ألف رجل.

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبى بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصانى، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس؟

فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام السلمى والد جابر بن عبد الله فقال: يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيكم، عند ما حضر من عدوهم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال.

فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيُغنى الله عنكم نبيه.

وكذلك ما حدث فى غزوة الخندق^(١)، فقد ارتعب المنافقون، وأخذوا فى البحث

(١) للزيادة فى هذا الموضوع يمكنك أختى الكريم قراءة السيرة النبويه وموقف المنافقين فى غزوتى أحد والأحزاب.

عن وسيلة للهروب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَِلَّهِ مِن قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُوكَ إِلَّا ذَبْرًا ۚ وَكَانَ عَاهِدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ۝١٥﴾ (الأحزاب: ١٣ - ١٥).

– ومن ابتلاء الإيمان أيضاً: الابتلاء بالعبادات والأوامر الشديدة على النفس، وكلما اشتد الأمر على النفس وصعب كلما تميز الصف، وظهر المؤمن وهو يسارع في تنفيذ أمر رب العالمين، وظهر تكاسل المنافق وركونه إلى هواه.

قال الله عن تغيير القبلة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾ (البقرة - ١٤٣).

قال ابن عباس: لنميز أهل اليقين من أهل الشرك والريبة.

قال ابن زيد في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ﴾ قال: من إذا دخلته شبهة رجع عن الله، وانقلب كافراً على عقبيه^(١).

وقال الإمام فخر الدين الرازي: (إلا لنميز هؤلاء من هؤلاء بانكشاف ما في قلوبهم من الإخلاص والنفاق، فيعلم المؤمنون من يوالون منهم ومن يعادون، فسمى التمييز علماً، لأنه أحد فوائد العلم وثمراته)^(٢).

– ومثال آخر لننظر إلى ميعاد صلاة الفجر، جعلها الله في وقت ترغب فيه النفس بشدة أن ترتاح وتستكين، فمن يلبي داعي الله وينفض النوم عن نفسه ويقوم ويصلي فذلك المؤمن حقاً، الذي ضحى براحة نفسه من أجل طاعة أمر رب العالمين، بينما المتكاسل والمنافق ومن جعل إلهه هواه، يجد في صلاة الفجر صعوبة شديدة لدرجة المستحيل في أدائها، ويؤديها (إن أداها) عندما ترغب نفسه، بعد طلوع الشمس بكثير....

(١) تفسير الطبري.

(٢) (التفسير الكبير لفخر الدين الرازي).

قال رسول الله ﷺ: (إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ)^(١)، قال الحافظ: وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعِشَاءُ وَالْفَجْرُ أَثْقَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِهِمَا لِقُوَّةِ الدَّاعِي إِلَى تَرْكِهِمَا، لِأَنَّ الْعِشَاءَ وَقْتُ السَّكُونِ وَالرَّاحَةِ وَالصُّبْحَ وَقْتُ لَذَّةِ النَّوْمِ. هناك فروق شاسعة بين من ياتمر بأوامر الله ومن ياتمر بهوى نفسه، لذلك جاء اختبار الإيمان لتمييز الصف المؤمن، وكشف حقيقة إيمان مُدعى الإيمان. اختبار الإيمان هو مرحلة تمهيدية قبل الاختبارات الأصعب، إن نجحت فيها كمؤمن، تنتقل لمستوى آخر من الاختبارات (الابتلاءات) والتي تزداد شدتها كلما إزداد مستوى إيمانك وتذكر (فيُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلْبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةً ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة)^(٢).

(١) متفق عليه

(٢) رواه الترمذى (٢٣٩٨) وصححه، وابن ماجه (٤٠٢٣) وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى

٢ - اختبار الصبر

وفيه تصنيف و تربية المؤمنين

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

(آل عمران: ١٤٢).

الصبر هو نصف الإيمان، فالإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر^(٣).
قال ذو النون المصري: الصبر: التبعاد من المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة^(٤).
قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥).

وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة - ٢١٤).
وقال: ﴿ لَتَبْلُوَكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران - ١٨٦).

إن للإيمان درجات، فهناك مؤمن قوى في إيمانه، وهناك مؤمن ضعيف في إيمانه وما يميز هذا عن ذاك (الصبر على البلاء)، فالمؤمن الضعيف الإيمان، ييأس سريعاً، ولا تثبت نفسه إن نزل به الابتلاء أو طال وقته، عن أنس رضي الله عنه قال: (مر النبي ﷺ على امرأة تبكي عند قبر، فقال: اتق الله واصبري. فقالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه).

(٣) مدارج السالكين، ج ٢

(٤) المرجع السابق

فقيل لها إنه النبي ﷺ فأنت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى^(١).

– والمصيبة الحقيقية أن عدم صبر المؤمن مع ضعف إيمانه، قد يدفعه إلى التنازل في أمر دينه حتى يدفع عن نفسه البلاء، مما قد يؤدي إلى فقدانه لإيمانه مع كثرة التنازلات ويلتحق بصفوف المنافقين.

بينما المؤمن الثابت، الصلب، القوي في إيمانه، يصبر ويصبر مهما طال وقت الابتلاء، وحتى لو قضى عمره بالكامل في الصبر، فلا طريق لدخول اليأس إلى قلبه، وهو على يقين أنه: ﴿لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف - ٨٧).

عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: (ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصرع، وإني أتكشف، فادع الله تعالى لي. قال: (إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك) فقالت: اصبر، فقالت: إني اتكشف، فادع الله لي ألا اتكشف، فدعا لها)^(٢).

لم يدعوا رسول الله ﷺ لها أن يرفع الله عنها هذا البلاء، وذلك لأن ثواب صبرها أعظم وأعظم من آلام الابتلاء.

– وعن قرة بن إياس، قال: كان نبي الله ﷺ إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير، يأتيه من خلف ظهره، فيقعه بين يديه، فهللك، فامتنع الرجل لأن يحضر الحلقة لذكر ابنه^(٣)، فحزن عليه، ففقده النبي ﷺ، فقال: (ما لي لا أرى فلانا؟!)

(١) متفق عليه وفي رواية لمسلم تبيكي على صبي لها

(٢) متفق عليه

(٣) أي أن الرجل لم يحضر مجلس رسول الله ﷺ بعد موت ابنه، لأن المجلس كان يُذكره بابنه وهو يلعب حوله ويجلس بين يديه.

قالوا: يا رسول الله بُنِيَّهَ الذى رأيتَه هلك، فلقىَه النبى ﷺ، فسأله عن بُنِيهِ؟ فأخبرَه أنه هلك، فعزاه عليه، ثم قال:

(يا فلان، أيا كان أحب إليك، أن تمتع به عُمرُك؟ أولا تأتي غداً إلى باب من أبواب الجنة إلا وجدتَه قد سبقك إليه يفتحه لك؟)

قال: يا نبى الله، بل يسبقنى إلى باب الجنة فيفتحها لى، لهُو أحب إلى. قال: فذاك لك^(١).

وفى رواية أخرى تُبين مدى حب هذا الرجل لابنه، أن رسول الله ﷺ قال له: (أتُحِبُّه؟)، فكانت إجابة الرجل: (أُحِبُّكَ الله كما أُحِبُّه)^(٢).

تخيلوا هذا الحب، وتخيلوا صبر الرجل على فقدان ابنه، والثواب العظيم الذى سيُناله بهذا الصبر رضاءً بقضاء رب العالمين، وهذه الفرحة يوم القيامة، أن يجد الرجل ابنه الذى كان قرة عينه فى الدنيا، وقد سبقه ليفتح له أبواب الجنة، هل هناك أعظم من ذلك بشارة لمن صبر على فقدان ابن من أبنائه.

إن الله يبتلى المؤمنين بالابتلاءات الطويلة الأمد، الشديدة الوطأة، ليختبر صبرهم، ويصنفهم بين الصابرين وغير الصابرين، فالؤمن الذى يصبر هو فقط من يستحق الصعود إلى الدرجة الأعلى التى يعدها الله له.

وفى اختبار الصبر، يرى الله الصادق فى إدعائه محبته من الكاذب، (فإن بقوة الصبر على المكاره فى مراد المحبوب يعلم صحة مُحبِيهِ، ومن هنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة، لأنهم كلهم إدعوا محبة الله تعالى، وحين امتحنهم بالمكاره إنخلعوا عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلا الصابرين، فلولا تحمل المشاق وتجشم المكاره بالصبر، لما ثبتت صحة محبتهم، وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً)^(٣)

(١) صحيح سنن النسائى برقم ٢٠٨٧، كتاب الجنائز

(٢) صحيح سنن النسائى برقم ١٨٦٩، كتاب الجنائز

(٣) مدارج السالكين، ج ٢

ولذلك يُحذر ابن الجوزي رحمه الله فيقول: (إياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مُبتلى بالبلاء، مُتعبَد بالصبر والدعاء، ولا تياس من روح الله وإن طال البلاء)^(١).

عن ابن مُليكة قال: أتيت أسماء^(٢) بعد قتل عبد الله بن الزبير، فقالت: بلغني إنهم صلبوا عبد الله مُنكساً، وعلقوا معه هرة، والله إنى لوددت أنى لا أموت حتى يُدفع إلى فأغسله وأحنطه وأكفنه، ثم أدفنه، فما لبث أن جاء كتاب عبد الملك أن يُدفع إلى أهله، فأتيت به أسماء، فغسلته وحنطته وكفنته ثم دفنته^(٣).

وعندما كان عبد الله بن الزبير مصلوباً، دخل عبد الله بن عمر المسجد فقالوا: هذه أسماء، فأتاها وذكرها ووعظها فقال: إن الجثة ليست بشئ، وإن الأرواح عند الله فاصبري واحتسبي، فقالت: وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل^(٤).

ولكن على ماذا يجب أن نصبر^(٥)؟

١ - الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به، والانتفاء عما نهى الله عنه، وبذلك تكون العبادة خالصة لله، ويصح دين المؤمن.

وهذا النوع من الصبر ينشأ من الخوف من الله، فمن خاف الله عز وجل صبر على طاعته، (عن أبي ظبيان قال: كنا عند علقمة فقري عنده هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١)، فسئل عن ذلك فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم)^(٦).

(١) صيد الخاطر

(٢) الصحابية الجليلة أسماء بنت أبي بكر الصديق، زوج الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ، ووالدة

عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم جميعاً

(٣) إسناده صحيح ذكره ابن أبي شيبة في مصنفه باب الفتن

(٤) إسناده صحيح، المرجع السابق

(٥) للمزيد، انظر آداب الدنيا والدين، للماوردي ٢٤٩

(٦) تفسير ابن كثير، سورة التغابن

٢ - الصبر على ما ينزل من ابتلاءات، فإن الصبر عليها يعقبه راحة منها، بالإضافة إلى المثوبة عنها، قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧)، وصدق الإمام على رضى الله عنه إذ يقول: إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت، جرى عليك القلم وأنت مأزور.

٣ - الصبر على ما لم تستطع تحصيله، وذلك لأنه ليس لك فيه نصيب فلا تجزع عليه.

وفيه قال بعض الحكماء: (اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله، مثل ما لا يخطر ببالك فلم تقّله).

٤ - الصبر على الخوف مما يُتوقع حدوثه، كمثل الذى يخشى وقوع مصيبة أو ابتلاء، فلا يجب عليه أن يتعجل همّ ما لم يأتى بعد، فإن أكثر هذا النوع من الهموم كاذبة، ولذلك يقول الحسن البصرى رحمه الله: (لا تحملن على يومك همّ غدك، فحسب كل يوم همّه).

٥ - الصبر على ما يرجوا حدوثه ويتوقعه، لأن المؤمن قد يعيش فترة من الزمن يتوقع حدوث نعمة ما، ويستعجل ذلك وينتظر بكل شغف، فتمر الأيام وتُغلق الأبواب ولا يأتية ما كان يتوقعه، فيكون ذلك عليه شديد البلاء، لذلك جاء الصبر على ما ترجوا حدوثه، لترفع عن نفسك ابتلاء الجزع والحزن.

• ولذلك وكجزاء وفاقاً من رب العالمين للصابرين، فإنه يجزيهم أجرهم بغير

حساب، ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر - ١٠)، بل وينالون الدرجات العلى بالصبر، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد - ٢٤: ٢٣).

أتت امرأة إلى النبي ﷺ بصبي لها فقالت: يا نبي الله! ادع الله له، فلقد دفنت

ثلاثة!

قال: دفنت ثلاثة؟! قالت نعم. قال: لقد احتظرت بحظار شديد^(١) من النار^(٢). ولحث المؤمنين على الصبر، قال ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)^(٣).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول (ما ابتلى الله عبداً ببلاء وهو على طريقة يكرهها، إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وطهوراً، ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله عز وجل أو يدعو غير الله في كشفه)^(٤).

لماذا لا نصبر؟!

١. ضعف اليقين:

وهو السبب الأساسي في أن كثير من المسلمين لا يصبرون على الابتلاءات، أو لا يصبرون على أوامر الله ونواهيه، فلو علم المسلم يقيناً ما له من ثواب على الصبر وما عليه من عقاب بتهاونه وتنازله في أمر دينه نتيجة عدم صبره، لصبر على الابتلاء مهما كانت شدته، ولصبر على أوامر الله ونواهيه مهما إشتدت صعوبتها على نفسه ولبذل أقصى جهده في سبيل أدائها، فقدان اليقين بموعد الله هو أساس عدم الصبر.

٢. استعجال النتائج:

يحب البشر أن يروا ثمار أعمالهم سريعاً، ويحبوا أن ينالوا ما تطمع فيه أنفسهم في أقرب وقت ممكن، وبالمقابل يكره البشر الانتظار، ويكره البشر نزول المكروه بهم.

(١) أي احتمت بحمي عظيم من النار يقيها حرها ويؤمنها من دخولها لأنها صبرت على فقد أبنائها

(٢) رواه مسلم برقم ٢٦٢٦

(٣) رواه مسلم

(٤) رواه ابن أبي الدنيا وحسنه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب ٣٤٠

ونتيجه لذلك فإن بعض الناس لا تستطيع أن تصبر على أوامر الله الشديدة على النفس مثال فى العبادات: القيام لصلاة الفجر، لأنه فى هذه الحالة يجب عليه أن يضحى براحته الآن، بينما ثواب ذلك فى الآخرة، فتفتقر نفسه عن الصلاة لقلّة يقينه مع استعجاله للثواب (ثمن أعماله)، فلو كان الأمر لمكسب مادي لقام الرجل بكل نشاط ابتغاء نصيبه من الحياة الدنيا أما للآخرة فالثواب ليس الآن وبالتالي تفتقر النفس عن تأدية الواجبات الشرعية المفروضة.

ومثال فى التعاملات: من يُعرض عليه المال الحرام، فهو قد يصبر على عدم الاقتراب منه فترات من الزمن، ولكن استعجال الثروة، والرغبة الملحة فى الغنى والتملك، تدفع صاحبها إلى الاعتداء على أموال الناس بالباطل، ويأخذ من المال الحرام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، والسبب عدم الصبر على انتظار الغنى من المال الحلال، واستعجال الثروة.

وهناك الكثير من الابتلاءات التى تحتاج من المؤمن الصبر عليها حتى يتغلب عليها، إلا أن استعجال النتائج، والركون إلى الحياة الدنيا والتى هى فى متناول اليد يقيناً (لأن نتائج الصبر فى الحياة الدنيا يُرى فى الغالب بعد فترة طويلة، وثوابه يكون عند رب العالمين فى الآخرة، وبالتالي فانتظار ثواب الصبر يحتاج إلى صبر)، يجعل البعض لا يصبرون على الاختبارات التى يتعرضون لها.

رسالة إلى الذين لا يصبرون

هل تعلم أنك ستقف أمام رب العالمين وسيحاسبك على الصغيرة والكبيرة؟

نعم تعلم، ولكنك أيضاً لا تستطيع أن تصبر!

هل تعلم أن طول يوم الحساب هو خمسين ألف سنة؟!

نعم خمسين ألف سنة!!!!

ستقف منتظراً حتى يأتى دورك! ستقف وستصبر على الوقوف رغماً عنك،

ستقف وسط جموع هائلة من البشر، وقد دنت الشمس من الرؤوس، فيتصيب العرق

من الناس بغزارة، فيكون النَّاسُ عَلَى قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً! تخيل رجلاً يغرق في عرقه! وعلى الرغم من هذه الشدة، على الرغم من هذه المعاناة، سيصبر رغباً عنه، سيصبر لأنه رأى يقيناً ما أخبر به رب العالمين في كتابه وعلم كم كان ظالماً لنفسه ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة - ١٢).

الاختيار لك: إما أن تصبر على ابتلاء الله لك.

إما أن تصبر على نواهي الله التي نهاك عنها.

إما أن تصبر على أوامر الله التي إفترضها عليك.

وإما عليك أن تنتظر عقوبة من رب العالمين تتناسب وحجم الجرم الذي ارتكبته في حق نفسك، وفي حق دينك، وتذكر دائماً خمسين ألف سنة للوقوف في يوم الحساب، فما بالك لو كان الجزاء بعد ذلك إلى النار أعاذنا الله منها جميعاً.

صوره من ابتلاء الصبر

- صبر النبي ﷺ :

كانت حياة النبي ﷺ صورة من صور الجهاد والصبر لله رب العالمين، ولكن منعاً للإطالة سأخذ صورة واحدة من صور صبره ﷺ فيقول: (قد أخفت^(١) في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال)^(٢).

يبين هذا الحديث جزء من الشدة التي ابتلى بها رسول الله ﷺ في سبيل

(١) من الإخافة أى هددت وتوعدت بالتعذيب والقتل

(٢) رواه الترمذى، وأخرجه ابن ماجه وابن حبان ، قال المناوي بإسناد صحيح

دعوته ونصرة دين الله، حيث لاقى فى سبيل ذلك الخوف والشدة والجوع، فيصف نفسه ﷺ بقوله بأنه أذى فى الوقت الذى لم يؤذى فيه أحد، وهُدد بالتعذيب والقتل فى سبيل دعوته فى الوقت الذى لم يُخوف فيه أحد، فخوف وحده وأذى وحده، بل ولقى من الجوع ما لا يكاد يتصور أن نبى الله ﷺ، وأكرم الخلق على الله، يمضى عليه ثلاثون يوماً بليله ونهاره لا يجد من الطعام إلا ما يحمله بلال رضى الله عنه تحت إبطه، كناية على أن هذا الشيء الذى يحمله من طعام شيء قليل حتى يستطيع أن يحمله بلال تحت إبطه، قد تكون كسرات من خبز أو تمرات معدودات، وصبر على ذلك وعلى أصعب من ذلك، إبتغاء وجه رب العالمين.

هذا الابتلاء تعرض له أنبياء الله جميعاً وهم أكرم الخلق على الله، وبالتالي وجب عليك كمسلم أن تُعد نفسك للإبتلاءات مهما كانت شدتها إقتداء برسول الله، وابتغاء الثواب من الله.

- صبر نبى الله أيوب عليه السلام:

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام والعبيد والمواشى، والأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران، فسُلب منه ذلك جميعاً، وابتلى فى جسده بأنواع من البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل بهما، وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكراً لله عز وجل فى ليله ونهاره وصباحه ومساءه، وطال مرضه حتى عافاه الجليس، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحد يحنوا عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه، وتعينه على قضاء حاجته، وضعف حاله وقل مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر، لتطعمه وتقوم بأوده، رضى الله عنها وأرضاها، وهى صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد وخدمة الناس، بعد

السعادة والنعمة والخدمة والحرمة، فإننا لله وإنا إليه راجعون^(١).

(١) قصص الأنبياء لابن كثير

٣ - ابتلاء رفع الدرجات وتكفير السيئات

اعلم أخى الكريم أن الله يحب المتقين، يحب لعبادة أن يسيروا على الصراط المستقيم، ويحب لهم أن ينالوا الدرجات العلا في الجنة، ولكنه ترك للإنسان الإرادة الحرة في اختيار طريقه، والنتيجة أنه قد يحيد المسلم عن المنهج الذى وضعه الله له، وقد يرتكب من السيئات ما تمنعه عن الدرجة التى أعدها له رب العالمين، لذلك جاء الابتلاء ليكفر عن المسلم بعض ذنوبه التى إرتكبها، وترفع من درجته التى لم يكن لينالها لو لم يصيبه الابتلاء ويصبر عليه.

قال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبداً فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها، أو درجة لم يكن الله ليبلغها إلا بها^(١).

وعن أبى هريرة قال: (لما نزلت ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها)^(٢).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)^(٣).

وعنه رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمله فما يزال الله يبتلي به بما يكره حتى يبلغها)^(٤).

• ولكن! قد يسأل سائل، ألم يقل الله (لا إكراه فى الدين)، ألم يقل (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)، لماذا الابتلاء إذاً؟! فليفعل كل امرئ ما يشاء، ثم يحاسب رب العالمين الناس يوم القيامة؟!

(١) تفسير القرطبي سورة الشورى آية ٣٠

(٢) متفق عليه

(٣) سنن الترمذى، باب ما جاء فى الصبر على البلاء حديث ٢٣٩٩ وصححه الألبانى

(٤) رواه أبو يعلى وفى رواية له: «يكون له عند الله المنزلة الرفيعة»، ورجاله ثقات

– سؤال فى غاية الأهمية، وإجابته هى سبيل المسلم حتى يفهم مراد الله فى الإبتلاء:

١ – إن الله رحيم بعباده الموحدين، وعندما يصيبه بإبتلاء فى الدنيا فإنه يكفر عنه من بعض ذنوبه، وذلك أخف بكثير مما لو عذبه بهذه الذنوب يوم القيامة. عن أبى جُحيفة قال: دخلت على على بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال: ألا أحدثكم بحديث ينبغى لكل مؤمن أن يعيه؟ قال: فسألناه، فتلا هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٢٠)، قال: ما عاقب الله به فى الدنيا فالله أحلم من أن يُثنى عليه العقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه فى الدنيا، فالله أكرم من أن يعود فى عفوه يوم القيامة^(١).

٢ – لتصحيح المسار، فإن الإبتلاء فى الدنيا علاج لأمراض النفس التى قد تصيب بعض الموحدين لله، مثل العُجب بالنفس، والرياء، والحسد، وغير ذلك، فيأت الإبتلاء، تذكيراً بالله، وعلاجاً، وتهديداً! تهديداً أنه لا ينبغى لك كموحد بالله أن تحيد عن الطريق أو أن يكون فى قلبك مثل هذه الأمراض الخبيثة، فإما أن تلتزم بمنهج الله، وإما العقاب الشديد، الذى قد يكون فى الدنيا قبل عذاب الآخرة، وهذا أيضاً من رحمة رب العالمين بعباده الموحدين أن يعالج نفوسهم حتى لا يضلوا الطريق. – قال ابن القيم رحمه الله^(٢):

إن ابتلاء المؤمن كالدواء له، يستخرج منه الأدواء^(٣) التى لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه وأنزلت درجته، فيستخرج الإبتلاء والامتحان منه تلك الأدواء، ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه كما قال النبى ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك

(١) تفسير ابن كثير سورة الشورى آية ٣٠

(٢) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان

(٣) الأدواء جمع داء

لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له^(١).

٣ - حتى نتقى الله، لأن الإنسان من طبيعته النسيان، ومع طول العمر وكثرت المسؤوليات، ينسى الموحد لله الهدف من خلقه، وطبيعة التزامه بتوصيل دعوة الله إلى الناس، ومع نسيانه يكون من السهل وقوعه في الفتن والمعاصي، فيأتي الابتلاء تذكيراً للموحد، أن هذه الحياة الدنيا ليست دار مُستقر فلا تركز إليها، بل هي دار كبد ومُعاناة ومشقة، لذلك يجب عليك كموحد أن تنظر إلى دار الخلد التي وعد الله المتقين، فارجع إلى الصراط المستقيم، وهذا أيضاً من فضل الله ورحمته.

عن النبي ﷺ قال: (إن الله ليحمي عبده الدنيا وهو يحبه، كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء)^(٢).

فيوضح رسول الله ﷺ للمؤمنين، كيف أن الله يحميهم من الدنيا، فيبتليهم فيها بأنواع من الابتلاءات، كما يحمي أحداً ابنه أن يشرب الماء نتيجة مرضه، لأنه يعلم أن هناك ضرر من شربه لهذا الماء في هذه المرحلة.

٤ - في الابتلاء قد تتعرض لفقد عزيز لديك، قد تفقد والديك، قد تفقد أحد أبنائك أو كلهم، قد تفقد زوجتك، وأحب الناس إليك، وهي رسالة من رب العالمين، أنك ستأتي بمفردك، لن يكون معك أحداً يؤنس وحشتك في قبرك، لن يخبرك أحد ماذا ستقول عند سؤال الملكين، بل أنت وحدك ومعك عملك، الذي سيظل معك حتى تقف أمام رب العالمين.

لن يُغنى عنك أحداً منهم شيئاً، ولن يحمل منهم أحداً عنك وزرك، بل أنت وعملك، رسالة لا بد أن تغرسها في أعماق قلبك، حتى لا يشغلك مالك أو كائن من كان عن أداء حق الله.

(١) رواه مسلم ٢٩٩٩

(٢) صحيح رواه الترمذی وحسنه برقم ٢٠٣٦

• ولو نظرنا لمجمل هذه الأسباب سنرى أن الله يبتلى عباده المؤمنين بهذا النوع من الإبتلاءات لأنه يُحبهم، ويحب لهم الخير، ﴿إِنَّ رَبَّيَ حَسْبُ دُودٍ﴾ (هود - ٩٠)، ولذلك فهو يقود خطاهم حتى يسيروا على الصراط المستقيم فى الدنيا، فينجوا على صراط الآخرة، ولذلك يُستحب الحمد لله عند المصائب، فهو دليل على رضى العبد بقضاء الله وقدره، بالإضافة إلى فهمة لحكمة وتدبير رب العالمين فيما أصابه من ابتلاء.

ومثال لهذا الإبتلاء

ما كان من أمر عروة بن الزبير^(١):

كان عروة بن الزبير أحد فقهاء المدينة الذين يلوذ بهم المسلمون لمعرفة أمر دينهم، وقد جمع بين العلم والعمل، فقد كان صواماً قواماً، رطب اللسان دائماً بذكر الله، مُلَازماً لكتاب الله عز وجل، فكان يقرأ رُبْع القرآن كل نهار نظراً فى المصحف، ثم يقوم به الليل تلاوة عن ظهر قلب.

وفى ذات سنة من خلافة الوليد بن عبد الملك^(٢) شاء الله عز وجل أن يمتحن عروة بن الزبير إمتحاناً شديداً، فلقد دعاه خليفة المسلمين لزيارته فى دمشق، فلبى دعوته وصحب معه أكبر بنيه، ولما قَدِم على الخليفة رحب بمقدمه أعظم الترحيب، وبالغ فى الحفاوة به.

وفى ذات يوم، دخل ابن عروة على إصطبل الوليد ليتفرج على جواده، فرفسته دابة بضربة شديدة أودت بحياته.

ولم يكد الأب المفجوع ينفذ يديه من تراب قبر ولده، حتى أصابت إحدى قدميه الآكلة، فتورمت ساقه، وجعل الورم يشتد وينتشر بسرعة كبيرة.

(١) والده هو الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، وجدته لأبيه هى صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وخالته هى أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها.

(٢) سادس خلفاء بنى أمية

فاستدعى الخليفة لضييفه الأطباء من كل جهة، وحضهم على مُعالجته بأى وسيلة، ولكنهم أجمعوا على أنه لا مفر من بتر ساق عرووة قبل أن يسرى الورم إلى جسده كله، ويكون سبباً فى القضاء عليه.

ولما حضر الجراح لبتر الساق، وأحضر معه مَبَاضِعَهُ لَشِقِّ اللحم، ومناشيرَه لنشر العظم، قال الطبيب لعرووة: أرى أن نُسْقِيكَ جُرْعَةً من مُسْكِرٍ لكى لا تشعر بآلام البتر المُرْحَة.

فقال عرووة: هيهات، لا أَسْتَعِين بحرام على ما أرجوه من العافية.

فقال الجراح: إِذَا نَسْقِيكَ المُخْدر.

فقال عرووة: ما أحب أن أُسَلِّب عضو من أعضائى دون أن أشعر بألمه، وأحتسب ذلك عند الله.

ولما هَمَّ الجراح بقطع الساق، تقدم نحو عرووة طائفة من الرجال ليمسكوه حتى لا يجذب قدمه عندما يشتد عليه الألم فيتضرر بذلك.

فقال عرووة: رُدوهم، لا حاجة لى بهم وإنى لأرجوا أن أكفيكم ذلك بالذكر والتسبيح.

ثم أقبل عليه الطبيب، فقطع اللحم بالمبضع، ولما بلغ العظم، وضع عليه المنشار وطفق ينشره به، وعرووة يقول: لا إله إلا الله والله أكبر، وظل على التهليل والتكبير حتى بُترت الساق تماماً.

ثم أغلى الزيت فى مغارف الحديد وغمست به ساق عرووة لإيقاف تدفق الدماء، وحسم الجراح، فأغمر عليه إغمائة طويلة، فلم يقرأ حصته من كتاب الله فى ذلك اليوم، وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى فاتته فيها ورده القرآن منذ صدر شبابه. ولما صحا عرووة دعا بقدمه المبتورة فناولوه إياها، فجعل يُقَلِّبُها بيده وهو يقول: أما الذى حملنى عليك فى عتمات الليل إلى المساجد، إنه ليعلم أننى ما مشيت بك إلى حرام قط.

وقد شق على الخليفة ما نزل بضيفه من النوازل، فلقد فقد ابنه وفقد ساقه في أيام معدودات، فجعل يحتال لتعزيته وتصبيره على ما أصابه.

وصادف أن نزل بدار الخلافة جماعة من بنى عبس فيهم رجل ضرير، فسأله الخليفة عن سبب كف بصره فقال:

يا أمير المؤمنين لم يكن في بنى عبس رجل أوفر مني مالاً، ولا أكثر أهلاً وولداً، فنزلت مع مالى وعيالى فى بطن وادٍ من منازل قومي، فطرقنا سبيل لم نر مثله قط، فذهب السبيل بما كان لى من مال وأهل وولد، ولم يترك لى غير بغير واحد، وطفل صغير حديث الولادة، وكان البعير صعباً، فنددني (أى شرد)، فتركت الصبي على الأرض ولحقت بالبعير، فلم أجاوز مكانى قليلاً حتى سمعت صيحة الطفل، فالتفت، فإذا رأسه فى فم الذئب وهو يأكله.

فبادرت إليه، غير أنى لم أستطع إنقاذه إذ كان قد أتى عليه، فلحقت بالبعير، فلما دنوت منه، رمانى برجله على وجهى رمية حطمت جبينى وذهبت ببصرى، وهكذا وجدت نفسى قد عدوت فى ليلة واحدة من غير أهل ولا ولد ولا مال ولا بصر^(١). وهكذا يظل المؤمن فى إختبارات وإبتلاءات فى حياته الدنيا، حتى يلقي الله وقد كفر عنه ذنوبه فى الدنيا، وهذا من فضل الله على المؤمنين حتى يرفع درجاتهم فى الآخرة.

(١) صور من حياة التابعين د. عبد الرحمن رافقت الباشا، بتصرف

٤ - ابتلاء التحذير

وفيه تقويم لسبيل المؤمن^(١)

وهو أشد من ابتلاء تكفير السيئات، ويأتى هذا النوع من الابتلاء فى فترة من فترات إنشغال المؤمن عن المنهج والمهمة التى إصطفاه الله لها، فينشغل بالحياة الدنيا وزخرفها، ينشغل بالراحة والأمن والأمان الذى يعيشه ويترك الدعوة لدين الله، ينشغل بجمع المال والعلو فى البنیان، وتكون الدنيا هى أكبرهمه، وأولى أولوياته عن العمل للأخرة وإبتغاء وجه ربه الكريم، بل قد يصل الأمر أن ينحرف مؤمن إلى طريق إكتساب خصال النفاق، فيتبع الهوى ويضل ضاللاً مبيناً، بل وأكبر من ذلك فقد يترك الإسلام بالكلية، ولك أن تقرأ أخى الكريم قصة الرجال بن عنفوة، الذى ارتد عن الإسلام وأيد مسيلمة الكذاب، لتعرف مدى خطورة الأمر، وقد قال عنه الصحابى الجليل رافع بن خديج^(٢): (كان بالرجال من الخشوع ولزوم قراءة القرآن والخير - فيما يرى - شىء عجيب)^(٣).

وقال ابن عمر: (وكان من أفضل الوفد عندنا، فكان أعظم فتنة على أهل اليمامة من غيره لما كان يُعرف به)^(٤).

وصدق الله ربنا فى قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ (السجدة - ٢٢).

(١) غالب الإبتلاءات التى تقع للكافرين تكون تحت هذا النوع من الابتلاءات، ولكن الحديث فى هذا الكتاب فقط عن الابتلاء للمسلمين

(٢) من سير أعلام النبلاء: ابن رافع بن عدى بن زيد الأنصارى، استشهد يوم بدر، وشهد أحداً والمشاهد، وأصابه سهم يوم أحد، فانتزعه، فبقى النصل فى لحمه إلى أن مات، وقيل: إن النبى ﷺ قال: أنا أشهد لك يوم القيامة

(٣) مختصر السيرة النبويه، تأليف الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

(٤) المرجع السابق

وقد يسأل سائل، كيف لرجل آمن بالله رباً وارتضى الإسلام ديناً، أن يرتد عن الإسلام أو أن ينافق؟!

السبب أن هناك فرق شاسع بين إيمان الإنسان والصفات الشخصية الخفية لهذا الإنسان والحالة التي يوجد عليها قلبه، فالدور الذي يُفترض أن يقوم به الإيمان هو تقويم للصفات الشخصية للإنسان وسلوكه الظاهر والباطن حتى يسير على صراط مستقيم متبعاً منهج الله، ولكن قد يكون هذا الإنسان لديه من الأمراض القلبية ما تؤدي به إلى الهلكة، بينما ما نراه نحن من التقوى والعمل الصالح، ما هو إلا صورة تزيين هذا المظهر الداخلى القبيح، فالأمر خاص بالقلوب، الإيمان القلبى وليس الإيمان الشكلى الذى لا يثبت بصاحبة لحظة الاختبار الحقيقى، وعندما تأتى هذه اللحظة يظهر إيمانه على حقيقته فيرتد على عقبيه.

كذلك فى حديث ضياع الأمانة الذى رواه الشيخان، وهو حديث حذيفة رضي الله عنه (إن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال....)، فبعد أن كان الرجل أميناً، يأتى عليه زمان تفسد فيه الأوضاع الإجتماعية فساد كبير، وتفسد فيه التعاملات بين الناس، حتى تضع الأمانة بينهم، حتى لا يتبقى منها فى قلب الرجل إلا مظاهر الخداع والنفاق.

نعم قد يضل المؤمن الطريق، فيأتى ابتلاء التحذير كالصفعة، أو كهزة عنيفة، يأتى كصيحة تحذير أن إستيقظ من غفلتك، أنت على خطر عظيم، إرجع إلى طريق ربك قبل فوات الأوان، ولا يفهم هذه الرسالة إلا المؤمن.

عن ابن عباس قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١): مصائب الدنيا وأسقامها وبلاؤها مما يبتلى الله بها العباد حتى يتوبوا.

قال ابن القيم: (قلولاً أنه سبحانه يداوى عباده بأدوية المحن والابتلاء لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدوية المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاها وصفاه، أهله

لأشرف مراتب الدنيا، وهى عبوديته، وأرفع ثواب الآخرة وهو رؤيته وقربه^(١).
(إن الضر يُسقط عن الفطرة رُكام الأهواء والشهوات، ويعريها من العوامل
المصطنعة التى تحجب عنها الحق الكامن فيها وفى ضمير هذا الوجود، فعندئذ
ترى الله وتعرفه وتتجه إليه وحده)^(٢).

و يكون ابتلاء التحذير على صورة ضرر شديد يصيب المرء فى نفسه أو فى أهله
وأحبائه، أو فى ماله ومعيشته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾
(الأعراف - ٩٤).

البأساء: الجوع والمشقة والفقر وضنك العيش والحرب.

الضراء: الشدة وكل حالة تضر فى الأموال والأنفس.

الضرع: هو التذلل والخضوع.

— دلت هذه الآية على سنة من سنن الله عز وجل التذكيرية التأديبية، التى
يُعالج الله عز وجل بها عباده، وقد أجراها جلّت حكمته فى كل الأمم الذين كفروا،
أو أسرفوا فى الانحراف عن صراط الله المستقيم، بالمعاصى والمخالفات، وكثرة الفساد
والإفساد فى الأرض، والغرض من إنزاله المكاره فى هذه الأمم، ابتلاؤهم بما يُثير
فطرتهم الإيمانية التى فطرهم الله عليها والتى يوقظها فى الناس غالباً (وإن كانوا
من أهل الكفر والشرك بالله)، مس آلام الشدائد والمصائب، وفقد الضروريات للحياة،
فيتضرعون لله خاضعين مُتذللين داعين أن يكشف عنهم ما هم فيه من مصائب
وشدائد ومكاره)^(٣).

— قال الله عن اليهود عندما اتبعوا أهوائهم وعصوا أوامر ربهم ﴿وَبَلَوْنَهُمْ
بِالْحَسَنَاتِ وَالشَّيَئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٨).

(١) زاد المعاد (٤ / ١٩٥)

(٢) فى ظلال القرآن سورة الزمر

(٣) معارج التفكير ودقائق التدبر د. عبد الرحمن الميدانى (٤ / ٤٣٣)

(وهذه سنة الله فى عقاب الأمم التى تفسق عن أمره وتخالف أوامر دينه، وهى كما تنطبق على اليهود، تنطبق على غيرهم من الأمم التى لا ترعوى عن غيرها، بل تتماذى فى فجورها وطغيانها وتسير قدماً فى غوايتها وضلالها)^(١).

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، (أى رغبة فى أن يستيقظوا من غفلاتهم، ويعلموا أن الله - جلت حكمته، وعظم سلطانه - يذكرهم بنفسه، عن طريق تنويع مقاديره فيهم، ليرجعوا تائبين إليه فى أحوال المصائب والمكاره التى تسوؤهم، وشاكرين مُطيعين فى أحوال النعم والعطايا التى تسرهم، وليعملوا بشريعته ومنهجه)^(٢). وفى غزوة أحد يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ۚ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرَّيَكُمْ مَا تُحِبُّونَ ۚ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِبَنَاتِكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۚ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾
(آل عمران: ١٥٢)

(عن البراء رضى الله عنه قال: لقينا المشركين يومئذ (فى غزوة أحد) وأجلس النبى ﷺ جيشاً من الرماة، وأمر عليهم عبد الله (عبد الله بن جبير) وقال، لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا، فلما لقينا، هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون الغنيمة.. الغنيمة، فقال عبد الله عهد إلى النبى ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا، صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً)^(٣). وقال ابن مسعود: ما علمنا أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يريد الدنيا وعرضها، حتى كان يومئذ^(٤).

(١) تفسير المراغى سورة الأعراف

(٢) معارج التفكير ودقائق التدبر (٤ / ٦٩٤)

(٣) صحيح البخارى، كتاب المغازى، باب غزوة أحد

(٤) تفسير الطبرى سورة آل عمران الآية ١٥٢

وقال تعالى أيضاً عن مصيبة غزوة أحد ﴿أَوَلَمْ أَصْذِبْكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَابَكُمْ مِثْلُهَا فَلَنْتُمْ أَنِّي هَذَا قَلَّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥) وما أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿(آل عمران: ١٦٥ - ١٦٦)

(لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه، حملة رايته، وأصحاب عقيدته، ولكنه علق هذا النصر بكمال حقيقة الإيمان في قلوبهم، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم، وباستكمال العدة التي في طاقتهم، وببذل الجهد الذي في وسعهم، فهذه سنة الله، وسنة الله لا تحابي أحداً، فأما حين يقصرون في أحد هذه الأمور، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير، فإن كونهم مسلمين لا يقتضى خرق السنن لهم وأبطال الناموس، وإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم كلها على السنن، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس.

ولكن كونهم مسلمين لا يذهب هدرا كذلك، ولا يضيع هباء، فإن استسلامهم لله، وحملهم لرايته، وعزمهم على طاعته، والتزام منهجه، من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية - بعد استيفاء ما يترتب عليها من التضحية والألم والقرح - وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروساً وتجارب، تزيد في نقاء العقيدة، وتمحيص القلوب، وتطهير الصفوف، وتؤهل للنصر الموعود، وتنتهى بالخير والبركة، ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته وعنايته، بل تمدهم بزيادة الطريق مهما يمسهم من البرح والألم والضيق في أثناء الطريق (١).

وكذلك في غزوة حنين، عندما شعر المسلمون بكثرة عددهم وأنهم أصبحوا أهل قوة، وعزة ومنعة، وقال قائل من القوم لن نغلب اليوم من قلة، فكانت الهزيمة الأولى في بداية الغزوة، قال تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْرِكِينَ﴾ (التوبة - ٢٥)

قال ابن القيم: (واقضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة

والكسرة مع كثرة عَدَدِهِم وَعُدَدِهِم وقوة شوكتهم، ليضع رؤوساً رُفعت بالفتح، ولم تدخل بلده وحرمة كما دخله رسول الله ﷺ واضعاً رأسه منحنيًا على فرسه حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعا لربه وخضوعا لعظمته واستكانة لعزته^(١).

— إن ابتلاء التحذير هو إشارة للمؤمن، انتبه أنت لا تسير على الطريق الصحيح، ينبغي عليك تعديل المسار الذي تعيش به.

ولذلك فإن المؤمن المُبتلى ينبغي له أن ينظر إلى الابتلاء على أنه اختبار وتوجيه فى نفس الوقت، توجيهه إلى أن الطريقة التى يحى بها كمؤمن، والنظام الذى يتبعه لحياته يحتاج إلى تعديل وتنظيم حتى يتوافق مع الأسلوب والحياة التى جاء بها المنهج الإلهى الذى وضعه الله للبشر عامة وللمؤمنين خاصة، لا أن يجعل المنهج يتناسب مع حياته وطريقة معيشتة.

عن صفية (زوج عبد الله بن عمر بن الخطاب) قالت: تزلزلت المدينة على عهد عمر بن الخطاب، وابن عمر رضى الله عنهما، قائم لا يشعر حتى اصطفت السرر فلما أصبح عمر رضى الله عنه قال: يا أيها الناس ما أسرع ما أحدثتم؟ (وفى لفظ) لأن عادت لأخرجن من بين أظهركم^(٢).

— ومن ابتلاء التحذير أيضاً، ظهور الفساد وانتشاره، قال تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

(الروم - ٤١).

فيبين الله الارتباط الوثيق بين طبيعة الحياة، والأوضاع التى يعيشها الناس وبين أعمالهم والطريق التى يسировون فيه، فنتيجة لعدم اتباع منهج الله، ينتشر الفساد براً وبحراً، ويسيطر على جميع مناحى الحياة، لدرجة أن يتذوقه الناس فى كل

(١) زاد المعاد (٣ / ٤٧٧)

(٢) أخرجه أبو بكر ابن أبى شيبة فى «المصنف»، ونعيم بن حماد فى «الفتن»، وابن أبى الدنيا فى «العقوبات»، والبيهقى فى «السنن الكبرى»

مناحى حياتهم، وما ذلك إلا بتدبير من رب العالمين ليرى الناس أثر البُعد عن المنهج، تخويفاً لهم لعلهم يتوبوا ويرجعوا إلى طريق ربهم.
أما كيف يقود الله خطى العاصين لعلهم يتوبوا ويرجعوا إليه؟

فإن الله يبتليهم بالابتلاءات من نفس جنس المعصية التي يعصون الله بها ليزوقوا وبال أمرهم، فيعلموا أن معاصيهم هذه هى سبب ابتلائهم، كما فى الحديث عن رسول الله ﷺ:

(يا معشر المهاجرين، خصال خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركون: ١ - لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا. ٢ - و لم ينقصوا المكيال و الميزان إلا أخذوا بالسنين^(١) و شدة المؤنة و جور السلطان عليهم.

٣ - و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا. ٤ - و لم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم، ٥ - و ما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا^(٢) مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)^(٣).

• فنجد أن سبب الأمراض والطاعون والآلام التى لم تكن موجودة من قبل، هو عقاب من رب العالمين للقوم الذين إنتشر بينهم الفاحشة (الزنا) وأعلنوا بها، فهى تذكير لهم أن يتوبوا ويرجعوا، ﴿لِيَذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(١) أى جدد وقط

(٢) أى يطلبوا الخير، أى: وما لم يطلبوا الخير والسعادة مما أنزل الله

(٣) صحيح الجامع برقم ٧٩٧٨، وأخرجه الحاكم فى المستدرک وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبى: صحيح

• بينما الجذب والقحط وشدة الفقر وظلم الحكام، فإنه بسبب نقص المكيال والميزان.

• الجفاف وانقطاع المطر نتيجة منع الزكاة، فمن منع زكاة ماله فإنه يُضيق على الفقراء ويضيع أمر الله، فيُضيق الله عليه، لعله يتذكر أو يخشى.

• غزو العدو للبلاد واستيلاءه عليها وعلى خيراتها، بسبب نقض عهد الله^(١) ورسوله ﷺ.

ومعنى نقض عهد الله ورسوله ﷺ، أى عدم الوفاء بما أعلن الإنسان الالتزام به، أو قطعه على نفسه من عهد أو ميثاق، بينه وبين الله تعالى^(٢).

• قتال المسلمين بعضهم البعض، وشدة الظلم بينهم والشحناء والبغضاء، إذا ترك ولاية الأمور الحكم بما أنزل الله، ولم يتبعوا المنهج الربانى.

وبالتالى وجب عليك كمسلم مؤمن بالله أن لا تتجاوز حدك فى عصيان أوامر رب العالمين، فمعصيتك تطلق نوع معين من الابتلاء، والذى يكون الهدف منه هو أن يردك إلى الصراط المستقيم.

– بل ويجعل الله من بعض العصاة عبرة لغيرهم، فيعاقبهم عقاباً شديداً حتى يرجع من يفعل مثلهم عن طريق الفسق والفجور فيقول رسول الله ﷺ: (فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: إذا ظهرت القيان والمعاذف، وشربت الخمر)^(٣).

وقال: (ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها، يعزف على

(١) عهد الله: قال الراغب فى المفردات: عهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا، وتارة يكون بما أمرنا به بالكتاب والسنة، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع، كالنذور وما يجرى مجراها

(٢) نضرة النعيم: (١١ / ٥٦٣٣)

(٣) رواه الترمذى ٢٢١٢، وقال غريب، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى

رؤوسهم بالمعازف، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير^(١).

• إن ابتلاء التحذير يكون بمثابة ردع عن الانحراف، وإيقاظ من الغفلة، وإعادة إنطلاق جديده للمؤمن، ليسير في الطريق الصحيح وعلى المنهج الذي رسمه رب العالمين.

يقول ابن قيم الجوزية:

(إذا ابتلى الله عبده بشئ من أنواع البلياء والمحن، فإن رده ذلك الابتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به.

والشدة بتراء لا دوام لها وإن طال، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجل عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه على بابه بعد أن كان مُعْرِضًا، وللوقوف على أبواب غيره مُتَعَرِّضًا^(٢).

(كان لبّان يخلط الماء باللبن، فجاء سيل، فذهب بالغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلًا، ولسان الجزاء يُناديه: يداك أوكتا، وفوك نفخ، فأنت الجاني أولاً والبادى أظلم)^(٣).

صورة من ابتلاء التحذير

(قصة أصحاب الجنة)

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَوَّأْنَهُمْ كَمَا بَوَّأْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لِيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتِ كَالْعَصْرِ (٢٠) فَنَادُوا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنْ أَغْدُوا عَلَىٰ حَرِِّكُمْ إِن كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ (٢٤) وَغَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرٍ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ (٢٦)﴾

(١) صحيح رواه ابن ماجه ٣٢٦٣

(٢) طريق الهمجرتين وباب السعادتتين

(٣) المدهش لابن الجوزى ٣٨٩، بتصرف يسير

﴿٣٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُوهُمْ ﴿٤٠﴾ قَالُوا لَوْلَا رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤١﴾ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٤٢﴾ كَذَلِكَ الْقَدَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴿الْقلم: ١٧- ٣٣﴾.

إخوة من اهل الكتاب مؤمنين بالله، وورثوا من أبيهم بُستاناً (جنة)، وقد كان أبوهم رجلاً صالحاً فكان يؤدي حق الفقراء والمساكين من ثمرات بستانه، ويسير فيه سيرة حسنة، فكان ما يجمع من ثمرات بستانه يقسمه إلى ثلاثة أقسام:

– فيأخذ ما يحتاجه البستان للسنة القادمة فيجعله قسماً، ويعزله ليرده فيه.
– ويدخر لعياله قوت سنتهم، وهذا هو القسم الثاني.

– ويتصدق بما فضل عن القسمين السابقين على الفقراء والمساكين، وهذا هو القسم

الثالث.

فلما مات هذا الرجل وورثه بنوه، شَحَّتْ نفوسهم عن إعطاء الفقراء والمساكين حقوقهم، وقام بينهم جدل، إذ كان أوسطهم حريصاً على أن يتبع سيرة أبيه، لكن إخوته لم يوافقوه، فسايرهم واتفقوا على أن يقطعوا ثمرات جنتهم في الصباح الباكر، دون أن يشعر بهم المُستحقون من الفقراء والمساكين، فيأتوهم على عادة أبيهم.

ثم ذهب كل فرد إلى بيته، فناموا وهم مطمئنين أن كل الخير الموجود في البستان سيكون لهم، ولن يُعطوا منه شئ لأحد من الفقراء والمساكين.

ولكن الله مُطلع على تدبيرهم، يسمع ويرى، فعلم الله ما اتفقوا عليه، فأهلك ثمرات جنتهم ليلاً إهلاكاً شاملاً، تأديباً لهم على استهانتهم بحق الله، وحق الفقراء والمساكين.

وخرج الإخوة مع طلوع الفجر، وقبل أن تشرق الشمس، متسللين، يتهايمسون بينهم خوفاً أن يشعر بهم أحد، عازمين على فعل ما قرروه بالأمس، فلما وصلوا إلى جنتهم، رأوها خاوية على عروشها، قد احترقت واسودت، وتلفت ثمارها،

فأخذوا يتلفتون حولهم، أهذا بُستاننا؟ أم نكون قد ضلّلنا الطريق؟ وعندما تيقنوا أن هذا بُستانهم الذى كان عامراً بالأُمس، ندموا على ما كان من عزمهم، وصاروا يتلاومون فيما بينهم، وإعترفوا بذنبهم، فتابوا إلى ربهم، وسألوه أن يُبدلهم خيراً من جنتهم وثمراتهم التى أتلفها الله لهم^(١).

والآن: لننظر إلى حال هؤلاء الإخوة، كيف ستكون حالتهم النفسية لو لم يحترق بستانهم؟ بل كيف سيكون دينهم فى هذه الحالة؟

لو لم يحترق بستانهم، لامتلاءت نفوسهم شرهاً وحباً للمال أكثر، ولأقبلوا على الدنيا، وأهملوا العمل للآخرة، وهذا بالتالى سيؤثر على دينهم، فالشره لإمتلاك المال يعمى عن رؤية الحرام، فيمتنعوا عن أداء زكاة أموالهم، فيأكلوا حق الفقراء كما كانوا ينوون، هذا إن لم يتطور الأمر معهم إلى التعاملات المادية الحرام لتنمية أموالهم وزيادتها، فطريق الضلال يبدأ بخطوة يتنازل فيها المرء عن جزء يسير من دينه، يتبعا خطوات وخطوات حتى يتنازل المرء عن كل دينه.

والآن: لننظر إلى جانب آخر، وهو رد فعل الناس المحيطين بهم، من جيران وأقارب ومعارف، كيف سيتكون نظرهم إليهم؟

نعم، نظرة شفقة ورحمة وأنهم لا يستحقون هذا الابتلاء العظيم بعد موت والدهم الرجل المؤمن التقى، بل قد يصل الأمر ببعض الناس إلى إتهام الله بالظلم لتعريضه هؤلاء الإخوة لهذا الابتلاء.

ولكن الحقيقة أن الله رحيم بعباده، أن الله يريد أن يهديهم ويتوب عليهم، لذلك فقد أصابهم بهذا الابتلاء العنيف ليستيقظوا من غفلتهم، لينظروا جيداً أين تسير خطاهم، وهذا ما حدث فعلاً، لقد تابوا وأنابوا إلى الله، وتحول الطمع والكبر الذى كان فى نفوسهم إلى خضوع وتذلل لله رب العالمين، وهذا يعنى أنهم قد فهموا مراد الله من ابتلاءه لهم، وبهذا يكون الابتلاء قد حقق الهدف منه.

(١) انظر معارج التفكير ودقائق التدبر (١ / ٢٣٥)

ثم يستطرد رب العالمين بعد نهاية القصة بتعليق يُظهر مدى رحمته بعباده، وهو ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (القلم- ٣٣)، فلو لم ينزل بهم هذا الابتلاء لكان مصيرهم إلى النار وهو أشد وأكبر.

فكان هذا مثال لكل عاصي، ولكل من حاد عن طريق الله، أن الله لا يغفل عما يعمل، وإنه يريد بعباده المؤمنين الخير، ولذلك فهو يُعاقبهم في الدنيا حتى يفهموا رسالة ربهم إليهم، فيتوبوا ويرجعوا إلى الصراط المستقيم، وإلا فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى.

٥ - ابتلاء الضنك

من عصى الله سلّط الله عليه جُنْدِيَانِ لَا يَنْفَكَانِ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى يَتُوبَ: الهمّ، والغم^(١).

الضنك: الضيق فى كل شىء (يستوى فيه المذكر والمؤنث) تقول لغة: (عَيْشَ ضُنْكَ، وَمَعِيشَةَ ضُنْكَ)، أى: ضيقة، لا سعة فيها، وقد يكون ضيقاً نفسياً ولو كان المضيق عليه ذا سعة من المال^(٢).

ابتلاء الإصابة بالضنك، ويلتحق بابتلاءات تكفير السيئات والتحذير السابقين، وهو من الابتلاءات الشديدة، والخطيرة، وخطورته تكمن فى أنه ابتلاء خفى قلما يفتن الناس إلى أسبابه، وفيه يشعر المسلم بضيق فى صدره، بهم وغم مستمر، بوحشة فى قلبه حتى وهو بين الناس، والهدف من ابتلاءك بهذا النوع من الابتلاءات، ليس فقط تكفير السيئات، ولكنه رسالتاً إنذار أنك بعدت بُعداً كبيراً عن الله، وإن أردت الراحة القلبية فعليك أن تعود سريعاً، ولذلك يبتليكَ الله بهذا النوع من الابتلاءات ليس لأن تصرخ، وأن تتعصب، أو أن تمشى هائماً على وجهك لا تدرى إلى أين تسير، أو أن تطلق زفرات الهم والكبت التى فى نفسك، أو حتى تنتحر كما يفعل البعض، ولكن حتى ترجع إليه وتتوب عن المعاصى التى وقفت حاجزاً بينك وبين الله، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨) (النساء: ٢٧ - ٢٨).

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾

(طه - ١٢٤).

(١) ابن قيم الجوزية

(٢) معارج التفكير ودقائق التدبر، د. عبد الرحمن الميدانى (٨ / ٣٥٧)

(هذا البيان من توابع ما أبان الله عز وجل لآدم عليه السلام، بعد إهباطه مع زوجته من الجنة إلى الأرض.

وهو يتعلق بمؤمن أعرض عن الذكر الرباني المنزل، وترك العمل بما جاء في هُده، فكان سلوكه مُشابهاً سلوك الكافرين، وقد جعل الله له عقابين مُرتبين على إعراضه عن الذكر بعد أن آمن به عالماً بما جاء فيه من هُدى.

العقاب الأول: أن يجعل له معيشة ضنكاً في الحياة الدنيا.

العقاب الثانى: أن يحشره الله يوم القيامة بعد البعث أعمى، نظير حشر الكافرين عُمية، لمُشابهته لهم فى أعمالهم^(١).

يقول الشيخ الشعراوى رحمه الله: (الضنك: هو الضيق الشديد الذى تحاول أن تُفلت منه هنا وهناك فلا تستطيع، والمعيشة الضنك هذه تأتي من أعرض عن الله، لأن من آمن بالله، إن عَزَّت عليه الأسباب لا تضيق به الحياة أبداً، لأنه يعلم أن له رباً يُخرجه مما هو فيه، المؤمن يقول: لى رب يرزقنى ويفرج كربى، أما غير المؤمن فحينما تضيق به الأسباب وتُعجزه، لا يجد من يلجأ إليه، فينتحر)^(٢).

فهذا الذى يُعرض عن الله ويقع فى فتن الحياة الدنيا، تمتلئ حياته بالهموم والمشاكل (لأنه يخالف منهج الله، وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس: خالفنا منهج الله وفلحنا، لذلك كان لابد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أن يُسيطر)^(٣).

(١) المرجع السابق بتصرف يسير

(٢) تفسير الشعراوى، سورة طه آيه ١٢٤، بتصرف يسير

(٣) تفسير الشعراوى، سورة البقرة، جزء من تفسير الآية ١٨٧

ولكن كيف بُعد المؤمن بالله، عن الله؟!

فمعرفة سبب ابتعاد المؤمن عن الله بعد أن هداه الله تساعد على سهولة العلاج، وسهولة الرجوع إلى الله، فمعرفة أصل المرض في هذه الحالة، أكثر أهمية من أعراض المرض.

يرجع سبب إبتعاد المؤمن عن الله إلى ثلاث أمور متصلة اتصال وثيق، إذا بدأ الأمر الأول، جاء في أثره الثاني، والذي يقود إلى الأمر الثالث في سلسلة تؤدي إلى تقلب القلب ومرضه ثم موته، إن لم يُعالج العلاج الصحيح، أما هذه الأمور فهي:

١ - فقدان الصلة بالله.

٢ - حب الدنيا.

٣ - عدم الخوف من الله.

أولاً: فقدان الصلة بالله:

اعلم أن أول وأقوى أسلحتك في مواجهة شياطين الجن والإنس هو صلتك بالله وارتباطك به، ويعلم إبليس ذلك، ولذلك فإن أول خطوة من خطوات إبليس هي أن يُبعدك عن مصدر قوتك، فيزيد ضعفك وبالتالي يسهل افتراسك بعد ذلك، وبالنظر إلى قصة آدم عليه السلام كأول مثال للبشر عن كيفية خداع إبليس وطريقة هجومه، نجد أن أول خطأ وقع فيه آدم عليه السلام هو عدم التجاءه إلى الله عندما بدأ إبليس وسوسته، ولذلك يوصى الله المسلمين في القرآن فيقول: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٢٠٠).

فلا تظن أن الشيطان غلب وانتصر بسبب قوته وضعفك، وعلمه وجهلك، بل انتصر عليك لسببين: إعراضك عن الالتجاء إلى الله، وإعراض الله عنك فتركك لنفسك. فقد أثبت الله في قرآنه أن كيد الشيطان ضعيفا، ولكن هذا الكيد الضعيف أثر تأثيراً كبيراً على نفسك لأنك سمحت له بذلك، وفتحت له الباب على مصراعيه ليُضلك كيفما يشاء، أنت المسئول الأول، ولذلك ليس من العجيب أن يتبرأ إبليس

ممن اتبعه يوم القيامة فيقول ﴿فَلَا تُلْوَموني وَلَوْ مُوًّا أَنْفُسَكُمْ﴾ (إبراهيم - ٢٢).

إن كنت لا تصلى، أو لديك خلل فى الصلاة، سواء فى اكتمال خشوعها، أو التزام وقتها، فاعلم أنه تم تجريذك من سلاحك الأول والأقوى فى مواجهة إبليس وأعوانه، وبالتالي فانهمزلك فى باقى الجوانب سيكون محصلة طبيعية حتمية، فالصلاة تمثل الصلة الأساسية المباشرة بينك وبين الله (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثرُوا الدعاء)^(١).

ثانياً: حب الدنيا:

بعد أن يُفقدك إبليس أقوى أسلحتك، بعد أن يُضعف صلتك بالله، يُزين لك الدنيا، فيحببها إليك، فتكون هى دار اليقين التى تبذل جهدك فى العمل لها، فيتجه عقلك وقلبك إليها تسعى أن تمتلك كل ما تستطيع أن تمتلكه، وتسعى جاهداً، وتسعى، حتى تتم عملية استبدال فى قلبك وأنت لا تشعر (لأن إبليس يُزين لك عملك وسعيك فتظن أنك على صراط مُستقيم)، تقل صلتك بالله ويزيد حبك للدنيا، حتى تنسى ربك وتنسى دينك.

ومن يقع فى حب الدنيا يُصاب بثلاث أمراض فى قلبه: الحسد والبغض وكره الحق.

فمريض حب الدنيا يُحب أن يجمعها بمفرده، ويحزن عندما يجد غيره قد أخذ نصيباً منها فى الوقت الذى لم يحصل هو شخصياً على كل شئ ويرى من نفسه أنه يستحق المزيد، فيحسد المسلم أخاه على ما أعطاه الله إياه، وبالتالي يؤدي الحسد إلى التباغض، والعداء بين الناس، وتذهب الألفة والمحبة، ويلجأ فريق من الناس إلى الحصول على الأموال والسلطة بطرق غير مشروعة وقبيحة مما يؤدي بهم إلى كره الحق وكره أهل الحق.

فمن مصائب حب الدنيا كره الحق، لأن الحق يتعارض مع المصالح الشخصية،

وبالتالى فإن صاحب المصلحة المُحب للدينِا سوف يعمل على تحقيق رغباته وشهواته مهما كانت حتى لو عن طريق طمس الحق ومعاداة أهله.

عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (بادروا بالأعمال^(١)) فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسّى كافراً، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا^(٢)).

والنتيجة الخطيرة لحب الدنيا نراها فى موقف رهيب يوم القيامة، والكل يبحث عن سبيل نجاة من هذا الهول، والمؤمنون يسعون يُنير نورهم الطريق، والمنافقون الذين ارتضوا بالحياة الدنيا يسعون من ورائهم يلتهمون نور المؤمنين ليضىء لهم الطريق، وفجأة يُفصل بين المؤمنين والمنافقين بسور له باب، باطنه فيه الرحمة من جهة المؤمنين، وظاهره من قبله العذاب يأخذ المنافقون، فينادى المنافقون ﴿يَا دُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (الحديد: ١٤).

أى (أما كنا معكم فى الدار الدنيا نصلى معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدى معكم سائر الواجبات؟ فيجيبهم المؤمنون قائلين لهم: بلى كنتم معنا، ولكنكم أهلكتم أنفسكم باللذات والمعاصى، وأخرتم التوبة، وشككتكم فى أمر البعث بعد الموت، وغرتكم الأمانى، فقلتم سيغفر لنا، وما زلتم كذلك حتى حضركم الموت، وغركم الشيطان فقال لكم: إن الله كريم لا يعذبكم).

والخلاصة، إنكم كنتم معنا بأبدانكم لا بقلوبكم، وكنتم فى حيرة من أمركم، فلا تذكرن الله إلا قليلاً^(٣)).

(١) بادروا بالأعمال: حث على المسارعة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها

(٢) رواه مسلم

(٣) تفسير المراعى سورة الحديد

فتنتم أنفسكم:

- أنت من عرضت نفسك للفتن.
- أنت من عرضت نفسك لمواطن الوقوع فيما حرم الله.
- أنت من وقفت بباب السلطان تبتغى منه العزة والغنى، حتى ولو على حساب دينك، وإخوانك في الدين.
- أنت من عرضت نفسك لإبواب الظالمين، أن كان ذا مال وبنين، تبتغى صحبته ومُجالسته مع علمك أنه ظالم.
- أنت من عرضت نفسك للكبر والفخر بأن تنسب ما لديك لنفسك وعلمك، وليس لله مسبب الأسباب وواهب النعم.

وتربصتم:

تربصتم بالمؤمنين أن تدور عليهم الدوائر، ويقضى عليهم الظالمين، فتكون النجاة والغنيمة والثروة لكم، والألم، والمعاناة، والموت للمؤمنين.

وارتبتم:

لم تؤمنوا يقيناً أنكم مُحاسبون على أعمالكم، بل ارتابت أنفسكم في الحق الذي جاء من عند الله.

وغرتكم الأمانى:

نعم ظننتم أن الغلبة لكم في الدنيا والفوز والفلاح في الآخرة، ظننتم أنكم على شيء وأنكم تحسنون صنعاً، وأنه حتى لو كنتم تفعلون بعض المخالفات فإن الله غفور رحيم.

وغركم بالله الغرور:

وهو الشيطان، فكان يوسوس لكم أفكار الضلال، وأنتم اتبعتموها بحثاً عن المكسب والمصلحة، بدون الرجوع إلى الأحكام الشرعية التي تنظم حياة المسلمين.

هذه نتائج حب الدنيا، والاطمئنان بها، التنازل والتهاون بأمور الدين حتى تقود القلب إلى النفاق.

ثالثاً: عدم الخوف من الله

بعد طغيان حب الدنيا وتمكنها من القلب، يُزين إبليس للمسلم طريقه الذي يسير فيه، فيقطع طريق الندم والتوبة عليه، وذلك بأن يُمنيه أن الله غفور رحيم، وأن الله رحيم ودود، وأن الله سيتجاوز عنه فهناك الكثير والكثير من المذنبين أكثر منه، ورحمته وسعت كل شيء.

وعندما تمتلئ قلب المسلم بهذه الصورة عن رب العالمين، يختفى الخوف من الله من قلبه، وذلك لأنه أنشأ لنفسه صورة للإله الذي يُريد، وهى صورة ناقصة عن الله، فهو أنشأ صورة للإله الذى يعبدته لتتوافق مع الحياة التى يُحب أن يعيشها.

ولماذا أقول صورة ناقصة عن الله؟!

وذلك لأن الله تعالى يقول:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (البقرة - ١٩٦)

﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة - ٩٨)

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الرعد - ٦)

﴿نَجَى عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

(الحجر: ٤٩ - ٥٠)

والآيات التى تدل على شدة عقاب رب العالمين كثيرة جداً، وبالتالي بعد أن يخدع إبليس المسلم بصورة غير كاملة عن الله، يفقد المسلم الخوف من الله، فينطلق يفعل ما يشاء، بل قد يفعل الكفر وهو لا يدري، ولا يكثرث ويظن أنه على صراط مستقيم.

﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) ﴿وَلَهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَلْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

(الزخرف: ٣٦ - ٣٨).

- مثال: بنى إسرائيل عندما تركهم موسى عليه السلام، خدعهم السامري وجعلهم يعبدون العجل، وهذا توافق مع هوى أنفسهم، فهذا العجل لن يأمرهم ولن ينهاهم، بل سيفعلون ما يفعلون وسيظل صامتاً وكأن صمته دليل على موافقته لما يفعلون، فزين لهم الشيطان أعمالهم وصددهم سبيل الله والنتيجة أنهم ظنوا أنهم مهتدون.

واقراً قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلَيفَةً عَبْدًا لَهُ خَوَافٌ أَلَّا يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (الأعراف - ١٤٨).

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَافٌ أَلَّا يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (طه: ٨٨ - ٨٩)

والشاهد من الآيتين: لا يهديهم سبيلاً، ولا يرجع لهم قولاً، يفهم منهما أنهم بعبادة هذا العجل كانوا يفعلون ما يحلو لهم، وما تمليه أهوائهم، ففي هذه الحالة هم المسيطرون، وبالتالي فحياتهم تخضع لأهوائهم ورغباتهم.

والنتيجة عدم الخوف من الله والتجراً الشديد على معاصيته، مع الظن أنهم يحسنون صنعا، ودليل أنهم ظنوا أنهم يحسنون صنعا أن هارون عليه السلام عندما أخبرهم أنهم ضلوا بعبادتهم العجل ونهاهم عن ذلك، كادوا أن يقتلوه، وقالوا لن نترك عبادة العجل وسنبقى محافظين عليه حتى يرجع إلينا موسى.

وهذا هو حال من تسيطر عليه الدنيا ويسيطر عليه هواه حتى يفقد الخوف من الله، لا يسمع لموعظة ولا يرى طريق الحق ويصر إصراراً شديداً على الطريق الذي يسير فيه.

﴿أَقْمَنَ زَيْنٌ لَّهُ سَوْءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾ (فاطر - ٨)، (هذا هو مفتاح الشر كله، أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسناً، أن يعجب بنفسه وبكل ما يصدر عنها، ألا يفتش في عمله ليرى مواضع الخطأ والنقص فيه، لأنه واثق من أنه لا يخطئ، متأكد أنه دائماً على صواب، معجب بكل ما يصدر منه، مفتون بكل ما يتعلق بذاته، لا يخطر على باله أن يراجع نفسه في شيء، ولا أن يحاسبها على أمر، وبطبيعة الحال لا يطيق أن يراجع أحد في عمل يعمل أو في رأى يراه، لأنه حسن

فى عين نفسه، مزين لنفسه وحسه، لا مجال فيه للنقد، ولا موضع فيه للنقصان، هذا هو البلاء الذى يصبه الشيطان على إنسان، وهذا هو المقود الذى يقوده منه إلى الضلال، فإلى البوار.

إنه نموذج الضال الهالك الصائر إلى شر مصير، ومفتاح هذا كله هو هذا التزيين، هو هذا الغرور، هو هذا الستار الذى يعمى قلبه وعينه فلا يرى مخاطر الطريق، ولا يحسن عملاً لأنه مطمئن إلى حسن عمله وهو سوء، ولا يصلح خطأ لأنه واثق أنه لا يخطئ، ولا يصلح فاسداً لأنه مستيقن أنه لا يفسد، ولا يقف عند حد لأنه يحسب أن كل خطوة من خطواته إصلاح، إنه باب الشر، ونافذة السوء، ومفتاح الضلال الأخير.

إن الذى يكتب الله له الهدى والخير يضع فى قلبه الحساسية والحذر والتلفت والحساب، فلا يأمن مكر الله، ولا يأمن تقلب القلب، ولا يأمن الخطأ والزلل، ولا يأمن النقص والعجز، فهو دائم التفتيش فى عمله، دائم الحساب لنفسه، دائم الحذر من الشيطان، دائم التطلع لعون الله، وهذا هو مفرق الطريق بين الهدى والضلال، وبين الفلاح والبوار^(١).

وهناك فرق بين حب الله، والخوف من الله، فحب الله يجعلك تأتمر بأوامره وتقبل على طاعته، وتحب أوليائه، بينما يحميك الخوف من الله أن تفعل الشر وتقع فى المحرمات، فهو كالدرع الذى يقى المؤمن من الزلل.

وبالتالى نتيجة عدم الخوف من عقاب الله، أو عدم الإحساس بخطورة الإقدام على المحرمات والوقوع فيها، مع الإصابة بالفتن وتمكن الخوف من المستقبل والخوف على الرزق من قلب المسلم، أدى إلى سقوطه فى تنازلات كثيرة فى دينه، وإن استمر السقوط بدون حاجز يمنعه، يصل المسلم إلى مرحلة النفاق، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين - ١٤)، ونتيجة لذلك فهو لا يرى الحق، ولا يسمع صوته، فلقد أصبح قلبه كالميت الذى لا حياة فيه.

(١) فى ظلال القرآن سورة فاطر، بتصرف

ومن علامة الإصابة بهذه الأمر، أن تجد الرجل يعصى الله، ولا يلتزم بمنهجه ثم يدعى أنه يخشى الله، وكما أكرمه في الدنيا فسيوفيه الجزاء الأوفى يوم القيامة. ولكن لأن الله يحب لعباده الخير، فانه يصيبهم بالضيق والضعف وشدة في الحياة الدنيا حتى ينتبهوا ان هذا الطرق الذي يسيرون فيه غير سبيل المومنون، يُضيق الله عليك نفسك حتى تنتبه أن هناك باب واسع ينتظر منك ان تطرقه، وإن طرقتة سيُفتح لك بإنفراجة أكبر مما كنت تتخيل، إنه باب الملك، ملك الملوك الذي خلقك وخلق كل شيء من أجلك، فهو لن يتركك إن رفعت يدك تطلب منه المعونة، فحق على الكريم أن لا يرد يد سائل، فما بالك بأكرم الأكرمين.

(ففرؤا إلى الله)

إن الذنوب خطر عظيم، وشر مُستطير، وشؤم لازم، وهم بالليل والنهار، ولذلك إن أردت النجاة الحقيقية من الضنك، فيجب عليك أن تترك كل هذه المعاصي وتفر من ذلك كله، وتلتجئ إلى جوار رب العالمين، حيث راحة القلب والطمأنينة. عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن العبد إذا أخطأ نُكت في قلبه نُكته سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب، صُقل قلبه، وإن عاد، زيد فيه، حتى تعلوا قلبه وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا لَئِنْ رَأَىٰ قُلُوبُهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الطافين: ١٤)^(١).

لماذا لا نتوب؟!

١ - عدم تمكن الإيمان من القلب:

هذا هو العامل الأساسي في عدم المسارعة إلى التوبة، فقلب المؤمن لا يحتمل هم الذنب الذي ارتكبه، فهو يظل يؤرقه ويشغل عقله وتفكيره، كيف تجرأ أن يعصى الله رب العالمين؟! فيرجع ويتوب سريعاً، ويتضرع إلى ربه أن يغفر له زلاته.

(١) الترمذى ٣٣٣٤، وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجه ٤٢٤٤

بينما من لم يتمكن الإيمان من قلبه، يعصى الله وينسى، ويرتكب ذنب آخر وينسى وهكذا حتى تتراكم على قلبه الذنوب والمعاصي، فيقسوا قلبه، ولا يذكر ربه إلا قليلاً، وينظر إلى عقاب رب العالمين على أنه بعيداً جداً، ليس له أوان الآن، بل ولا ينظر إلى الصعوبات والابتلاءات التي تعترض حياته على أنها عقوبات تحذيرية من الله لعله يرجع سريعاً إلى التوبة وإلى الصراط المستقيم.

وقد يتقبل سماع النصيحة ولكن شؤم المعصية تجعله يأخذ النصيحة بقلب بارد خاو لا يشعر بموعظة ولا تذكيراً بالله.

هذا الصنف من الناس على خطر عظيم إن لم ينتبه و يتوب إلى رب العالمين.

٢ - التسويف:

وهو علامة أكيدة على أنك لن تتوب إلى الله توبة نصوحه،

سوف أبدأ التوبة إلى الله غداً!!!

سوف أتوب مع بداية العام!!!

سوف أتوب في رمضان!!!

كلها علامات تؤكد ضعف العزم على الرجوع إلى المنهج والصراط الذي ارتضاه رب العالمين.

ولكن لماذا التسويف؟

السبب الأساسي لذلك هو أننا نظن أن لنا باب خلفي، سهل، نهرب إليه من الواقع الذي نعيش فيه وهو رحمة رب العالمين.

فتجد الفرد تارك للصلاة أو متعامل بالربا أو متعرضاً للنساء، ويقول إن الله غفور رحيم.

نعم الفكرة الغالبة على العقل أن الله سيغفر لنا والنتيجة أن يبالغ المرء في معاصيه، ويخدع نفسه ويمنيها أن الله غفور رحيم.

وهذا من خداع إبليس ليوقعك في أشد المعاصي وأنت لا تشعر، ولذلك لابد أن

تقطع الطريق على إبليس ولا تترك لنفسك مجالاً للتسوية والتردد، إما جنة وإما نار، إما مؤمن وإما منافق، لا توجد جنة فقط أو مؤمن فقط، بل هناك نار تلظى وعذاب شديد.

ولا يوجد وسط بين الاثنين، اقطع الطريق على نفسك، بعزم شديد وتوكل على الله من الآن، لا تنتظر بعد ساعة أو بعد يوم أو غير ذلك.

٣ - خداع إبليس:

من مكائد إبليس بالمسلم أنه يمنعه من التوبة والرجوع إلى الله ويسوق له التبريرات، أنك ضعيف النفس، سترجع ثانية إلى المعصية أما تستحي من ربك، لا يجوز أن تتوب وترجع للذنوب، ذنوبك كثيرة ولن يغفر الله لك، والكثير مثل ذلك حتى يترك المسلم الاستغفار والتوبة.

قيل للحسن: ألا يستحي أحدنا من ربه! يستغفر من ذنوبه ثم يعود ثم يستغفر ثم يعود! فقال: ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه، فلا تملوا من الاستغفار.

عن عقبة ابن عامر رضى الله عنه قال: إن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: (يا رسول الله أحدنا يُذنب، قال: يُكتب عليه.

قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: يُغفر له ويُتاب عليه.

قال: فيعود فيُذنب، قال: فيُكتب عليه.

قال: ثم يستغفر منه ويتوب.

قال: يُغفر له ويُتاب عليه، ولا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا^(١).

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فيما يحكى عن ربه عز وجل قال: (أذن عبداً ذنباً، فقال: اللهم اغفر لى ذنبي.

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٠ / ٢٠٠): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن

فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنوب.

ثم عاد فأذنب، فقال: أى رب! اغفر لى ذنبي.

فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنوب.

ثم عاد فأذنب فقال: أى رب! اغفر لى ذنبي.

فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنوب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك).

قال عبد الأعلى: لا أدري أقال فى الثالثة أو الرابعة (اعمل ما شئت)^(١).
ولذلك: ارجع إلى ربك سريعا ولا تيأس ولا تعجز، فإن الله يفرح لتوبتك.

٤ - أصدقاء السوء والبيئة السيئة:

للصحة تأثير قوى على طريقة حياتك وعلى مدى التزامك بمنهج الله، ولذلك فلقد وصى النبى صلى الله عليه وسلم باختيار الرفقة الصالحة فقال: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)^(٢)

قال إبراهيم النخعى: (لا تجالسوا أهل الأهواء، فإن مجالستهم تذهب بنور الإيمان، وتسلب محاسن الوجوه، وتورث البغيضة فى قلوب المؤمنين).

فمجالسة أصحاب السوء تنسى المسلم طريق الله وتزين له اتباع الهوى، ولذلك يوصى رب العالمين المؤمنين فيقول: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف- ٢٨).

وكذلك فإن البيئة الفاسدة من العوامل الأساسية فى عدم القدرة على التوبة وخير

(١) متفق عليه

(٢) أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذى، قال الترمذى هذا حديث حسن غريب.

مثال على ذلك الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً، فعن أبى سعيد الخدرى، أن نبي الله ﷺ قال:

(كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فاتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله. فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء....)^(١)

فهنا نرى أن نصيحة الرجل العالم كانت أن يترك بلده التى عاش فيها، لأنها بلد سوء تحول بينه وبين التوبة النصوح، وهى رسالة لنا أيضاً، إن كان المكان الذى تعيش فيه لا يُساعدك على أن تلتزم بمنهج الله، فاتركه خير لك وإبحث عن مكان آخر تفر بدينك إليه(إن استطعت)، وهى تضحية لابد منها إن أردت إنقاذ نفسك.

صورة من صور ابتلاء الضنك

ما حدث مع الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك

قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨﴾ (التوبة: ١١٧ - ١١٨).

قال كعب بن مالك رضى الله عنه: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط، إلا فى غزوة تبوك، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر، ولم يعاتب أحدا تخلف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش، حتى جمع الله بينهم

(١) متفق عليه

وبين عدوهم، على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين تواتقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، وكان من خبري، حين تخلفت عن رسول الله ﷺ، في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً، واستقبل عدواً كثيراً، فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان^(١).

قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب، يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصغر^(٢)، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقت أعدو لى أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك، إذا أردت.

فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجدّ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو^(٣)، فهممت أن أرتحل فأدركهم، فياليتنى فعلت، ثم لم يقدر ذلك لى.

فطفقت إذا خرجت في الناس، بعد خروج رسول الله ﷺ، يحزننى أنى لا أرى لى أسوة، إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق^(٤)، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوكا فقال، وهو جالس فى القوم بتبوك: (ما

(١) أى الدفتر الذى يُكتب فيه أسماء الجيش

(٢) أى: أميل

(٣) أى: تقدم الغزاة وسبقوا

(٤) أى: مُتّبها بالنفاق

فعل كعب بن مالك؟) قال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله! حبسه براده والنظر في عطفه^(١).

فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب، فقال رسول الله ﷺ: (كن أبا خيثمة)، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون.

فقال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك، حضرني بتي^(٢)، فطفقت أذكر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غدا؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأى من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما، زاح عني الباطل، حتى عرفت أنني لن أنجو منه بشيء أبدا، فأجمعت صدقة، وصبح رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين.

ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئت، فلما سلمت، تبسم تبسم المغضب، ثم قال: (تعال). فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: (ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟) قال قلت: يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه^(٣)، إني لأرجو فيه عقبي الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله ﷺ: (أما هذا، فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك).

(١) أي: جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(٢) أشد الحزن

(٣) أي: تغضب

فقمتم، وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا، لقد عجزت فى أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ، بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله ﷺ لك.

قال: فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي. قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معى من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قال ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، قال قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامرى، وهلال بن أمية الواقفى. قال: فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة، قال: فمضيت حين ذكروهما لى.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا، أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه. قال: فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحبائى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما ببيكان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول فى نفسى: هل حرك شفتيه برد السلام، أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة، وهو ابن عمى، وأحب الناس لى، فسلمت عليه، فوالله ما رد على السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله، هل تعلمن أنى أحب الله رسوله؟ قال فسكت، فعدت فناشدته، فسكت فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم.

ففاضت عينائى، وتوليت، حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشى فى

سوق المدينة، إذا نبطى^(١) من نبط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس يشيرون له إلى، حتى جاءنى فدفع إلى كتابا من ملك غسان، وكنت كاتباً، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نواسك، قال فقلت، حين قرأتها: وهذه أيضاً من البلاء، فتياممت بها التنور فسجرتها بها، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبت الوحي، إذا رسول الله ﷺ يأتينى فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرک أن تعتزل امرأتک، قال فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها، فلا تقربنها، قال فأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك. قال: فقلت لامراتى: الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر. قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: (لا، ولكن لا يقربنک) فقالت: إنه والله ما به حركة إلى شىء، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله ﷺ وسلم فى امرأتک؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال: فقلت: لا استأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدرينى ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب، قال فلبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا.

قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله عز وجل منا، قد ضاقت على نفسى وضافت على الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع^(٢) يقول، بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر.

(١) النبط: فلاحوا العجم

(٢) جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة، انظر: معجم البلدان (٣ / ٢٣٦)

قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، قال فأذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا، حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبيل صاحبي مبشرون، وركض رجل إلى فرساً، وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى، فنزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقانى الناس فوجا فوجا، يهذئوننى بالتوبة ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد، وحوله الناس. فقام طلحة بن عبيدالله يهرول حتى صافحنى وهنائى، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبقر وجهه من السرور ويقول: (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)، قال فقلت: أمن عندك يا رسول الله؟ أم من عند الله؟ فقال: (لا، بل من عند الله) وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، كأن وجهه قطعة قمر، قال وكنا نعرف ذلك، قال فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (أمسك بعض مالك، فهو خير لك) قال فقلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر.

قال: وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجانى بالصدق، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، قال: فوالله ما علمت أن أحدا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا أحسن مما أبلانى الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى^(١). كانت مقاطعة رسول الله ﷺ والمسلمين لهؤلاء الثلاثة من المؤمنين الذين خلفوا،

(١) رواه مسلم برقم ٢٧٦٩

حتى ضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، زجراً وتنبيهاً إلى خطورة ما أقدموا عليه من عصيان أوامر رسول الله ﷺ بالإستعداد للغزو، والتخلف عن اللحاق به، ولذلك فقد تعلموا الدرس جيداً، ودلهم الضنك والضييق الذى أصابهم على عاقبة معصيتهم، ومن أين جاءت الخطيئة وكيف كانت نجاتهم، فتابوا وتاب الله عليهم.

الدرس التعليمى لنا أنه لا يجب علينا إن وقعنا فى الخطأ أن نعانده ونستمر ونُصر عليه، بل يجب على المسلم أن يعود سريعاً حتى ينجيه الله من الهم والذنك فى الدنيا نتيجة شؤم المعصية، وينجيه من العقاب الشديد فى الآخرة نتيجة عدم التوبة والرجوع إلى الله.

٦ - ابتلاء النعمة

وفيه تهذيب المؤمنين

النعمة: هي الحالة الحسنة، وتدل على الترف وطيب العيش ومنها النعيم، وكل ما يتلذذ به ويتنعم من مطعم ومفرش ومركب وغير ذلك. والهدف من هذا الابتلاء أن يختبر الله حالتك مع النعمة، هل ستشكره على ما تفضل به عليك، وتؤدي حق هذه النعمة، أم ستجحد فضل رب العالمين وتبخل بمالك وتنسب هذا الفضل لقدراتك وعقلك وذكاك.

وينقسم ابتلاء النعمة إلى قسمين:

ابتلاء النعمة العامة وابتلاء النعمة الخاصة.

- أما النعمة العامة فهي التي قد يتشارك في الحصول عليها عامة الناس، كالصحة والشباب والتمتع بالسمع والبصر والقوة البدنية والعقلية، فكلها نعم عامة وانت مسئول عن طريقة استخدامك لها، ففي القبر، وأنت بمفردك بدون أب أو أخ أو أولاد، ولا شيء معك من مالك وسلطانك، ستسأل عن ثلاث أسئلة فقط: من ربك؟ النعمة التي امتن الله عليك بها بمعرفته (ولذلك زدك بالعقل والمنطق). ما دينك؟ نعمة أن جعلك الله مسلماً.

من نبيك؟ نعمة معرفتك بنبيك محمد ﷺ.

وأمام رب العالمين، يوم الحساب، ستسأل عن خمسة أسئلة أخرى: في ماذا أفنيت عمرك؟ نعمة الفترة الزمنية التي أعطها الله لك، ماذا فعلت فيها؟

في ماذا أبليت شبابك؟ نعمة الصحة والقوة التي رزقك الله إياها.

من أين إكتسبت مالك؟ نعمة القدرة على تحصيل المال والمنفعة.

في ماذا أنفقت مالك؟ نعمة الإرادة أن تتحكم فيما أعطاك الله كيفما تشاء.

ماذا عملت بعلمك؟ نعمة العقل وقدرتك على تحصيل العلم والعمل به.

لو نظرنا إلى الثلاث أسئلة الأولى في القبر، نرى أنها تهدف إلى معرفة ملخص ما حققته في حياتك من علم ومعرفة، هل إستفدت من نعمة رب العالمين عليك أم أهملتها وتركتها؟ هذه الأسئلة تحدد مدى معرفتك بالغاية التي خلقت من أجلها، ولماذا ابتليت في هذه الحياة الدنيا، والإجابة ستعتمد أساساً على اليقين.

إن كنت موقن أن ربك الله، وأنه أرسل رسوله محمد ﷺ، بالإسلام ديناً للناس كافة، وكان عملك موافق لهذا اليقين، فستكون إجابتك حاضرة، سيلهمك الله الإجابة الفورية، بينما من كان من أتباع كل ناعق، لا يدري إلى أين يسير، وماذا يفعل في هذه الحياة الدنيا، ولم يفتن إلى طبيعة النعمة التي رزقه الله إياها، فلن يجد الإجابة، من رعب الموقف، وهول المنظر، لن يسعه ذكائه، ولا مكره، ولا ماله، سينطق فقط يقينه، وحيث أن هذا اليقين غير موجود، فسيقول لا أدري !!!

وليس بغريب أن يقول لا أدري، فلقد مرت حياته كاملة وهو لا يدري، لم يعرف الله، ولم يعرف نعمته، ولم يعرف رسوله ﷺ، وأهمل دين الله الذي امتن عليه وجعله مسلماً، هذا إن لم يكن ممن كانوا محاربين له وصادين عن سبيله، فكيف تظن إجابته بعد ذلك؟!

وصدق معاذ بن جبل رضى الله عنه حين قال: (الله حكم عدل، هلك المرتابون). بينما وأنت تقف أمام رب العالمين، ليس بينك وبينه واسطة، سوف تُسأل عن تفاصيل هذه الحياة التي عشتها، فإن كان ملخص حياتك علمك من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فبالتالى فإن تفاصيل هذه الحياة سوف يتناغم ويتوافق مع هذا الملخص، ويعنى نجاحك في اختبار النعمة التي رزقك الله إياها.

- أما النعمة الخاصة: (المال، السلطة، القوة، الذكاء، الموهبة).

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ اٰتٰنَا مِنْ فَضْلِهٖ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ۝٧٥﴾ فَلَمَّآ اٰتٰهُمْ مِّنْ فَضْلِهٖ يَجْلُوْا بِهٖ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِىْ قُلُوْبِهِمْ اِلٰى يَوْمٍ يَلْقَوْنَہٗ بِمَا اٰخَفَوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴿٧٧﴾ (التوبة - ٧٥: ٧٧).

وقال: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر - ٤٩).

(إذا مرت الشدة وجاء الرخاء، نسي هذا الإنسان ما قاله في الضراء، وانحرفت فطرته بتأثير الأهواء، وقال عن النعمة والرزق والفضل (إنما أوتيته على علم)، قالها كل مخدوع بعلم أو صنعة أو حيلة يعلل بها ما اتفق له من مال أو سلطان، غافلاً عن مصدر النعمة، وواهب العلم والقدرة، ومسبب الأسباب، ومقدر الأرزاق، فهي فتنة للاختبار والامتحان، ليتبين إن كان شيشكر أو سيكفر، وإن كان سيصلح بها أم سيفسد، وإن كان سيعرف الطريق أم يجنح إلى الضلال)^(١).

قال تعالى على لسان نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكُفِّرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل - ٤٠).
بينما قال قارون عن المال التي كان يملكه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

(القصص: ٧٨).

فمن حمد الله على نعمه، وأدى ما عليه من حق الفقراء فيها، وأنفق منها في سبيل الله، فقد تشبه بنبي الله سليمان عليه السلام، بينما من غره ماله، ونسى أن الله هو مسبب النعمة، ونسى حق الفقير ولم ينفق ماله في سبيل الله فهو أقرب الشبه بقارون.

ابتلاء النعمة الخاصة: وهو ابتلاء موجه لك أنت شخصياً يختبرك الله به، وفيه يبتلى الله من يشاء من عباده بالمال والشهرة، والسلطان والعافية، وهو من الابتلاءات الصعبة الشديدة، وذلك لأنك فيه في مواجهة مباشرة مع نفسك التي بين جنبيك، ففي هذا الابتلاء يُطلق حظ النفس من عقله، من حب ظهور وإستعلاء، وفخر يصل إلى الغرور، وقد يصل الأمر إلى الكبر وجحد نعمة الله.
وذلك لأن الإنسان بامتلاكه كل هذه النعم ينسى أن الله هو مصدرها، فينسب الفضل لنفسه وذكائه وقدرته وحكمته، فلا يتواضع لله ولا لعباد الله.

(١) (الظلال تفسير سورة الزمر بتصرف

والإنسان فى طريقه للوصول لذروة السلطة والمال، قد يجعل من إلهه هواه يحركه كيفما يشاء، فيكسب إبليس المعركة، ويسيطر على هذا الإنسان سيطرة تامة، والإنسان فى سكرة سعيه لإمتلاك القوة المادية والسلطة غافلاً لا يشعر بالهلاك الذى يلقي فيه نفسه، غافلاً عن المصير الذى ينتظره إن لم يتب إلى الله. قال رسول الله ﷺ: (ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) (١).

وقال: (ما ذئبان ضاريان باتا فى حظيرة فيها غنم، يفترسان ويأكلان، بأسرع فساداً من طلب المال والشرف فى دين المسلم) (٢).

وفى قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (٦) ﴿أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى﴾ (٧) (العلق: ٦-٧)، (إن الإنسان فى الحياة الدنيا متى شعر باستغنائه بأسبابه التى أتاحها الله له طغى، فغطى طغيانه على بصيرته، فكفر بربه، وجحد الحق، فظلم وبغى، وزين ظلمه وبغيه بزخرف القول، والدعاوى الكاذبة الباطلة، وسخر ما لديه من قوى وأنصار، لتحقيق مطالب نفسه الجائرة الظالمة الآثمة) (٣).

وهذا بخلاف المؤمن فلا يزيده ثراه إلا حمداً وتواضعاً لله، ولذلك جاء الاختبار للتمييز بين الناس، بين الشاكر لله والذى يكفر بنعمة الله ﴿لِيَبْلُوكَ أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ﴾، وكذلك لتربية الصف المؤمن على قيمة الحمد والتواضع لله وأن الله بيده الخير، يؤتیه من يشاء ويصرفه من يشاء.

قال تعالى ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: ٢٥)، يقول صاحب الظلال رحمه الله:

(١) صحيح أخرجه الترمذى ٢٣٧٦

(٢) أخرجه الطبرانى فى «الصغير» (٩٤٣)، والضياء فى «الأحاديث المختارة» (٤ / ١١٢)، رقم (١٣٢٣)،

وقال: إسناده صحيح

(٣) معارج التفكير ودقائق التدبر (١ / ٣٨)

(والابتلاء بالشر مفهوم أمره، ليتكشف مدى احتمال المبتلى، ومدى صبره على الضر، ومدى ثقته في ربه، ورجائه في رحمته، وأما الابتلاء بالخير فهو في حاجة إلى بيان.

إن الابتلاء بالخير أشد وطأة، وإن خُيل للناس أنه دون الابتلاء بالشر، إن كثيرين يصمدون للابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير. كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقُدرة، ويكبحون جماح القوة الهائلة في كيانهم، الجامعة في أوصالهم.

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذلل، ولكن القليلين هم الذين يصبرون على الثراء والوجدان، وما يغريان به من متاع، وما يثيرانه من شهوات وأطماع.

كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم، ويصبرون على التهديد والوعيد فلا يرهبهم، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الإغراء بالרגائب و المناصب والمتاع والثراء.

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، ولكن قليلين هم الذين يصبرون على الدعة والمراح، ثم لا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال، وبالاسترخاء الذي سيقعد الهمم ويذل الأرواح.

إن الابتلاء بالشدة يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب، فتكون القوى كلها معبأة لاستقبال الشدة والصمود لها، أما الرخاء فيرخي الأعصاب ويُنيّمها و يفقدها القدرة على اليقظة والمقاومة.

لذلك يجتاز الكثيرون مرحلة الشدة بنجاح، حتى إذا جائهم الرخاء سقطوا في الابتلاء، وذلك شأن البشر، إلا من عصم الله وهم قليل.

فاليقظة للنفس في الابتلاء بالخير أولى من اليقظة لها في الابتلاء بالشر، والصلة بالله في الحالين هي وحدها الضمان).

قال قتادة في قوله: ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُثَبِّرُ بِهِ مِّن مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ شَايِعُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦ ﴾ (المؤمنون: ٥٥-٥٦)، قال: مكر والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

والآن: كيف تكتشف نفسك؟

بمعنى: هل أنت تسقط أو ستسقط في اختبار النعمة؟ أم أنت ستفوز إن شاء الله؟ اعلم أنك أدرى الناس بنفسك، مهما كان ما تسوقه من أعذار فإن قرارة نفسك من الداخل تعلمها أنت من نفسك علم اليقين، وبالتالي لا بد أن تنتبه للعامل النفسى الأساسى الذى يؤدى إلى السقوط فى اختبار النعمة.

السبب الرئيسى للسقوط فى اختبار النعمة هو هدفك من امتلاك المال أساساً، فإن كان هدفك من امتلاك المال هو الرغبة فى التملك وإكتساب المال لذاته من أجل الثروة والسيطرة، فاعلم أنك على خطر، وإحتمال سقوطك كبير جداً، وذلك لأن رغبة التملك، رغبة شديدة تجعل الإنسان يظلم، ويطغى ويتكبر ويجحد الحق، وتصيب المرء بالحسد والبغضاء لغيره من الناس، وبالتالي سوف تدفعه بعيداً جداً عن الله، ولذلك كان المال فتنة يُختبر بها الناس ليميز الله الخبيث من الطيب.

بينما من كان هدفه من امتلاك المال هو استخدامه لنصرة دين الله والرعاية لحقوقه ابتغاء مرضاته، فضلاً عن أن يعف نفسه وأهل بيته عن سؤال الناس، ففي هذه الحالة سوف تختلف نفسية المسلم الذى يسعى بهذه النية، لأنه سيستوى لديه امتلاكه المال أو عدم امتلاكه، لأنه يعلم أنه حتى فى حالة عدم امتلاكه فإنه سيأخذ ثوابه كاملاً من رب العالمين كما سيأتى فى الحديث الشريف بعد قليل.

وبالتالى فإن هدفك من إمتلاك المال هو الذى سيحدد إن كنت ستسقط أم ستفوز

فى اختبار النعمة.

الغاية تبرر الوسيلة

قاعدة فاسدة استخدمها الناس للحصول على المكاسب ولاستحلال الحصول على أموال الناس بالباطل، فتظهر فرصة لأحدهم للحصول على الأموال والسلطة، ويزينها له إبليس بكل الطرق، فيسعى المرء للاستغلال هذه الفرصة مهما كانت حرام، فهو يخشى أن تفوته الفرصة وقد لا تعود، فيبرر لنفسه أنه ما فعل هذا الحرام إلا ليحصل على الفرصة حتى لا تضيع ويقول الغاية تبرر الوسيلة. في الإسلام، لا يوجد شيء اسمه الغاية تبرر الوسيلة، ولكن هناك غايات عظيمة وتحتاج إلى وسائل شرعية لتحقيقها، وعلى المسلم أن يبذل جهده ثم تكون النتيجة كما يشاء الله، فالمسلم الذي يجعل هدفه الله لن يرتكب مخالفات ضد دين الله، ثم يُبرر الأمر لنفسه أنه ما فعل ذلك إلا للمصلحة أو لكي يُرضى الله. الجاهل فقط، ومن يتبع هواه هو من سيسقط في مثل هذه السذاجة، بينما المسلم الحق لا يخفى عليه الحلال والحرام ومداخل الشيطان بينهما. إحترس من مصادر دخلك! من أين اكتسبت مالك؟ ولماذا اكتسبته؟ وفيما أنفقتة؟ حتى لا تسقط وأنت لا تدري.

مكانتك عند الله

اعلم هذا: إن أموالك وبنوك، وعلمك وسلطتك لا تغني عنك شيء عند الله إلا بحقها، وحققها هو تحقيق التقوى فيها، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (الحجرات- ١٣)، وذلك لأن الله ما أعطاك كل هذا إلا ليختبرك، وما منعه عن غيرك إلا ليختبره هو الآخر، وبالتالي إياك أن تظن في نفسك أنك أفضل من هذا أو ذاك أنك أكثر منه غنى وسلطة، بل انظر أين مقامك من تقوى الله حتى تعلم أين هي مكانتك الحقيقية؟!

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان يجتنى سواكاً من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: (مم

تضحكون؟)، قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: (والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد)^(١).

كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه رجلاً فقيراً، وضئيل الجسد، حتى أن الريح كانت تُميله يميناً ويساراً، وعندما ضحك صحابة رسول الله ﷺ من دقة ساقه، بين لهم رسول الله ﷺ أن قيمة الإنسان ليست فى هيئته، فساق عبد الله بن مسعود على صغرها فهي أثقل فى الميزان عند الله من جبل أحد، فقيمة الإنسان فى عمله وتقواه. وعلى النقيض من ذلك، قال رسول الله ﷺ فى حديث طويل: (وبينا صبي يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهت وشارة حسنت، فقالت أمه اللهم اجعل ابني مثل هذا. فترك الثدى وأقبل إليه فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلنى مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع).

وكان السبب فى ذلك، يقول رسول الله ﷺ على لسان الطفل الرضيع: (إن ذاك الرجل كان جباراً، فقلت: اللهم لا تجعلنى مثله)^(٢).

من الطبيعى أن تدعوا الأم لابنها بأن يكون ذو مال ومكانة، ولكن الله يُنطق هذا الطفل الرضيع ليُعلم الناس درساً أن ليس المال والجاه هو الذى يُعطى المكانة للإنسان عند الله، ولكن عمله وتقواه.

ولا تظن أن الفقراء فقط هم من يتقون ويلتزمون منهج الله، فهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهم جميعاً والكثير غيرهم من صحابة رسول الله والتابعين كانوا أغنياء جداً، ولكن هذا الغنى وهذه الثروة لم تنسهم من هم ولماذا لديهم هذا المال وإلى أين المسير بعد ذلك.

إن أموالك لن تكون أبداً مثل قارون الذى خسف الله به وبداره الأرض. وسلطتك لن تصل إلى النمرود الذى ملك كل الأرض وأهلكه الله بحشرة صغيرة، ومهما كانت قوتك، فسيأتى يوم ويضعف فيه بدنك، وينحنى فيه ظهرك.

(١) رواه الإمام أحمد برقم ٣٩٩١، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن

(٢) جزء من حديث مُتفق عليه، وهذا لفظ مسلم برقم ٢٥٥٠، باب البر والصلة والآداب

وعلمك وذكاءك لن يصل أبداً لذكاء إبليس، ولكن أين كل هؤلاء، لن يغنى عنهم مالهم وسلطتهم وقوتهم وذكائهم شيئاً، فالجميع خالداً في النار أنت من يصنع مصيرك الآن، وأنت من تبني مكانتك الآن بتقواك وليس بغير ذلك.

صورة من ابتلاء النعمة

(ابتلاء قارون)

كان قارون ابن عم موسى عليه السلام، فهو من بنى إسرائيل، وقد أنعم الله عليه بنعمة المال، والجاه والسلطان، ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ (القصص - ٧٦)، حتى إن مفاتيح خزائن كنوزه كان يثقل حملها على العصابة من الرجال الشداد، فماذا فعل قارون مع ابتلاء النعمة الذي أصابه؟

لم يُقابل قارون النعمة التي رزقه الله إياها بالشكر والعرفان الذي كان ينبغي منه، ولكنه على العكس تماماً، ظلم الناس وتكبر عليهم، ومنع حق الفقراء والمساكين فلم يؤدي حقهم الذي عليه في ماله، وعندما رأى قوم قارون ما كان منه من بغى وكبر وعدوان، توجه إليه فريق منهم لُقِّدوا له النصيحة فقالوا:

﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، قال ابن عباس رضى الله عنهما: كان فرحه شركاً لأنه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى^(١).

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾،

﴿وَلَا تَسْكُنْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، قال مجاهد: لا تترك أن تعمل في الدنيا للآخرة حتى تنجو من العذاب، لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو أن يعمل للآخرة^(٢).

(١) مفاتيح الغيب للرازي (١٢ / ١١٠)

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن للبقوي (٦ / ٢٢١)

﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ ،

﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٧٦ - ٧٧).

قدم له قومه خمس نصائح لينجو من عقاب الله للمستكبرين الجاحدين لنعمة الله عليهم، فكان رده مُستكبراً، ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص - ٧٨)، (أى: لم أملك ما ملكته من أموال، ولم أحصل على ما حصلت عليه من زينات، وما أتفاخر به على قومي بعباءة أعطانيه الله إحساناً، بل أُوتيته وحصلت عليه ضمن الأنظمة السببية، التى تأتى ثمراتها ونتائجها مبنية على أسبابها، وبناء على علمى بالأسباب، واتخاذى لها اتخاذاً حكيماً، ملكت ما ملكته، فلا تقولوا لى بغباء وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ ، أنت جاهلون لا تعلمون أسباب اكتساب الأموال وجمعها^(١).

(لقد انتفخ الغرور فى صدره ورأسه، حتى طمس بصيرته، فجعله يحدد قضاء الله وقدره، مُستبعداً عن ذهنه أن الله هو مُسبب الأسباب، وغافلاً عن أن الله الذى آتاه ما هو فيه هو القادر على أن يسلبه ما آتاه، أو يهلكه فيصرف عن الحياة الدنيا، وعن كل ما آتاه فيها)^(٢)، وهذا المشهد، مشهد الكبر و الغرور بالعلم والمال، يُصيب كثير من الناس الذين ينسبون فضل السيادة والزعامة لأنفسهم وينسون فضل الله عليهم، فيسقطون سقوطاً شديداً فى ابتلاء النعمة، وإن لم يتوبوا فلهم عقاب شديد عند رب العالمين.

ولم يكتفى قارون بأن رد عليهم هذا الرد المستكبر، بل قرن القول بالفعل: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ (القصص: ٧٩)، خرج على قومه فى خيلاء وكبر واستعلاء، ليبهر قومه ويريهم مدى غناه وقوته، وفى هذا غروراً أيضاً فهذا الصنف من الناس (صنف قارون)، يحب أن يرى نظرات الحسد والحسرة فى قلوب الناس، وقد

(١) مفاتيح التفكير ودقائق التدبر (٩ / ٤٧٣)، بتصرف يسير

(٢) المرجع السابق

تحقق لقارون ما أراد بقول بعض الناس ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (القصص- ٧٩)، ولما رأى الأتقياء ما فعله قارون، وسمعوا ما قاله من يريد زينة الحياة الدنيا، أرادوا أن يعلموهم درساً في غاية الأهمية، فقالوا: ﴿وَلَيْكُمُ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص: ٨٠).

(وَلَيْكُمُ): أى احذروا هلاككم وعذابكم، مما فتنتم به، إن تمنيتم أن يكون لكم مثل ما أوتى قارون، إن ثواب الله العظيم الذى أعده الله لأهل طاعته خير من هذا الذى استعرضه قارون، وخير من كل ما لدى فرعون وآله، وخير من كل الدنيا وما فيها، ولا ينال هذه الصفة المؤهلة لثواب الله العظيم إلا الصابرون^(١).

وهنا لا بد من توضيح أمر مهم وهو: لماذا بدأ الذين أوتوا العلم بقولهم، وَلَيْكُمُ؟! ثم قدموا النصيحة بعد ذلك، لماذا لم يذكروا النصيحة مباشرة؟ الإجابة نجدها فى حديث رسول الله ﷺ الذى قال فيه: (إنما الدنيا لأربعة نفر:

عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم الله فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل،
وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية يقول: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء،
وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يخبط فى ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم الله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل،
وعبد لم يؤتته الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء)^(٢).

(١) مفاتيح التفكير ودقائق التدبر (٩ / ٤٧٧)، بتصرف يسير

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه برقم ٢٣٢٥ وقال حسن صحيح

فهذا الذى ليس لديه مال، ويرى الظالم المستعلى فى زينته وفسقه ويتمنى بجهله أن يكون لديه المال ليفعل مثله، عليه من الإثم مثل ما على صاحب المال الفاسق، ولذلك استحق هؤلاء أن يُقال لهم ويلكم زجراً وإستنكاراً لقولهم، أنهم يتمنون أن يكون لديهم مثل ما لدى قارون، ويفعلون فعله.

ونتيجة بغى قارون واستكباره بماله وعلمه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (القصص - ٨١).

نعم بعد أن خرج على قومه مُستعرضاً زينته وملكه، جاءه العقاب الربانى السريع، خسف الله به الأرض وبيداره وبماله الذى كان يفتخر به، فلم تنصره قوة كائن من كان من عقاب الله، ولم يستطع هو أن يدفع عن نفسه هذا العقاب بعد أن كان عالياً مستكبراً.

وصدق الله إذ يقول: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٩) ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٥٠) (الزمر: ٤٩ - ٥٠).

وفى هذا رسالة لكل من يفتخر بعلمه وماله وينسى مسبب الأسباب، الله رب العالمين، إن هذا المال الذى تملكه هو نعمة عليك إن لم تؤدى حق الله فيه بشكره، وحق الفقراء بالتصدق عليهم، ومساعدة المحتاجين، فحتى وإن ملكت الدنيا بأجمعها فلن تغنى عنك من الله شيئاً إن لم تؤدى الحق الذى عليك.

٧ - ابتلاء الدعوة إلى الله

عندما نزل الوحي على رسول الله ﷺ، أول مرة، فزع فزعاً شديداً، فانطلقت به السيدة خديجة رضى الله عنها، إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عم السيدة خديجة، وكان قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمى.

فقال له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة يا ابن أخى ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة هذا الناموس الذى نزل الله على موسى، يا ليتنى فيها جذعا^(١)،

ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ أومخرجى هم؟!

قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى

يومك، أنصرك نصرا مؤزرا^(٢).

نعم إنها سنة ثابتة مستمرة عبر الزمان، إن أهل الفساد والكفر والطغيان يُعادون الأنبياء وأتباع الأنبياء، ومن سار على هُداهم، ويؤذونهم ويقاثلونهم ويخرجونهم من ديارهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ (إبراهيم - ١٣).

وقال تعالى مخبرا عن استكبار قوم لوط ومعاداتهم لنبيهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّظْهَرُونَ﴾ (الأعراف - ٨٢).

وقال عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ٨٨).

(١) يتمنى أن لو كان شاباً عند ظهور الدعوة إلى الإسلام ليكون أمكن لنصره، فقد كان شيخا كبيرا

(٢) رواه البخارى من حديث عائشة رضى الله عنها

وبالعموم قال عن استهزاء المجرمين بالمؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ (المطففين: ٢٩ - ٣٢).

وقد أخبر رب العالمين بهذه الأخبار في كتابه الكريم لحث المؤمنين على الصبر والثبات على الدعوة إلى دينه مهما كانت شدة الابتلاء الذي قد يتعرضون له.

• وهناك جانبين للابتلاء فى ابتلاء الدعوة:

الأول: ابتلاء القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

حث رب العالمين المؤمنين فى أكثر من موضع من القرآن الكريم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل وجعلها صفة من صفات المؤمنين، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

(التوبة: ٧١).

ولكن هناك ضريبة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ليرى الله مدى ثباتك على الطريق، وهذه الضريبة هى ابتلاء يصيبك، نتيجة عداوة بعض الناس لك، وقد نقل عن سيد العباد بعد الصحابة (أويس) القرنى أنه قال: (إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم يدع للمؤمن صديقاً، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون فى ذلك أعوان من الفاسقين، حتى والله لقد رمونى بالعظائم، وأيم الله لا أدع أن أقوم فيهم بحقه) (١).

إن من واجب الداعية إلى الله أن يقول الحق، ولا يخاف لومة لائم، وبالتالى فلا يجب عليه أن يتملق أحداً، أو أن يخاف من توصيل دعوة الله للناس أو أن يخضع لإحد ابتغاء مكسب مادى أو مكسب معنوى، بل يكون خضوعه لله فقط، يبتغى منه الأجر والثواب، ونتيجة لذلك فقد يؤذى ويسب أو يٌضهد ويسجن كما حدث

مع الأنبياء والصالحين من بعدهم، ففي ابتلاء الدعوة إلى الله فإن الداعية إلى الله في مواجهة مباشرة ضد:

- ١ - صاحب السلطة الظالم الذى يسوءه أن تدعوة إلى العدل والرحمة مع رعيته.
- ٢ - صاحب المال الذى إن كان من حلال يكره أن تأمره بالصدقة وإن كان من حرام يكره أن تدعوه لكف يده عن المال الحرام.
- ٣ - التاجر الذى يغش فى بيعه وتجارته.

٤ - أصحاب الأهواء، ومحركى الفتن، وغير ذلك أصناف كثيرة يسوءهم أن تذكرهم بالله وبحقه واقرأ قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الزمر - ٤٥).

ولذلك فالكثيرين لن تهدأ أنفسهم وتستكين، طالما أن هناك من يقف بينها وبين الانطلاق فى أهوائها، إما كبراً وإما حسداً وإما غيظاً، وبالتالي فسوف يتعرض الداعية للإيذاء خاصة إن كانت الهوة واسعة بين ما عليه الناس وبين منهج الله، فكلما اتسعت الهوة زاد العداء، وأنت مُطالب أن تدعوا كل من استطعت دعوته.

• ولكن، أليس من الأفضل إجتناّب هذا الابتلاء، وقصر الدعوة على من يُرتجى

منه خير، والابتعاد عن الأمور التى قد تسبب العداء مع الآخرين؟! عن قتادة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لُبِّيْنُهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران: ١٨٧)، قال: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئاً فليعلمه، وإياكم وكتمان العلم، فإن كتمان العلم هلكة^(١).

وذلك لأن الداعى إلى الله، إن كتم جزء من علمه عن الناس وأخبر بجزء آخر يبتغى من ذلك السلامة والمصلحة، فإنه بذلك قد خان الله ورسوله، بل وخان المدعوا أيضاً، وذلك لأنه سيعبد الله على ضلال، وهو يظن أنه على صراط مستقيم.

- فى فتنة خلق القرآن، جُلد الإمام أحمد، وسجن، فى سبيل أن يقول كلمة

(١) تفسير الطبرى، آل عمران آية ١٨٧

واحدة، ترفع عنه هذا البلاء، ولكنه صبر ولم يكتم علمه، لأنه يعلم عقوبة كتم العلم عند رب العالمين، وكذلك يعلم أنه إن تكلم بهذه الكلمة فسوف يقع في الفتنة خلق كثير، ولذلك آثر أن يُجلد وأن يُسجن حتى يصل علمه كاملاً للناس.

– عن أبو المثني العبدى قال: سمعت ابن الخصاصية يقول: أتيت رسول الله ﷺ لأبأيعه على الإسلام، فاشترط عليّ (تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وتصلّى الخمس، وتصوم رمضان، وتؤدى الزكاة، وتحج البيت، وتجاهد فى سبيل الله).

قال: قلت: يا رسول الله، أما اثنتان فلا أطيعهما، أما الزكاة فمالى إلا عشر ذود^(١)، هن رسل أهلى وحمولتهم، وأما الجهاد فيزعمون أنه من ولى، فقد باء بغضب من الله، فأخاف إذا حضرنى قتال كرهت الموت، وخشعت نفسى.

قال: فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حركها ثم قال: (لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟) قال: ثم قلت: يا رسول الله، أبأيعك فبأيعنى عليهن كلهن^(٢).

لقد رفض رسول الله ﷺ بيعة الصحابى، ولم يكتم علمه فقال: (لا صدقة ولا جهاد فبم تدخل الجنة؟)، لو رفض هذا الصحابى أداء الزكاة والجهاد وذهب ولم يبايع رسول الله ﷺ، أليست النار جزاءه بعد ذلك؟ نعم بالتأكيد، ورسول الله ﷺ يعلم ذلك، ولكن الحق أحق أن يُتبع، لا ينبغي للداعية أن يُساوم الناس فى إتباع الحق، أو أن يكتم علمه عنهم، فيعبدوا الله على نقص فى العلم أو على ضلال، فإن كان فى المدعوا خير فسوف يستجيب للحق كاملاً، وإلا فقد اختار طريقه بنفسه.

– كان طاووس بن كيسان^(٣) من أهل اليمن، وكانت الولاية فى ذلك الوقت فى اليمن لمحمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج بن يوسف، وكان محمد بن يوسف

(١) عشرة من الإبل

(٢) رواه الحاكم فى المستدرک وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ويشير بن الخصاصية من المذكورين فى الصحابة من الأنصار رضى الله عنهم

(٣) أحد التابعيين، ولقب طاووس أطلق عليه؛ لأنه كان طاووس الفقهاء واسمه ذكوان بن كيسان

يجمع في ذاته كثيراً من سيئات أخيه الحجاج، ولكنه ما كان يتحلى بشئ من حسناته، وفي غداة يوم بارد من أيام الشتاء، دخل عليه طاووس بن كيسان ومعه وهب بن مُنبه^(١).

فلما أخذَا مجلسيهما عنده، طفق طاووس يعظه ويُرغبه ويُرهبه، والناس جلوس بين يديه، فقال الوالي لأحد حُجابه: يا غلام أحضر طيلساناً^(٢) وألقه على كتفى أبى عبد الرحمن (كنوع من أنواع الرشوة الخبيثة).

فعمد الحاجب إلى طيلسان ثمين وألقاه على كتفى طاووس. فظل طاووس مُتدققاً في موعظته، وجعل يُحرك كتفيه في هدوء، حتى ألقى الطيلسان عن كتفه وهب واقفاً وانصرف.

فغضب محمد بن يوسف غضباً شديداً، غير أنه لم يقل شيئاً. فلما صار طاووس وصاحبه خارج المجلس، قال وهب لطاووس: والله لقد كنا في غنى عن إثارة غضبه علينا، فما كان يُضريك لو أخذت الطيلسان منه، ثم بعتَه وتصدقت بثمنه على الفقراء والمساكين.

فقال طاووس: هو ما تقول، لولا أنني خشيت أن يقول العلماء من بعدى، نأخذ كما أخذ طاووس، ثم لا يصنعون فيما أخذوا ما تقول^(٣).

إن طاووس رحمه الله أثر أن يثير غضب محمد بن يوسف الثقفي أخو الحجاج (وما أدراك من الحجاج؟) خوفاً أن يُستغل موقفه هذا (بأن يأخذ من مال الوالي)، فيكون فتنة للعلماء من بعده.

الثاني: ابتلاء السكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

١ - قيام المؤمن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجعله دائماً في شغل وحركة وعمل، وأداء طاعات وذكر لله، فكل وقته مشغول في ذلك، وبالتالي لا يصيبه

(١) تابعى يمينى فارسي الأصل

(٢) كساء أخضر اللون غالى الثمن تلبسه الخاصة

(٣) صور من حياة التابعين يتصرف يسير

الفتور والضعف إلا نادراً ، ولا يكون هناك وقت فراغ يوقعه ضحية لوساوس إبليس ، أو أن تتبع نفسه هواها فى معصية الله ، حتى وإن حدث ذلك ، سيجد بجواره من ينقذه سريعاً ، ويرده إلى الصراط المستقيم ، بينما إن توانى المؤمن عن قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإنه يُعرض نفسه لعقاب الله ، بالإضافة إلى ما يصيب نفسه من ضعف نتيجة إبتعاده عن سبيل المؤمنين ، قال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)^(١).

وكلما بعد المؤمن عن صف المؤمنين الداعين إلى الله ، كلما صعب عليه الرجوع لمسيرة الدعوة والعمل ، لذلك كان لابد من الابتلاء بشدة ، حتى يعود المؤمن إلى طريقه الصحيح الذى ينبغى أن يسير فيه .

٢ - عندما يسكت المؤمن عن الأمر بالمعروف وعن النهى عن المنكر ، وعندما لا يأخذ المؤمنين على يد الظالم ، ويترك فى ظلمه ، يزيد الفساد والمفسدين ، وتنتشر الفاحشة ، فلا يوجد من يردعها حتى تصل آثارها إلى المؤمنين أنفسهم ، فيُعانون منها أكثر من غيرهم ، فتصيبهم وتصيب أبناءهم وأحباءهم ، حتى إذا نزل عقاب الله على المفسدين ، هلك المؤمنون مع الظالمين ، عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (يكون فى آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف ، قالت : قلت : يا رسول الله أنهلك وفيما الصالحون؟ قال : نعم إذا ظهر الخبث)^(٢).

نعم يظهر الخبث ويعلو حتى فى وجود المؤمنين الصالحين ، وذلك لأنهم لم يكونوا مُصلحين ، بل ارتضوا السكوت وخافوا أن يأمرؤا بالمعروف وينهون عن المنكر.

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى ، وقال : حديث حسن . وحسنه الألبانى

(٢) رواه الترمذى ٢١٨٥ ، وصححه الألبانى فى صحيح سنن الترمذى

(إذا قصر الصالحون بواجبهم فى الهداية والإصلاح والتقويم، والأخذ على يد المفسدين، كثرت نسبة المفسدين فى الأرض، وانتشر الشر والظلم والعدوان والطغيان، وامتد الوباء، وصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وبسبب الفساد المنتشر تتزلزل قواعد سلامة المجتمع، وتنعدم فيه عوامل بقاءه، وعندئذ يستحق هذا المجتمع أن تنزل عقوبة الله الشاملة، التى تصيب الفاسدين المفسدين، وتصيب الصالحين فى أنفسهم أيضاً، لأنهم قصرُوا بواجبهم تجاه مجتمعهم، إن كان عليهم أن يأمرهم بالمعروف وينههم عن المنكر) (١)

ولذلك فأنت كمؤمن إن ارتضيت الإسلام منهج لحياتك، فإما أن تصبر على الجُهد والمشقة التى يجب عليك بذلها فى سبيل الدعوة لدين الله.... وإما أن تصبر على الألم والمعاناة التى سيسببها لك ابتلاء ابتعادك عن الدعوة إلى الله.... والاختيار لك!

صور من ابتلاء الدعوة

الأمثلة فى ابتلاء الدعوة كثيرة، ويكفى دراسة ما حدث مع أنبياء الله وهم أكرم الخلق على الله، لترى كيف سخر منهم قومهم، ولترى كيف تم تهديدهم إما بالقتل وإما بالرجم وإما بالنفى، سترى المعاناة وسترى الألم الذى أصابهم فى سبيل نشر دين الله.

- قالوا لنوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ أَمْلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ كَفُرُوا بِآدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود - ٢٧)، وقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (الشعراء - ١١٦).
- قالوا لهود عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الأعراف - ٦٦)، وقالوا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ (هود - ٥٤).
- قالوا لصالح عليه السلام: ﴿قَالُوا يَصْلِحُ فَذَكُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ (هود - ٦٢)، وتم التخطيط

(١) روائع من أقوال الرسول، ١٩٠، بتصرف يسير

لقتله ﷺ فقالوا: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴾ (النمل - ٤٩).

- قالوا للوط ﷺ: ﴿ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ (الشعراء - ١٦٧)، وقالوا: ﴿ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهُرُونَ ﴾ (الأعراف - ٨٢).

- قالوا لشعيب ﷺ: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (الأعراف - ٨٨)، وقالوا: ﴿ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (هود - ٩١).

- قال فرعون عن موسى ﷺ: ﴿ قَالَ إِن رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الشعراء: ٢٧)، وقال: ﴿ قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٩)، وقال: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمُونَ لَأَفْطِنَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأُزْجِلَكُم مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الشعراء: ٤٩).

- وقالوا لرسولنا الكريم ﷺ: ﴿ قَالُوا يَتَأْتِيَآ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (الحجر: ٦) ويخبر عنهم ربنا لرسول الله ﷺ فيقول: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ (الأنفال: ٣٠).

• ومما لقي رسول الله ﷺ من قومه:

حثو سفهاءهم التراب على رأسه، وإلقاء القاذورات على بابه، وبصق أمية بن خلف في وجهه، بالإضافة إلى السب، والذم والسخرية، وتعذيب أصحابه وأحبائه وهو يرى ذلك ﷺ، وفي إحدى المرات بينا رسول الله ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنق رسول الله ﷺ فخنقه خنقا شديداً، فأقبل أبو بكر رضى الله عنه حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ قال ﴿ أَنْقَلُون رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ الآية (غافر - ٢٨) ^(١).

(١) رواه البخارى، كتاب مناقب الأنصار

ظاهرة أبى لهب

وفى ابتلاء الدعوة رسالة أخيرة، والرسالة إلى الذين يؤذون الدعوة إلى الله، أنت لا تدري أى جريمة ترتكب، إن لم تُصَبِّك المصائب المتتالية فى الدنيا وفى الآخرة ناراً تلظى، لقد ذكر الله تعالى فى كتابه الكريم، صورة من صور إيذاء الدعوة وعاقبتها، حتى تكون عبرة لكل من يؤذى الداعين إلى الله، إنه أبو لهب.

من هو أبو لهب؟ ولماذا اختصه الله بالذكر وجعله عبرة فى كتابه دون غيره من المشركين؟! على الرغم من أن أبو جهل لُقِبَ بفرعون هذه الأمة، وكان غير أبى لهب الكثيرين ممن آذى رسول الله ﷺ والمؤمنين؟

أبو لهب: هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وسمى أبا لهب لإشراق وجهه، فقد كان فيه حُمْرَة كَحْمَرَة اللهب. وكان أبو لهب من جيران رسول الله ﷺ.

وكان بينه وبين رسول الله ﷺ علاقة نسب، فابنى أبى لهب عْتَبَة وَعُتَيْبَة، كانا زوجى ابنتى رسول الله ﷺ، رُقِيَة وَأُم كُلثوم.

كان أهل مكة يُلقبون رسول الله ﷺ بالصادق الأمين قبل البعثة، وهذا إن دل على شئ فإنه يدل على عظمة مكارم أخلاق رسول الله ﷺ، حتى ينتشر هذا اللقب هذا الانتشار الكبير فى جميع أرجاء مكة، والغريب أن أكثر الناس التى ينبغى لها أن تدرك ذلك أحد هذه الأصناف الثلاثة: أحد أقاربه من العائلة، جاره فى المنزل المُطْلَع على بيته، من له علاقة نسب تتيح له التعامل المباشر معه ودخول بيته.

نرى من ذلك أن أبى لهب قد تحقق فيه هذه الأصناف الثلاثة، فهو عمه، وجاره، ومعه علاقة نسب أيضاً، وبالتالي فهو أعرف الناس به وبأخلاقه لا محالة، ولكن!!

الصفات الشخصية واتباع الهوى، التى كانت لدى أبى لهب، أثرت أثراً كبيراً فى حكمه على رسول الله ﷺ، والذى يُمثل دور الداعية إلى الله، فبمجرد أن أظهر رسول الله ﷺ رسالته، أعلن أبو لهب له العداوة، وكذبه، واتهمه بالسحر، وذهب

إلى ولديه عتبة وعتيبة فقال: رأسى ورأسكما حرام (أى لا أراكما ولا أكلمكما) إن لم تطلقا ابنتى محمد، فطلقاهما.

وعندما كان رسول الله ﷺ يمشى فى السوق ليدعوا الناس لتوحيد الله وترك عبادة الأوثان، كان أبو لهب يمشى خلفه، يرميه بالحجارة، حتى يدمى ساقيه وعُرقوبيه، ويقول: يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه، وعندما يعلم الناس أنه عمه، كانوا ينفضون عن رسول الله ﷺ، من مُنطلق أن عمه هو أدرى الناس به، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له، والتنقيص من شأنه ومن شأن دينه، ولذلك نجد فى الحديث أن الوحيد الذى أطلق لسانه فى حق رسول الله ﷺ عندما صعد على جبل الصفا، لينذر الناس، كان أبو لهب فقال لرسول الله ﷺ: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فنزلت سورة المسد، بتهديده هو وزوجته التى كانت تؤذى رسول الله ﷺ هى الأخرى، وأن عاقبتهم إلى النار، فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ (سورة المسد)، وذكر رب العالمين المال، لأن سلطة المال والجاه تكون هى على الغالب سبب إغواء المجرمين ليصدوا عن سبيل الله، ويتعرضون بالأذى للمؤمنين، وأنت فى سبيل مالك، أو فى سبيل تحقيق منفعة خاصة بك قد تؤذى الداعين إلى الله، قد تعتدى عليهم إما بالسان وإما باليد، ولذلك يخبر رب العالمين الناس أجمعين أن المال لن يُغنى عن صاحبه شىء.

والرسالة التى أريد توصيلها: إلى كل ذا قرابة لداعية إلى الله، إلى كل جار، أو ذو نسب لداعية إلى الله، إياك أن تؤذيه، فإنك بذلك تُعرض نفسك إلى حرب من الله، ولن تطبقها أبداً، وفى الآخرة عذاب أليم، إن كنت تكره هذا الداعية، إن كنت تبغضه، لأى سبب كان (غير البغض لله، وهذا له شروط)، اجعل هذا الأمر لنفسك وداخل نفسك ولا تُخرجه منها، لأنك إن أعلنت عداوته صب الله عليك من المصائب صباً، واستمع إلى هذا الحديث الذى يرويه البخارى، حيث يقول الله فى الحديث

القدسي: (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب)، فهو نص صحيح صريح أن الله يُعلن الحرب المباشرة على كل من تسول له نفسه أن يُعادى أولياءه.

وعلى العكس من ذلك إن كنت تعلم من نفسك أنك لا تلتزم بشعائر الإسلام، إن كنت تعلم من نفسك تقصيراً فى جانب من الجوانب وتخشى عقاب الله لك على ذلك يوم القيامة، فاعلم أن للمؤمنين شفاعاة لكل من كانوا يعرفون من المسلمين، وإقرأ معى هذا الحديث الصحيح، عن رسول الله ﷺ: (... ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم، قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلايب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عُقفاء، تكون بنجد يقال لها: السعدان، المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مُسلم، وناج مخدوش، ومكدوس فى نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً، فما أنتم بأشد لى مناشدة فى الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار (وإذا رأوا أنهم قد نجوا)، فى إخوانهم يقولون: ربنا إخواننا، كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرم الله صورهم على النار، فيأتونهم وبعضهم قد غاب فى النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار فخرجوه، فيخرجون من عرفوا ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا. قال أبو سعيد: فإن لم تصدقونى فاقروا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء - ٤٠)، يشفع النبيون، والملائكة، والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتى،^(١)

(١) رواه البخارى ٧٤٣٩، ومسلم ١٨٣

وعن أنس رضى الله عنه قال: (يُصَفُّ أَهْلُ النَّارِ يَوْمَئِذٍ، فَيَمُرُ بِهِمُ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ: يَا فُلَانُ أَمَا تَعْرِفْنِي، أَنَا الَّذِي سَقَيْتَكَ شَرِبَةً، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَنَا الَّذِي وَهَبْتُ لَكَ وَضُوءًا، فَيُشْفَعُ لَهُ فَيُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ)^(١).
وبالتالى فإن كنت فطنا فعليك أن تتقرب من المؤمنين، أو من ترى فيه الصلاح، فإن تقربك من المؤمنين يجعل لك هذه الشفاعة، وإن أحببتهم حُشِرَتْ معهم يوم القيامة، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف ترى فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحب^(٢).
قد يقول قائل، وكيف أعلم أنه داعية إلى الله، أو مُدعى صلاح (منافق عليم اللسان)؟

أقول: سبق وبيّنت صفات المنافق عليم اللسان فى كتاب فتنة الدهيماء ويمكنك الرجوع إليها، وبالتالى تستطيع أن تكتشفه، أو ابحث بنفسك عن صفات المؤمنين وصفات المنافقين حتى تستطيع إكتشاف هذا المنافق عليم اللسان، أما الداعية إلى الله، فسترى صلاحه فى تعاملاته وسمته وهدوء نفسه، ورحمته بالعامّة، وبالتالى فليس لك عذر أن لا تستطيع أن تحدد بين من يعمل لله ومن يعمل لهوى نفسه، وإن لم تستطع التفريق بينهما، فاعلم أن هناك خلل شديد فى نفسك عليك إصلاحه سريعا وإلا وقعت فى الفتنة، وهذا الإصلاح لا يكون إلا بالعلم الشرعى الصحيح.
عن يزيد بن عمير، أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قالوا: يا أبا عبد الرحمن، أوصنا: قال: أجلسونى، ثم قال: **إن العلم والإيمان مكانهما، من التمسهما وجدهما**، قال ذلك ثلاث مرات^(٣).

(١) مصابيح السنة، حديث رقم ٢٢٧٩

(٢) متفق عليه

(٣) رواه الحاكم فى المستدرک باب العلم، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وقال الذهبى: على شرطهما

٨ - ابتلاء التمكين

وفيه إعداد الجند وتهيئة المؤمن نفسياً وجسدياً لتحمل عبء التمكين

قال تعالى ﴿وَإِنْ جُنَدًا لَهُمُ الْقَلْبُونَ﴾ (الصافات: ١٧٣)

سُئِلَ الإمام الشافعي، أيما أفضل للرجل أن يُمَكَّن أو يبتلى؟
قال: (لا يُمَكَّن حتى يُبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة)^(١).

اختبار التمكين، هو الاختبار الأصعب والأشد، وله علامة واضحة، أن تجتمع كل قوى الشر، أن يجتمع كل مشرك بالله، وكل كافر، وكل ظالم متكبر عنيد، وكل فاسق يتبع هواه، على هدف واحد، وهو حصار الإسلام والعمل على إستئصاله وأهله وخاصة المؤمنين منهم.

عن سعيد بن جبير قال:

(قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ ما يُعذرون به في ترك دينهم؟

قال: نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجعل (حشره كالخنفساء) ليُمَرَّبهم فيقولون له: هذا الجعل إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتدأ منهم مما يبلغون من جهده)^(٢).

وعن أبي الجلد جيلان قال: ليصيب أهل الإسلام البلاء والناس حولهم يرتعون، حتى أن المسلم ليرجع يهودياً أو نصرانياً من الجهد^(٣).

(١) الفوائد لابن القيم

(٢) انظر: تهذيب السيرة النبوية لابن هشام

(٣) رواه نعيم ابن حماد في الفتن، ٤٧ بإسناد صحيح إلى أبي الجلد وهو ثقة

– فى ابتلاء التمكين وعلى الرغم من شدته، أنت على أبواب رؤية تحقيق وعد الله بتمكين دينه فى الأرض، لا يخاف أحد من عبادته وإتباع سبيله، ويرفع الله تسلط الظالمين على المؤمنين.

– فى ابتلاء التمكين أنت على أبواب رؤية راحة قلوب المؤمنين باندحار الكفر وأهله.

– ونتيجة لذلك فإن ابتلاء التمكين يأتى بهدف أساسى، وهو إعداد الجند لإحداث نقله هائلة للأمة، نقل الأمة من حالة ضعف وذلة، إلى حالة قوة وسيادة، ومن مرحلة جبن وسكون إلى شجاعة وإقدام، ومن حالة تراجع وتخلف إلى مرحلة تقدم وريادة.

وبالتالى كنتيجة لهذا التحول الكبير وما يتبعه من تغيرات كبيره للأمة، كان لابد من عملية إعداد المؤمنين لتحمل مشاق التمكين لدين الله فى الأرض، فهى مرحلة تربية وصقل، وإعداد وجهاد، وبذل وتضحية بما تتضمنه من تعب وألم ومشقه وجهد، وجهاد بالنفس والمال، والنجاح فيها لا يكون إلا بالصبر والاستعانة بالله، الذى تدرب عليه المؤمن سابقاً.

ولتوضيح معنى إعداد وتدريب المؤمنين سأطرح السؤال الآتى:

هل يتساوى فى القدرات جندى الحراسة مع جندى القوات الخاصة؟

الإجابة بالطبع لا.

فجندى الحراسة يتلقى تدريبات، تؤهله للمهمة التى سيقوم بها، وكذلك جندى القوات الخاصة يتلقى تدريبات، وإعداد نفسى وعقلى يتناسب مع طبيعة المهمة الموكلة له.

وبالرغم من تدريب كلا الجنديين إلا أن تدريب جندى القوات الخاصة أشد وأصعب وتكون فترة إعداده أطول زمناً وأكبر تكلفة، فسوف يُسند له مهام ذات

مستوى عالٍ وفي غاية الصعوبة، فلا بد أن يكون على مستوى من الإعداد البدني والنفسي والعقلي يتناسب مع طبيعة ما ينتظره من مهام مستقبلاً.

ومثال آخر: إنك إن أردت بناء مبنى ضخم في منتهى الارتفاع، فإنك من أجل ذلك لا بد أولاً أن تعمق الحفر، وتحفر إلى أقصى ما تستطيع حتى تضمن أن يستقر البناء الذي تُنفذه.

كذلك والله المثل الأعلى، الله يريد التمكين لدينه في الأرض، والتمكين أن يحكم دين الله في الأرض وتكون له السيادة وذلك في وسط يتربص فيه الأعداء بالمؤمنين من كل جانب.

لذلك في مرحلة ابتلاء التمكين كان لا بد من تكرار الابتلاءات وخاصة الشاقة منها لإعداد المؤمنين لتحمل تبعات ما بعد هذه المرحلة.

واعلم أن الألم والمعاناة والزلزلة الشديدة سنة من سنن الله تصاحب المؤمنين في فترات الإعداد للتمكين بشكل مختلف عن فترات الابتلاء الأخرى، واقرأ معي قول الله تعالى واصفاً حال المؤمنين في غزوة الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ (الأحزاب: ١٠-١١)

ولما سأل هرقل أبا سفيان عن رسول الله ﷺ: هل قاتلتموه؟ قال: نعم.

قال: فكيف كان الحرب بينكم؟

قال: سجالاً يدال علينا ونдал عليه.

قال: فكذلك الرسل تبتلّى ثم تكون لهم العاقبة^(١).

• وقد يتساءل الإنسان:

– ولماذا كل هذا الألم والمعاناة والجهد وما يصاحبها من قتل وتشريد للمؤمنين قبل التمكين؟!

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الجهاد والسير

– هل الله يعاقب عباده قبل أن يهب لهم نعمة الأمن والأمان فى ظل تمكين دينه فى الأرض؟!

– هل الله غير قادر- حاشا لله على تمكين دينه فى الأرض بدون ألم ومعاناة وشدة على المؤمنين؟!

– ما الحكمة فى ذلك؟!

• إن المؤمن يعلم أن الحوادث لا تحدث مصادفةً، يعلم أن الله جعل لكل شئ يحدث، تدبير وقدر وحكمة، حتى الورقة التى تسقط من شجرة فى أعماق غابة مظلمة، تسقط بقدر وحكمة، يعلمها الله ولا نعلم عنها شيئاً، ونزول البلاء يعنى أن هناك سبب، وبالبحث عن هذا السبب يهتدى المؤمن إلى رسالة رب العالمين إليه. – قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ (محمد-٤)، نعم لو أراد الله لانتصر من الكافرين ومن الظالمين فى أقل من طرفة عين، بل ولضرب عليهم الذلة إلى يوم القيامة، ولما إحتاج أن يوقع المؤمنين فى الابتلاء والألم والزلزلة، ولكن ذلك لا يحقق الغاية من اختبار المؤمنين وتمييزهم، ومدى التزامهم بإتباع أوامر الله حتى يستحقوا تمكين رب العالمين لهم.

يقول صاحب الظلال رحمه الله: (وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقى لتحمل الأمانة، فهى فى حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقى على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقى على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية فى نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد، فتنفى عنها الخبث وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً وأقواها طبيعة، وأشدّها اتصالاً بالله، وثقة فيما عنده من الحسنين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يسلمون الراية فى النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار)^(١).

(١) فى ظلال القرآن، سورة العنكبوت

- أخى الحبيب، الألم والمعاناة والشدة التى تصيب المؤمنين ما هى إلا صيحة إنذار للمؤمنين أن يصطفوا صفاً واحداً من أجل هدف عظيم وعد الله به المؤمنين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور - ٥٥).

هو صيحة إنذار للمؤمنين أن الظلم قد زاد وكثر، وأن الفساد قد ساد وانتشر، وعلى المؤمنين أن ينقذوا أمتهم قبل فوات الأوان.

هو صيحة إنذار لإيقاظ كل مؤمن، أن اترك ما فى يدك، اترك ما يشغلك، اترك الدنيا وانتبه، دينك يهان، وأمتك تباد.

- يزداد الألم أن سدودا وقاربوا، أن استعينوا بالله واصبروا، أن اعتصموا بالله جميعاً ولا تتفرقوا.

- يزداد الألم أن استعدوا، يزداد الألم أن قد حان أوان التغيير، لا تتكاسل، لا تتهاون، لا تضعف، ولا تستكين.

- يزداد الألم وكأن المنادى ينادى وإسلاماه.

وكلما اشتد الألم والمعاناة كلما انصقلت شخصية المؤمن أكثر، ويكون أكثر استعداداً لحمل الأمانة التى كلفه الله إياها، مستحقاً أن ينال النصر من رب العالمين، ومستحقاً أن ينال التمكين فى الأرض.

ولا بد أن تكون أخى الفاضل على بينة من ثلاثة نقاط:

أولاً: أن الابتلاء قبل التمكين هو درس عظيم للمؤمنين أن الحول والقوة بيد الله وليس فقط فى عدد أو عده، وأنك إذا أردت المعونة من هذه القوة فيجب عليك كمؤمن أن تجعل من حياتك وسيلة لتحقيق مراد الله فى أرضه، مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه. فى أى تخطيط استراتيجى يضع القائد الخبير دائماً خطة للخروج من المأزق، الذى قد يقع فيه جنوده، فهو لن يتركهم فريسة لعدوهم، فيستأصلهم أو يكسر شوكتهم فلا تقم لهم قائمة، والله المثل الأعلى فإن الله فى ابتلاء التمكين يُعرض المؤمنين لكل

هذا الألم والمعاناة حتى تُبنى شخصيتهم الإيمانية بناءً كاملاً، حتى إذا زلزلوا، وضاقَت عليهم الأرض بما رحبت، وأغلقت كل سُبُل النجاة التي يعرفونها، بعد إستنفاد كل السبل المتاحة لتحقيق النصر، يأتي أمر الله بالنجاة والنصر من عنده، ومن حيث لا يحتسب المؤمنين، حتى يعلم كل مؤمن أن هذا النصر لا يكون إلا من عند الله، وأنه لم يحصل عليه إلا بعد أن بذل وضحي، وأثبت جدارة أنه يستحق هذا النصر وهذا الانبعاث الجديد، ليبدأ دورة جديدة في حياة الأمة لتقوم من كبوتها.

ثانياً: أن الابتلاء قبل التمكين هو بُشرى للمؤمنين، على ما فيه من ألم، فهو إشارة إلى أن إيمانهم ودعوتهم إلى الله قد بلغت مبلغاً عظيماً، أقض مضاجع الكفر، فجعلها تخرج عن بكرة أبيها تدافع عن نفسها، فهو إشارة للمؤمنين على أنهم على الطريق الصحيح، وأنهم قد اجتازوا شوطاً طويلاً في طريق نشر منهج الله، ولم يتبق إلا الشوط الأخير، أو النفس الأخير الذي سيلفظه الظالمين، بعدها سيكون التمكين للمؤمنين، فقد آمنوا، وعملوا، وأعدوا، وابتلوا، وصبروا واحتسبوا كل ذلك لله، وهو ما رأيناه بعد غزوة الخندق (كمثال).

ثالثاً: أن الابتلاء قبل التمكين، سينتهي عندما تتحقق الأهداف والحكم والغايات منه، وعندما يستوعب المؤمنون الدرس جيداً، وعندما تنتهي فترة تدريبهم واعدادهم تدريباً كاملاً، لأن الله لا يعجل بعجلة أحد، بل هو غالب على أمره، يعلم ولا نعلم، له الحكم وله الحكمة.

و حتى تتحقق الحكمة والغاية من الابتلاء، لابد أن تتنوع أساليبه، وتتعدد مظاهره، حتى تكتمل شخصية المؤمن بجميع جوانبها، وحتى يتم غريزة وتصفية الصف المؤمن من كل فرد ضعيف الإيمان أو في قلبه مرض، فلا يتبقى إلا الفئة القليلة المؤمنة حق الإيمان، الذين وهبوا أنفسهم وأموالهم لله رب العالمين، وعندها يُمكن الله لهم في الأرض، وتكون لهم السيادة الكاملة.

(يُمكن الله عز وجل للمؤمنين في الأرض بعد أن يثبتوا جدارتهم واستحقاقهم للنصر بلجوتهم إليه وحده في وقت المحنة، وتجردهم له وتطلعهم إليه في زمن

الشدة، مستيقنين من نزول النصر بعد الأخذ بكافة الأسباب المأمور بها شرعاً من صبر وتقوى وإعداد^(١).

ومن الأمثلة على هذه النقطة، ما حدث ليوسف عليه السلام، فبعد أن أُبتلى ابتلاءات شديده واكتملت جوانب شخصيته وأصبحت ثابتة مطمئنة واثقة، أخرج الله من السجن، (ومنذ هذه اللحظة تتفرد شخصية يوسف على مسرح الأحداث، وتتوارى تماماً شخصيات الملك والنسوة والبيئة، ويمهد السياق القرآني لهذا التحول في القصة وفي الواقع بقوله ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٦)، ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألواناً أخرى من الابتلاءات، تختلف في طبيعتها عن الألوان الأولى، وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعي، وبذلك الطمأنينة الساكنة الواثقة^(٢).

— ومن خطورة مرحلة ابتلاء التمكين أنه نتيجة لشدة وطأتها فإن كثير من الناس يُفتنون من رؤية تسلط الظالمين على المؤمنين، ويقول قائلهم: إن كان هؤلاء مؤمنون حقاً، فلماذا لا يستجيب الله دعائهم؟! لماذا سلط الله عليهم الظالمين إن كانوا مؤمنين؟! أين تمكين الله الذي وعدهم إياه؟!

عن قتادة أن ناساً من المنافقين قالوا في غزوة الأحزاب: قد كان محمد يَعدُّنا فتح فارس والروم، وقد حُصرنا ههنا، حتى ما يستطيع أحدنا أن يبرز لحاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً^(٣).

قال تعالى على لسان المؤمنين المضهدين من قوم فرعون: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (يونس- ٨٥)، يقول: (لا تظفرهم بنا، وتسلطهم علينا، فيظنوا أنهم

(١) منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة، محمد امحزون

(٢) الظلال سورة يوسف

(٣) تفسير سورة الأحزاب آية ١٢ الطبري

إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك^(١).

• إن ابتلاء التمكين، ابتلاء عام يصيب الأمة كلها، وفيه ينقسم الناس إلى ثلاثة أصناف:

- الصنف الأول: وهو صنف جباناً بطبعه، ضعيف النفس لا يقدر ولا يصبر على مواجهة الابتلاءات المختلفة سواء ضعفت أم قويت، هو صنف المنافقين مدعى الإيمان، لا ينصرون دين الله، ولا ينصرون أوليائه، وحين نزول ابتلاء التمكين ويتسلط الظالمين على المؤمنين، تجدهم إرتدوا على أعقابهم ويسارعون في موالة الظالمين، ظناً منهم أن في ذلك حماية لهم وأماناً من الوقوع في الألم والمعاناة، وظناً منهم أن هذا الابتلاء الشديد هو نهاية الصراع بين الحق والباطل، وظناً أن قوة الباطل ستجعله ينتصر على الحق وأهله.

قال تعالى عنهم: ﴿وَإِنْ تُصِيبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَتَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (التوبة: ٥٠).

أي أنهم يفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة، ويقولوا قد احتطنا، وأخذنا حذرنا ألا نصاب مع المؤمنين بشر أو معاناة.

ويخبر الله تعالى عنهم في سورة الأحزاب، بصورة أشد وضوحاً فيقول: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ (الأحزاب: ١٤)، فيقول أنهم إن أحاط بهم جيش من جميع النواحي فلم يبق لهم مهرب ولا مفر، ثم طلب منهم أن يعلنوا كفرهم بالله ويرتدوا عن الإسلام، للجأوا إلى الفتنة فكفروا بالدين، ولم يثبتوا على إسلامهم طلباً للسلامة والأمن، ولأعطوا الكافرين ما يبتغون منهم من كفر^(٢).

قال بعض السلف: من أثر عاجل الخسيس، فقد ضيع آجل النفيس.

(١) تفسير ابن كثير سورة يونس

(٢) انظر ظاهرة النفاق، د. عبد الرحمن الميداني (١ / ٣٨٨)

- والصنف الثاني: وهم الغالبية، وهم الصنف المشاهد للأحداث ولا يحرك ساكناً فهو لا يؤيد حق ولا يقف مع باطل، يبتغى من ذلك السلامة.

وقد قال رسول الله ﷺ: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلى، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده، فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه، فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه، فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)^(١).

(إن القلب إذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله، لم يكن فيه من الإيمان الذى يستحق به الثواب، وقوله (من الإيمان) أى من هذا الإيمان وهو الإيمان المطلق، أى ليس وراء هذه الثلاث، جهاد باليد أو اللسان أو القلب، ما هو من الإيمان ولا قدر حبة خردل، والمعنى: هذا آخر حدود الإيمان، ما بقى بعد هذا من الإيمان شئ)^(٢). وقال رسول الله ﷺ أيضاً: (والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم)^(٣).

وأيضاً سيقع على هؤلاء، ما يقع على الآخرين من الابتلاء، لأنه ابتلاء عاماً، ولأنهم لم ينصروا دين الله كما ينبغى أن يفعلوا (راجع ابتلاء الدعوة). إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة.

- والصنف الثالث: المؤمنون حقاً، الذين ضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وفى سبيل نصرته دينه، هؤلاء من يقع عليهم النصيب الأكبر من الألم والمعاناة

(١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

(٢) كتاب الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣) أخرجه الترمذى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع، رقم: (٢٣٩٩).

والجهد، هؤلاء من باع كل شئ لله، وترك الدنيا خلف ظهره، مُحققاً صفة الاتباع لشريعة الرب، صابراً، محتسباً، ثابتاً: ﴿وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٦٧﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ ثَوَابٌ لَدُنْكَ وَحَسَنَ ثَوَابٍ الْآخِرَةُ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ (آل عمران: ١٤٦ - ١٤٨).

- هؤلاء وإن نظر إليهم أهل الدنيا أنهم قد خسروا أنفسهم وأموالهم، إن نظروا إليهم على أنهم مستضعفين أذلاء، فإن هؤلاء هم جند الله، يصطفي منهم شهداء، ويصنعهم الله على عينه، ويعددهم لتحمل الأمانة، وجزاؤهم: ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ (فاطر: ٣٣ - ٣٥).

- إن نظر الناس إلى الابتلاء يختلف حسب إيمان كل فرد، وأخبر الله لنا مثال على ذلك في كتابه الكريم، في مشهد واحد و موقف واحد، تعرض له المؤمنين والمنافقين قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ (الأحزاب: ١٠ - ١١).

لنرى رد فعل المؤمنين ورد فعل المنافقين:

- قال تعالى عن المؤمنين:-

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ (الأحزاب: ٢٢)، فالمؤمن يعلم أنه سيبتلى وأن جيوش الكفر ستترصد به وستحاول القضاء عليه، هو على يقين من ذلك، ولذلك فهو لا يستعجب الهجوم عليه ولا يخاف ولا يضعف بل يُسلم أمره إلى الله، ويرضى بقضائه.

- بينما قال عن المنافقين:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ

مِنْهُمْ يَتَأْهَلْ يَتَرَبَّ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ
إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ (الأحزاب: ١٢ - ١٣).

هذا هو حال المنافقين، الذعر، والفرع والجبن: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾ (المنافقون: ٤)، أى: كلما وقع أمر، أو كائنة، أو خوف يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿أَشْحَاةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوا﴾ (الأحزاب: ١٩)، فهم جهامات وصور بلا معانى^(١).

— اعلم أن الابتلاء الشديد الذى يُصيب المؤمنين فى مرحلة ابتلاء التمكين ليس هو نهاية الصراع بين الحق والباطل، بين الخير والشر، كلا بل هى جولة قد يكون فيها جانب الشر هو الأشد قوة والأكبر طغياناً وغلظة، وهى فى جميع الأحوال مرحلة عابرة فى عمر الأمة ستنتهى طالوت أم قصرت حين يأذن الله بذلك.

صورة من صور ابتلاء التمكين

ما وقع لرسول الله وصحابته الكرام فى غزوة الخندق وسوف أعرضها بشئ من التفصيل بعد قليل عند دراسة بعضاً من الابتلاءات الشديدة التى تصيب المؤمنين.

فاصبر إن العاقبة للمتقين

نعم مهما كانت شدة الابتلاء ومهما إشتدت المعاناة ومهما طال وقت الألم فإن رحمة الله قريب من المحسنين، ونصر الله لا محالة سيكون للمؤمنين، ولكن لابد من الصبر والاحتساب وانتظار الفرج من عند رب العالمين، هذا وعد الله، والله لا يخلف وعده أبداً ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٦).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير سورة المنافقون

أخى الكريم، من ظن أن الباطل قد ينتصر، وأن السيادة ستكون له فقد أساء الظن بالله، ولم يفهم سنة الله في خلقه.

سيأتي نصر الله بتحقيق أربعة شروط: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨)

استعانت كاملة بالله دون غيره من البشر، مع الأخذ بكامل الأسباب.

صبر على البلاء والمعاناة رضاء بقضاء الله، ورغبة في مرضاة الله.

يقين بموعد الله أن النصر للمؤمنين، والأرض لله يورثها لمن يشاء من عباده، وأنه لا يجرى في ملك الله شئ إلا بقضائه وقدره وحكمته.

تقوى: تقى المؤمنين من الوقوع في معصية الله، وتهديه إلى الطريق المستقيم.

وسيأتي التمكين بأن يتبع المؤمنون منهج رب العالمين كاملاً دون نقصان

أو تحريف، فيمكن الله تعالى للدين بهم في الأرض: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي

ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (النور: ٥٥)، (إن وعد

الاستخلاف للمؤمنين الذي تضمنه هذا النص، مشروط بأهلية قسم كاف منهم

عقيدة وعملاً لهذا الاستخلاف، وحين يسلبهم الله السلطان والتمكين، ثم يؤخر الله

عنهم عودة استخلافهم، فليعلموا أن الله عليم حكيم، وانهم ما زالوا غير مؤهلين

للاستخلاف حتى يحقق الله لهم وعده^(١).

– أخى الكريم، إصبر نفسك وكن على يقين من موعد الله، فكل ما وقع من

إبتلاء، وكل ما سيقع مستقبلاً، هو بإرادة الله، وسنة من سننه، ولن تجد لسنة

الله تبديلاً في إعداد المؤمنين لحمل الأمانة، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم

لا يكونوا أمثالكم، قال تعالى:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ

(١) بصائر للمسلم المعاصر، د. عبد الرحمن الميداني

أَبْتِغَاءَ حَلِيٍّ أَوْ مَتَعٍ زَيْدٌ مِثْلُهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿الرعد - ١٧﴾.

نعم فمهما علا الباطل وانتفش، إلا أنه سيظل باطل لا قيمة له، وسيأتى لا محالة اليوم الذى يضيع فيه هذا الباطل فيصبح هباءً لا قيمة له مثل زبد الماء الذى يعلوه، فهو يبدو للعيان كأنه كل شىء طافياً فوق الماء، إلا أن هذا الزبد يذهب بلا قيمة، ويبقى الأصل الثابت الذى كان محجوباً به، يبقى الماء الذى ينفع الناس بعد زهاب الزبد، كذلك يبقى الحق ويظهر بعد زهاب الباطل الذى لا قيمة له، فإن أنت تعلقت بهذا الباطل ظناً أن فيه المنفعة فأنت واهم وما فى يدك هو لا شىء لأنه سيزول لا محالة

– باستطاعة المؤمن الفطن أن يميز بين أنواع الابتلاءات التى تصيبه وأسبابها والحكمة منها، والمسلم الملتزم بشرع الله، المراقب له سبحانه وتعالى فى سره وعلايته يعلم من أين يؤتى.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: ٧٩)، إن (كل سيئة تُصيبك فهي بسبب أو مقتضى أو داع من نفسك، والنفس هى الكاسبة، فإذا كانت السيئة للامتحان والابتلاء، فاختبار نفسه هو الداعى، وإذا كانت للتربية والتأديب، فهما المقتضى، وإذا كانت للجزاء، فنفسه الكاسبة هى السبب.

فكون ما أصاب الإنسان من سيئة هو من نفسه، ينبغى أن يفهم على هذا، فالإسناد ملاحظ فيه هذه العلاقة، فعلمنا الله عز وجل بهذا أن الحدث يُنسب إلى فاعله وموجده، ويُنسب إلى مُسببه، ويُنسب إلى من كان لمصلحته، أو من أجله، أو لأمر يتعلق به، وإدراك هذا النسب فى النصوص بحسب العلاقات يحتاج إلى فقه، وهو الفهم العميق الذى لا يقتصر على السطوح، بل يكون فيه تعمق وتدبر^(١). ومن كرم رب العالمين ورحمته أن بعث رسول الله ﷺ الذى هو بالمؤمنين

(١) ظاهرة النفاق، د. عبد الرحمن الميدانى (١ / ٥٥٣)

رعوف رحيم بلغ الأمانه ونصح للأمة ولم يترك شئ إلا وبينه و أرشدنا إلى الصراط المستقيم و حذرنا مراراً و تكراراً حتى لا نقع فى فتنه أو نتعثر فى اختبار الابتلاء.

المؤمن كالنخلة

عن ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: أخبروني عن شجرة مثلها مثل المؤمن؟ وفى رواية (مثل المؤمن كشجرة لا يتحات ورقها) فجعل القوم يذكرون الشجر من شجر البوادي، قال ابن عمر (رضى الله عنهما): وألقى فى روعى أنها النخلة، فجعلت أريد أن أقولها فإذا بأسنان القوم (أى كبارهم وشيوخهم) فأهاب أن أتكلم، فلما سكتوا، قال رسول الله ﷺ (هى النخلة).

ولكن ما الحكمة فى تشبيه رسول الله ﷺ المؤمن بالنخلة؟

بالإضافة إلى أن النخلة رمز للعطاء والشموخ، فإن النخلة أصلها ثابت فى الأرض، وفرعها فى السماء، لها قدرة كبيرة على تحمل الجفاف، وتقلبات الطقس، ومواجهة الظروف البيئية الصعبة، ولا تعصف بها الرياح بسهولة فهى لا تتأثر كثيراً بالرياح بسبب مرونة جذعها وقوة إرتباط جذورها الكثيفة بالتربة، فعندما تهب الرياح القوية على أشجار النخيل ينكمش سعف النخيل بزوايا قريبة من ٩٠ درجة وتتجه مع مسار الرياح وذلك لتجنب الضرر، ولكن مع شدة النخيل وبأسه، إلا أن الرياح الشديدة قد تقتلعه من مكانه، ولكن لا تكسره إلا إذا كان مريض بالتسوس.

إن النخل نافع، فى ثمره وساقه وجريده وأوراقه، حتى النوى، وكذلك المؤمن، نافع فى كل أحواله، فى نفسه وفى تعاملاته وفى بيته وفى بلدته وفى دينه، وفى نفس الوقت فهو صلب وثابت أمام الابتلاءات والشدائد، لا يلين ولا يستكين، وتمر عليه الأحداث الصعاب والابتلاءات الشديدة وهو راسخ، صابر، مطمئن، ولا يسقط إلا من كان ضعيف النفس، ضعيف الإيمان.

• وبعد هذه الأمثلة التوضيحية لبعض حكم الابتلاءات، والدروس التعليمية منها، وبعد ارتقاء المؤمن فى المستويات الإيمانية وتجاوزه العقبات والابتلاءات التى تعرض لها بنجاح، ويتوج إيمان المؤمن بنجاحه فى ابتلاء التمكين، الآن يمكننا القول أن المؤمن قد نجح فى اجتياز الدورة التدريبية الأخيرة والتى تؤهله لتسلم راية الريادة والمسئولية عن ترسيخ دين الله فى الأرض وفى نفوس الناس.

ولا تظن أن الابتلاءات قد تنتهى عند هذا الحد، كلا، لا تنتهى الابتلاءات والفتن طالما فيك نفس يتردد، ولكن ما سيأتى من إبتلاءات (بعد ابتلاء التمكين)، هو إمتداد لما سبق ونجحت فيه، فهى مرحلة جديدة بقواعد جديدة يضعها المؤمن، فإن إتبع المؤمن منهج رب العالمين الذى إرضاه لهم، إستمر مُلكهم، وإستمرت قوتهم وغلبتهم على عدوهم، نعم ستكون إبتلاءات أخرى، تتطلب حكمة وعلم لم يكن للمؤمنين الحصول عليهما بدون أن يمروا بكل الابتلاءات السابقة.

ما سيأتى بعد ذلك هو جزء أساسى من ابتلاء النعمة، فبعد الألم والمعاناة، بعد الخوف والجوع، بعد الصبر والمصابرة، تأتى الراحة والنعمة، يأتى الأمن والرخاء، فمن أخذ ذلك بحقه ولم ينس شروط إستمرار التمكين، بارك الله له، وعاش حميداً، قوياً عزيزاً، ولذلك يجب على المؤمن الحذر من خطوات الشيطان حتى لا يسقطوا فى اختبار النعمة وبالتالى يكونوا عرضة لأن تُعاد دورة الابتلاء من جديد، حتى يُعاد ترسيخ الإيمان ثانية فى نفوسهم.

بين الابتلاء والدرجة فى الجنة

تحدد درجتك فى الجنة على حسب درجتك الإيمانية، فالإيمان درجات يرتقى فيها المؤمن كلما زاد يقينه بالله وأخلص العمل إليه، وعلى مقدار إيمان المؤمن ينزل به الإبتلاء، وبالتالي كلما زادت درجتك الإيمانية، كلما زاد نوع وشدة الابتلاء عليك بما يتناسب مع ذلك، ليرى الله هل أنت صادق حقاً فى إيمانك الذى تدعيه، وثابت عليه مهما كلف الأمر من تضحيات، أم أنت ضعيف وستراجع سريعاً إلى الدرجة الأقل التى كنت عليها، أم ستراجع أكثر وأكثر تنازلاً فى إيمانك خوفاً من الابتلاء.

وبالتالى إن أردت درجة عالية فى الجنة لابد أن تعود نفسك على الصبر والتضحية فى سبيل الله، أما الصبر فذلك حتى تستطيع الصمود امام الابتلاء إلى أن يأتى الفرج من الله، وأما التضحية فلأنك ستعانى آلام كثيرة وشديدة فى سبيل الدرجة التى تعود الحصول عليها، وتمثل تضحياتك ثمن هذه الدرجة (بالطبع كل ذلك بفضل الله ومعونته)، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْنِلُونَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْنِلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١١١)، فالأموال والأنفس تمثل التضحية التى يقدمها المؤمنون فى سبيل نيل درجة الشهداء عند الله، وهى تضحية مهما كانت كبيرة إلا أنها ثمن بسيط مقارنة بالخلود فى رضوان الله وفى الدرجات العالية.

- ولكن يبقى شيء قد يتردد فى الأنفس! وهو الخشية من الابتلاء وعدم القدرة على الصبر عليه؟ أليس من الأفضل لو أن يعيش المرء بدون ابتلاءات ومعاناة؟!
- سأضرب لك مثال يبين لك ما الذى ستخسره بعدم صبرك على الابتلاء وخشيتك منه:

– اشترى مليونير مركز تسوق (سوبرماركت) عملاق من ثلاث طوابق، يحتوى على مائة قسم والتى تمثل أماكن التسوق والرفاهية.

ثم جاء هذا المليونير بخمسة شباب وأخبر كل واحد منهم أنه على استعداد أن يُعطيهم ما يشاءون من أقسام فى مركز التسوق مجاناً، وأنه سيقف بجانبهم ويساعدهم ليحققوا الربح والنجاح.

جاء الشاب الأول: فرفض العرض وذهب بدون أن يأخذ شىء.
وجاء الشاب الثانى: فقال أنا لا أريد تحمل المسؤولية عن أى قسم، ولكنى أريد العمل فى المكان حتى ولو كعامل نظافة.

وجاء الشاب الثالث: فطلب قسم واحد فقط فى جانب من مركز التسوق.
وجاء الرابع: فطلب القسم المركزى الكبير فى الطابق الأول من مركز التسوق.
وجاء الشاب الأخير: وأخبر هذا المليونير أنه يريد أن يأخذ باقى الأقسام فى مركز التسوق كاملة.

وحقق هذا المليونير لكل شاب ما يتمناه، وأعطاهم ما أرادوا.
وبعد مرور ثلاث سنوات، اتصل بهم هذا المليونير وأخبرهم أنه يريد لقائهم، وفى لقائه معهم أراد أن يعرف ماذا حقق كل منهم من نجاح.
فقال الأول، إنى أبحث عن عمل.

وقال الثانى: أنا أعمل فى نظافة المكان وأكسب ألفين من الجنيهات شهرياً.
وقال الثالث: لقد نجحت نجاح عظيماً فأنا أكسب مائة ألفاً فى العام.
أما الرابع فقال: أما أنا فأكسب مائتى ألف فى العام.
بينما قال الخامس بكل فخر: أما أنا فأصبحت مليونيراً منذ فترة طويلة، بل وقد اشتريت مركز تسوق آخر، وعندى أكثر من ثلاث مائة عامل يعملون معى.
فنظر إليه باقى الشباب نظرة تعجب وحسد مع بعض الحسرة.

وقال الشاب الثالث: نعم لقد اكتسبت كل هذه الأموال لأنك أخذت النصيب الأكبر من الأقسام فى مركز التسوق.

وصدّق باقى الشاب على هذا القول وقالوا نفس الكلام.
فقال الرجل المليونير، ألم أخبركم إبتداً أننى سأعطيكم ما تشاءون وسأكون معكم

حتى تحققوا النجاح، إن ما حققه كل واحد منكم هو ما إختاره لنفسه، فلا يوجد داعى للشكوى والانزعاج أن حقق هو هذا النجاح الباهر ولم تحققوه أنتم.

المقصد من القصة: أنك فى هذه الحياة الدنيا تحدد المكانة التى ستكون فيها عند رب العالمين يوم القيامة، فى سلم تصاعدى من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، ويوم القيامة عندما يأخذ كل مؤمن درجته، فستتمنى لو أنك كنت نشرت بالمناسر فى الدنيا حتى تأخذ من الدرجات العلا، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقاريض)^(١)، ولكننا الآن نفتقد اليقين بالله وبثوابه، وبالتالى عجزت أنفسنا أن نصبر ولو قليلاً فى سبيل الله على الابتلاء، وعجزت أن نتقدم خطوة واحدة فى الطريق إلى الله، وبالتالى ابحت عن يقينك فى الله فى نفسك قبل أن تقول أنك تخشى الابتلاء.

(١) حديث حسن رواه الترمذى برقم ٢٤٠٢، وهو فى السلسلة الصحيحة برقم ٢٢٠٦

الفصل الرابع

دراسة لبعض صور الابتلاءات الشديدة للمؤمنين

- ابتلاء نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام.
 - ابتلاء رسول الله موسى عليه السلام.
 - ابتلاء الصحابة في غزوة الخندق (صورة من صور ابتلاء التمكين).
 - ابتلاء أصحاب الأخدود.
- ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١).

obeikandi.com

أولاً: الابتلاء في قصة يوسف عليه السلام

المضمون الأساسي الذي أرجوا أن أستطيع توصيله إليك أخى الكريم من قصة يوسف عليه السلام أن الله لا يخلف وعده، وأن الله غالب على أمره، مهما كانت الظروف صعبة، مهما كانت الأحوال تسير في عكس الاتجاه المرجوا منها، وبعيدة كل البعد (من وجهة نظرك أنت) عن الطريق والوعد الذي اقتطعة الله على نفسه، بنصر عبادة المؤمنين، والتمكين لهم في الأرض.

إن الله سيُتم وعده لعباده المؤمنين لا محاله، ولكن بالكيفية التي يراها هو، وفي الوقت الذي يريده هو، وما على المؤمنين إلا الصبر، واليقين كما فعل نبي الله يعقوب عليه السلام عندما قال لأبناءه ﴿وَأَعْلَمُ مِنْكَ أَنَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٦)، لماذا؟ لأن المؤمنين على يقين: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٠).

• تبدأ القصة برؤية (وعد بالاصطفاء) حيث يقول يوسف عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤).
فيخبره والده نبي الله يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (يوسف: ٦).

وبالتالي ومن الطبيعي أن يكون يوسف عليه السلام وكان صغير السن، في شوق وشغف، منتظراً تحقيق الوعد والرؤيا كما أخبره والده.

ولكن، تأتي الأحداث بسيناريو وطريقة على غير ما هو متوقع تماماً، وتأتي الابتلاءات تباعاً، فإخوة يوسف يحسدونه على مكانته في قلب أبيه، فيدبرون له مكيدة ويلقوه في غياهب بئر، ويتركونه وحيداً بعد أن كان في عزة ومنعة وهو حر وفي وسط إخوته وعائلته، ثم يؤخذ من قبل عابري سبيل، ويباع كعبد إلى أناس آخرين في بلد غير بلده.

ما هو موقف يوسف عليه السلام في هذه اللحظة؟!

ما هو شعوره و يقينه بتأويل رؤياه؟!

لقد ابتعد يوسف عليه السلام كثيراً عن تحقيق رؤياه!!! لقد كان اختباراً صعباً في التصديق واليقين.

ثم يترعرع يوسف في قصر الملك و يبلغ أشده و يأتى اختبار من نوع جديد، اختبار أشد وأصعب، امرأة الملك تراوده عن نفسها!

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في ذلك:

(كان صبر يوسف على مُطاوعة امرأة العزيز على شأنها، أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الحب، وبيعته وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه الأمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيه حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية، فصبر اختيار ورضى، ومحاربة للنفس، لا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة:

فإنه كان شاباً، وداعية الشباب إليها قوية.

وعزباً ليس له ما يعوضه ويرد شهوته.

وغريباً، والغريب لا يستحى في بلد غربته مما يستحى منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله.

ومملوكاً، والمملوك أيضاً ليس وازعه كوازع الحر.

والمرأة جميلة، وذات منصب، وهى سيدته، وقد غاب الرقيب، وهى الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها، صبر إختياراً، وإيثاراً لما عند الله) ^(١).

نعم، استعان يوسف بالله وتوكل عليه وهرب منها، ولكن يشاء قدر رب العالمين أن يرى الملك الواقعة، وبعد أن تبين له أن يوسف برىء، وعلى عكس المتوقع!!!

يأمر بسجن يوسف عليه السلام !!!

إن كنت مُراقباً للأحداث ساعة وقوعها لقلت :

لقد ابتعد يوسف عليه السلام كل البعد عن تحقيق الرؤيا التى رآها، والوعد الذى سمعه من والده، وهذا صحيح فى عُرف البشر ذوى النظرة القاصرة للأمور، بينما فى علم الله المحيط هناك شأن آخر.

تخيل نفسك فى هذا الموقف وأنت لديك وعد من الله بالاصطفاء والسيادة (كما هو الحال مع المؤمنين الصادقين)، كيف سيكون شعورك ويقينك وأنت ترى الإضطهاد والقتل والتشريد للمؤمنين، ويقول أقوام: أين نصر الله المزعوم لعباده المؤمنين؟!

لنتخيل شخص آخر فى مكان يوسف عليه السلام، ماذا سيكون رد فعله على هذه الابتلاءات؟

هل سيقول لقد كُذِّبت؟

هل سيقول أين تأويل هذه الرؤيا؟ لقد خدعنى أبى!

أين الله؟ وكيف يتركنى بكل هذه المعاناة والآلام؟ وأنا مؤمن به ولم أعصه أبداً؟

أسئله قد تدور فى مخيلة أى شخص آخر فى مكان يوسف عليه السلام، إلا أن الله

يثبت أن يوسف عليه السلام كان من المؤمنين الصابرين المخلصين المحسنين.

إن الله له تدبير آخر بعلم وحكمة غير تدابير البشر، ففى الوقت الذى قد

يظن شخص ما أن يوسف قد بيع، وصار عبداً ضعيفاً لا حول له ولا قوة، إلا أن الله

يبشر المؤمنين ببشاره عكس هذا الظن، فيقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ

فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿يوسف: ٢١﴾

نعم إن الله غالب على أمره، وما كان بيع يوسف وتركه عائلته ووطنه، إلا وسيلة

لغرس جذوره فى مصر، فتكون بلد التمكين له.

• يوسف عليه السلام الآن فى السجن، بكل ما يتضمنه السجن من آلام نفسية وجسدية،

ويأتى إليه ابتلاء آخر وهو فى سجنه.

دخل معه السجن فتيان وطلبا منه تأويل رؤيا!!!

ياللعجب! هل تدرك مدى صعوبة هذا الاختبار؟!

لقد رأى رؤية منذ سنين طويلة، وأولها له والده (النبي) على أن الله سيجتبيه ويرفع شأنه، وها هو الآن في السجن، معزول عن الناس والبشر.

ولكن أثبت يوسف عليه السلام أن اليقين بالله فوق كل شيء، وأن العلم بالله أساس كل شيء، وبه تهون كل صعوبة، وتطمئن نفس المؤمن أن الله لن يضيعه أبداً. يؤول يوسف عليه السلام الرؤيا، ولكنه قبل ذلك يقوم بواجبه الأول، الدعوة إلى الله والتعريف به، فهو معزول عن الناس في السجن، ولكن تضعه الأقدار مع فتیان في نفس المكان، لينتهاز الفرصة ولا يضيعها، وليُخبرهم من هو الله، عسى أن يكون هداهم على يديه فهذا هو واجبه الأول حتى وإن كان سجيناً ظلاماً.

وهذا هو حال المؤمنين في كل زمان ومكان صابرين، محتسبين، يرجوا الثواب من ربه ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٦).

إن المؤمن ثابت على دينه، ثابت على عقيدته، صابر على ما يلقاه من ابتلاءات، وتراه في شدته ومعاناته مبتسماً منشرحاً وكأنه مُنعم في أهله وماله، حتى يأتي الفرج والنصر من عند رب العالمين.

نعم يُغير الله من حال إلى حال، وتتغير الظروف بعد بضع سنين في السجن يخرج يوسف عليه السلام، ويُمكن الله له، ويصبح عزيز مصر ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْتُ لِي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠).

ويظهر إيمانه وشكره الكامل لله وهو متجهاً إليه بذلك الدعاء المنيب الخاشع: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

والملاحظ أن يوسف عليه السلام ذكر الخير الذى هو فيه وحمد الله عليه ولم يُشر بأى حال للمعاناة التى كان فيها قبل ذلك، وهذه أيضاً من صفات المؤمن المحتسب، فكون أعماله لله وينتظر منه الأجر والثواب لذلك لم يشكو إلى الناس ما كان فيه من ابتلاء، بل ونسب ما كان من إخوته من إلقاءه فى الجب بأنه كان وسوسة شيطان، وإنتهت، فلم يُحملهم مسئولية ما حدث له من مفارقة والديه ومن إبتلاءات تعرض لها.

والملاحظ أيضاً أن يوسف عليه السلام حقق أمر الله تعالى ﴿حُذِرُوا﴾ (الأعراف: ١٩٩)، فى تعامله مع إخوته، فهم كانوا السبب الأساسى فيما أصابه من بُعد عن والده، وحياة الشقاء التى رآها بعينه حتى خروجه من السجن، فهو فى ذلك كان بين خيارين: - إما أن ينتقم من إخوته، ويُعاملهم بما يستحقونه من عقوبة.

- وإما أن يعفو ويصفح، ويغض الطرف عما كان منهم، وإختار يوسف عليه السلام سبيل المؤمنين، وهو سبيل العفو عمن ظلمه، يبتغى من ذلك الثواب من الله.

• أما نبى الله يعقوب عليه السلام، فإنه على الرغم من حزنه لفقده يوسف عليه السلام، إلا أن يقينه أنه سيجد يوسف عليه السلام كان كاملاً، فقد أول بنفسه الرؤيا ليوسف عليه السلام ويعلم ان الله سيرفع مكانته ويجعله نبياً من بعده، وفيها أيضاً سجوده هو وبنيه ليوسف عليه السلام، لذلك قال لإبنائه بعد كل هذه الفترة الطويلة على غياب يوسف عليه السلام: ﴿يَكْبَىٰ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِنْ رَّبِّهِ إِنَّهُ لَا يُؤْخِرُ عَنْ رَّبِّهِ إِلَّا الْيَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧)، بل إن أبنائه عندما إعترضوا على حزنه قال لهم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٦)، نعم قد يحزن المؤمن، قد يتألم ويعانى، ولكنه لا ييأس أبداً، ولا يضعف، ولا يفقد ثقته بالله.

لفته أخيرة، يقول الطبرى فى تفسيره، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يقول:

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بمواضع الفضل، ومن هو أهل للاجتباء والنعمة،

﴿حَكِيمٌ﴾ فى تدبيره خلقه.

ويقول الزمخشري ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يُتَمَّ نعمته إلا على من يستحقها.

ويقول السعدي في تفسيره: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد، من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهاها. ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمايرهم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

• وتظهر قصة يوسف عليه السلام أنواع من الابتلاءات التي قد يتعرض لها المؤمن:

– ابتلاء الإيمان والتصديق.

– ابتلاء الصبر.

– ابتلاء الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان (وهو من الابتلاء بالنعمة).

– ابتلاء نهى النفس عن الهوى، في إطلاق الانفعالات والمشاعر البشرية في

التعاملات بين الناس (ورأينا ذلك في تعامل يوسف مع إخوته)، وهو من ابتلاء النعمة أيضاً.

• ولو نظرنا للقصة بنظره عامة، يمكننا رؤية طريقة عمل تدبير وقدر رب العالمين، فيوسف عليه السلام انتقل من غلام صغير يقع ضحية لمكيدة أعداء له إخوته، فيبيع كعبد، ويشب في قصر الملك كعبد بعيداً عن أهله وعشيرته، ويقع في فتنة أخرى تلقى به في السجن، وفي السجن يلتقى برجل ويؤول له رؤياه، أنه سيكون بعد ذلك ساقى الملك، وبالفعل يصبح الرجل ساقى الملك الذي يرى رؤية فيخبره بهذا الساقى أن من سيؤولها له هو يوسف، ومن ثم تدفع الأحداث يوسف أن يصبح عزيز مصر.

والمعنى من ذلك، أن الله يهيئ الظروف ويعد بحكمته الأقدار، لتحقيق وعده ومراده في خلقه، حتى وإن لم يفهم الخلق هذا الإعداد وهذا التدبير لحظة حدوثه إلا أن القاعدة، (والله غالب على أمره) ستعمل دائماً سواء فهم هذا الإنسان مُراد رب العالمين أم لم يفهم، والذي ينبغي على المؤمن في ذلك أن يرضى بقضاء الله ويصبر ولا يستعجل الأحداث فهناك رب يدبر.

ولذلك فلا عجب أن يذكر الله القصة كاملة في كتابة الكريم، وتكون قرآناً يتلى إلى يوم القيامة حتى يأخذ المسلمين بالعظة والعبرة، وأن تطمئن نفوسهم أن الله لا يخلف وعده، وأن معونة الله ونصره لا محالة أتية مهما طالّت مدة الابتلاء. ولا يظن أحد أن هذا التوفيق والتدبير وهذه المعونة من رب العالمين تكون للأنبياء فقط، كلا، وإقرأ قول الله تعالى في ختام السورة الكريمة: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (يوسف: ١١١)، أى أن في هذه القصص التى يقصها رب العالمين العبرة والعظة لمن لديه عقل فيعتبر بها، (إنها حادثة من حوادث التاريخ قدمت مثلاً، والأمثلة لا تصلح أن تكون عبرة ما لم تكن نموذجاً لقاعدة عامة، أو سنة ثابتة من سنن الله فى كونه، ولما كانت هذه الحادثة من هذا القبيل صح أن تكون عبرة)^(١).

(١) بضائر للمسلم المعاصر، د. عبد الرحمن الميداني ص ٢٥٠

ثانياً: ابتلاء رسول الله موسى عليه السلام

قصة موسى عليه السلام من أكثر القصص في القرآن تكراراً، وأكثرها أهمية فقد كررها رب العالمين عشر مرات، بينما ذكر اسم موسى عليه السلام في القرآن ١٣٦ مرة. ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، في مجموع الفتاوى، قال: وثني قصة موسى عليه السلام مع فرعون؛ لأنهما في طرفي نقيض في الحق والباطل، فإن فرعون في غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى عليه السلام في غاية الحق والإيمان من جهة أن الله كلمه تكليماً لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت.

وهذا بخلاف أكثر الأنبياء مع الكفار، فإن الكفار أكثرهم لا يجدون وجود الله، ولم يكن أيضاً للرسول من التكليم ما لموسى. فصارت قصة موسى عليه السلام وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتباراً لأهل الإيمان ولأهل الكفر. انتهى.

• ولأهمية القصة ولتوضيح بعض الابتلاءات الشديدة التي قد يتعرض لها المؤمنين سوف أستعرض معكم القصة على هيئة مشاهد سريعة لتوصيل معنيين:

الأول: أن التمكين لا بد أن يسبقه أولاً إعداد وتربية للمؤمنين تتناسب وحجم المهمة الضخمة التي ستلقى على عاتقهم.

الثاني: أن الذي يُدبر الأحداث هو الله، فيسوقها بحكمة قد يعجز البشر عن إستيعابها لحظة وقوعها، حتى تجتمع الأحداث معاً وتستقر في مسارها الطبيعي بالنسبة لنا، فتظهر غاياتها وحكمتها، فيعلم البشر أنها لم تكن لتنتظم هكذا لولا تدبير وحكمة رب العالمين.

المشهد الأول:

— بنو إسرائيل^(١) في مصر قبل مولد موسى عليه السلام، مُضْهِدِينَ، مَقْهُورِينَ، من قبل فرعون وجنده، وذلك لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه، فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيه يعقوب، الاعتقاد بإله واحد، وإنكار ألوهية فرعون. ولذلك قال رب العالمين: ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ (القصص: ٤)، إشارة على أن طغيان فرعون الأساسى وشدة ظلمه كانت واقعة على فئة من الشعب دون الفئة الأخرى، وهى الفئة التى إرتضت بالله رباً، ولم تنجرف إلى عبادة فرعون ومولاته فى ظلمه، كما فعل باقى الناس.

(فسامهم سوء العذاب، فكان يُذبح أبنائهم ويستحى نسائهم، وجاوز الحدود فى الظلم والطغيان، وساس البلاد سياسة غاشمة، ومما مَكَّن له ذلك أن ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أى فرقهم فرقاً مختلفه، وأحزاباً متعددة، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء، كيلا يتفقوا على أمر ولا يجتمعوا على رأى ويشتغل بعضهم بالكيد لبعض، وبذلك يلين له قيادتهم، ولا يصعب عليه خضوعهم وإستسلامهم)^(٢).

— ملأ فرعون^(٣): كانوا متلبسين بالفسق والظلم، خارجين عن طاعة الله، ومخالفين لأوامر دينه، ﴿فَإِنَّكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فَرْعَوْنَ وَمَلَئِهِۦ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (القصص: ٣٢)

(هذا الملأ، وأتباع الطغاة عامة، يخدمونهم على طغيانهم وفجورهم طمعاً بما عندهم من متاع الدنيا، والطغاة يعلمون ذلك، ويعطونهم ما يريدون ليبقوا فى خدمتهم وتبعيتهم لهم)^(٤).

(١) إسرائيل: هو نبي الله يعقوب عليه السلام

(٢) تفسير الم راغى، سورة القصص بتصرف

(٣) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاه، د. عبد الكريم زيدان، والملأ: الجماعة، وقيل أشرف القوم

ووجوههم ورؤسائهم ومقدموهم، الذين يرجع إلى قولهم (إنظر لسان العرب)

(٤) المرجع السابق

— جند فرعون^(١): قال تعالى عن فرعون: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾^(١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ^(١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ^(١٢) ﴿(الفجر: ١٠-١٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما: الأوتاد، الجنود الذين يشدون له أمره.

إن فرعون ما كان يستطيع أن يطغى ويتجبر ويظلم الناس ويفسد فى الأرض لولا أنه يجد العون من أعوانه، وعلى رأسهم جنده وعساكره، وقد علم أعوان فرعون هذه الحقيقة وهى أنهم فى الحقيقة حُماته، وبهم يحكم ويبطش ويظلم، فقاموا هم أيضاً بالإستكبار والظلم والإفساد فى الأرض، قال تعالى عن فرعون وجنوده ﴿وَأَسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾^(١٣) (القصص: ٣٩).

— عامة الشعب: كانوا أيضاً متلبسين بالفسق يعيشون فيه ليل نهار ولذلك إستخف بهم فرعون وإستخف بعقولهم فقال لهم ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّسَادِ﴾^(١٤) (غافر: ٢٩)، فلما إرتضوا أن يتحكم فيهم بعقله وحده، فلا يسمعون غيره، وأن سبيل الهدى هو سبيله، زاد فى طغيانه فقال: ﴿يَأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾^(١٥) فكانوا تحتة عبيداً يأتُمرون بأمره ﴿فَأَسْخَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾^(١٦) (الزخرف- ٥٤).

كان هذا هو حال القوم، ولكن أراد الله أن يبدل الحال، وأراد لبنى إسرائيل المستضعفين أن يكونوا أئمة للخير، ويكون لهم التمكين فى الأرض.

المشهد الثانى:

إن الله يدبر الأمر بحكمته وعلمه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة فى الدنيا والآخرة، ففى الوقت الذى أخذ فيه فرعون بكل أسباب الحيلة والحذر والبطش والطغيان، حتى لا يفقد سيطرته على مُلكه، يأتى أمر الله من حيث لا يحتسب فرعون وجنده، ويسوق الله المولود الذى سيكون على يديه هلاك فرعون وجنده، فيتربى فى قصره وينام على فراشه ويأكل ويشرب

من طعامه وشرابه، ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ (طه - ٢٩)، وهى إشارة أن الله غالب على أمره ولا راد لقضائه، ومهما اتخذ الظالم من وسائل الحيلة والحذر فإن تدبير الله سيغلب لا محالة.

المشهد الثالث:

أصبح موسى شاباً يافعاً شديد القوة، وفى وقت غفله من الناس، حيث من غير المعتاد دخول المدينة فى هذا الوقت (قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى: وذلك نصف النهار)^(١) دخل موسى المدينة، فوجد رجلين يتقاتلان، أحدهما من بنى إسرائيل والآخر قبضى من قوم فرعون، وإن بالإسرائيليين يستغيث ويطلب النجدة من موسى، فما كان من موسى إلا أن إندفع غيظاً وغضباً على القبضى، فدفعه دفعة واحدة (بقصد الزجر) ولم يتحمل القبضى الدفعة فمات على الفور.

المشهد الرابع:

موسى خائفاً وجللاً، أن يعرف فرعون وملئه أنه هو من قتل القبضى، فيبطش به فرعون، فصار يسير فى المدينة ذلك اليوم وهو ﴿خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾، وحدث ما كان يخشاه موسى وبلغ فرعون أن موسى هو من قتل ذلك المقتول بالأمس فأرسل جنده للقضاء عليه.

ولكن بعناية رب العالمين جاء رجل ناصح لموسى من طريق أقرب، قائلاً، إن فرعون وبطانته يدبرون لك المكائد، يريدون أن يقتلوك، وأسدى إليه النصيحة أن يهرب سريعاً من هذه البلدة.

المشهد الخامس:

زاد خوف موسى، وخرج من فوره من مصر، يتلفت حوله خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، وهو لا يدري أين يتوجه، ولا أين يذهب، قائلاً ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (القصص: ٢١)

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير

فهداه رب العالمين أن سار في إتجاه مدينة مدين^(١).

قال بن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيا، فسقطت نعلا قدميه من الجفاء^(٢).

وكان من عناية رب العالمين أن هيا له عمل خير، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّكَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَنُوكَا شَيْخَ كَبِيرٍ﴾ (٢٣) ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤) ﴿(القصص: ٢٣ - ٢٤)﴾

وبعد أن سقى موسى للفتاتين غنمهما، إنصرف إلى ظل شجره ليستريح وناجى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص: ٢٤) روى عن ابن عباس أن قال: لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمر، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع^(٣).

المشهد السادس:

يأتى الفرج لموسى بعد الشدة، ويستجيب الله له، فتأتيه إحدى المرأتين تمشى فى شدة الحياء قائلة: إن أبى يدعوك ليكافئك على ما صنعت من الإحسان وأسديت إلينا من المعروف.

فلما جاء موسى هذا الشيخ، حدثه بأمره مع فرعون وملأه فى كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد وتأميرهم على قتله وهربه منهم.

فأمنه الشيخ، قائلاً لا تخف قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة إذ لا سلطان لهم علينا^(٤).

وزاد على ذلك أن قال: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي

(١) مَدْيَن: اسم قبيلة من العرب القدماء فى شمال غرب الجزيرة العربية

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير

(٣) تفسير المراعى سورة القصص

(٤) المرجع السابق بتصرف

ثَمَنِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ (القصص: ٢٧ - ٢٨).

(لقد نقلت يد القدرة خطي موسى ﷺ خطوة خطوة، منذ أن كان رضيعا في المهد حتى هذه الحلقة، ألقت به في اليم ليلتقطه آل فرعون، وألقت عليه المحبة في قلب امرأته لينشأ في كنف عدوه، ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفسا، وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه بالخروج منها، وصاحبته في الطريق الصحراوي من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد، وجمعت به بالشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر، ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف.

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه، ومن التلقى والتجريب، قبل النداء وقبل التكليف.

تجربة الرعاية والحب والتدليل، وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس، وتجربة الندم والتحرج والاستغفار، وتجربة الخوف والمطاردة والفرع، وتجربة الغربة والوحدة والجوع، وتجربة الخدمة ورعى الغنم بعد حياة القصور، وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة، والمشاعر المتباينة، والخوالج والخواطر، والإدراك والمعرفة، إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة.

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات، يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملية، إلى جانب هبة الله اللدنية، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير.

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر (عدا رسالة محمد ﷺ)، فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر، أعنى ملوك الأرض في زمانه، وأقدمهم

عرشا، وأثبتهم ملكا، وأغرقهم حضارة، وأشدّهم تعبدًا للخلق واستعلاء في الأرض. وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمروا مذاقه، فمردوا عليه واستكانوا دهرًا طويلا، والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتعفن، ويذهب بما فيها من الخير والجمال، فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير.

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة، انحرفوا عنها، وفسدت صورتها في قلوبهم، فلا هي قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة، ولا هي باقية على عقيدتها القديمة، ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة، والالتواءات فيها والرواس والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسرا.

وهو في اختصار مرسل لإعادة بناء أمة، بل لإنشائها من الأساس، فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعبا مستقلاً، له حياة خاصة، تحكمها رسالة، وإنشاء الأمم عمل ضخّم شاق عسير.

ولعله لهذا المعنى كان عناية القرآن الكريم بهذه القصة، فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة، وما يعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية، وما يعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل^(١).

وكما هيئ الله تعالى الأحداث ليوسف عليه السلام ابتداءً ببيعه كعبد في مصر، إن برب العالمين يُهيئ الأحداث لموسى عليه السلام في أرض مدين، ليُعيد له لتحمل تبعات الرسالة التي ستؤكل إليه بتبليغ دين رب العالمين وما يترتب على ذلك من مواجهة جبروت الظالم وطغيانه فجعل الله فترة العمل أجيراً (عشر سنوات) لتفصل بين حياة الرفاهية التي نشأ وترعرع فيها موسى عليه السلام، وحياة الجهد والجهاد في الدعوة وتكاليفها الشاقة التي تنتظره بعد ذلك.

(فلما أن استكملت نفس موسى عليه السلام تجاربها، وأكملت مرانيتها ودربتها، بهذه التجربة الأخيرة في دار الغرب، قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائداً به إلى مهبط رأسه، ومقر أهله وقومه، ومجال رسالته وعمله، سالكة به الطريق

(١) في ظلال القرآن سورة القصص

التي سلكها أول مرة وحيدا طريدا خائفا يتلفت، فما هذه الجيئة والذهوب في ذات الطريق؟ إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق، الطريق الذي سيقود فيه موسى خطى قومه بأمر ربه، كي يستكمل صفات الرائد وخبرته، حتى لا يعتمد على غيره ولو في ريادة الطريق فقومه كانوا في حاجة إلى رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة، بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير، حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير، وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله، وكيف أعدته القدرة لتلقى التكليف^(١).

المشهد السابع:

بعد أن قضى موسى الأجل الذي بينه وبين صهره، عزم على الرحيل إلى مصر، فلما سار بأهله ضلوا في طريقهم، فلم يهتدوا إلى الطريق المألوف، وكان ذلك في ليلة مظلمة باردة.

وبينما هم في الظلام والبرد، إذ أبصر عن بعد نارا في جانب الطور ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۚ﴾ (القصص - ٢٩)

﴿فَلَمَّا أَنهَا تُودَىٰ يَمُوسَى ۖ﴾ (١١) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ﴾ (١٢) وَأَنَا أَخَذْتُكَ فَاسْتَمِعَ لِمَا يُوحَىٰ ۖ﴾ (طه: ١١ - ١٣)

وتلقى موسى الرسالة من رب العالمين: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۚ﴾ (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۚ﴾ (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۚ﴾ (طه: ١٤ - ١٦)

المشهد الثامن:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبُ ۚ﴾ (النمل - ١٠)

يبدأ التدريب العملي لموسى ﷺ للتغلب على الخوف البشري الطبيعي،

وتدريبه على الثبات و السيطرة على انفعالاته البشرية فى المواقف الحرجة ،
فيكون ثابت وصلب فى مواجهة الظالمين .

قال تعالى : ﴿ يَمْوِسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ (النمل - ١٠) .

وقال : ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ (٢١) وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ
بِضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) ﴿

(طه: ٢١ - ٢٤)

وهنا ، فى موقف التشريف والتكريم لموسى عليه السلام ، أن اختاره رب العالمين ليكون
رسولاً بإذنه إلى بنى إسرائيل ، يطلب موسى أن يكون أخوه هارون شريكه فى الأمر
ليشد أزره ويكون عوناً له فى مواجهة فرعون .

لم تتمرد نفس موسى عليه السلام أن يكون له الفخر كاملاً أن إجتباه الله ليكون رسوله ،
بل كان هم الدعوة إلى الله أولى ، والعمل على تحصيل المنفعة فى سبيل ذلك أولى من
أن تفتخر نفسه أن أصبح رسول الله .

وحاشا لله أن يجتبى من كان فى نفسه مرض حب الظهور وحب السلطة ، وهى
رسالة للدعاة ، أن هم الدعوة والعمل لها أولى من حظ نفسه وفخرها وشرفها أن تكون
فى الطليعة أو فى المقدمة .

﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرَى (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ سَحِكَ كَثِيرًا (٣٣) وَتَذَكَّرَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ (طه: ٢٩ - ٣٥)

المشهد التاسع:

موسى وهارون ينطلقا إلى فرعون ، فيقولان : ﴿ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَن أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ (١٧) ﴾ (الشعراء: ١٦ - ١٧) .

وبالطبع فرعون المتكبر الظالم ، يجادل موسى فى رسالته ، ويسخر منه ، بل
ويهدده بالسجن إن لم يخضع له ولسلطانه ، فيقول : ﴿ لَيْنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ (٢٩) مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٩) .

فيقول موسى عليه السلام : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ (الشعراء: ٣٠) ، ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ (٣٠) ﴾

تُعَبَّانِ مُبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيْضَاءُ لِلنَّظَرِ ﴿٣٣﴾ (الشعراء: ٣٢-٣٣)، عندما رأى فرعون هذه الآية لم يؤمن بموسى ﷺ ورسالته، بل إستكبر وإتهمه أنه ساحر وما جاء إلا ليخرج أهل البلاد من ديارهم وذلك حتى تكون له ولأخيه العزة والسيادة.

وإستشار فرعون الملأ (الفاسقين) ماذا سنفعل مع موسى؟؟؟

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(الشعراء: ٣٦ - ٣٧).

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ : إذا كان فرعون على الكبر والطغيان الذى ذكرته سابقاً، وإذا كان ملأه وجنده على نفس الشاكلة.

— لماذا إذا ترك المجال لموسى ﷺ ليتكلم ويُحاجه!!

— لماذا أيضاً قالوا له هذه العبارة، أرجه وأخاه!! بل وقبل فرعون التحدى فى يوم الزينة.

— لماذا لم يأمر جنده بالقبض على موسى وإيداعه فى السجن، فى الوقت الذى كان أمر رسالة موسى ﷺ ما زال فى بدايته ولم يلق التأييد الكبير من عامة الناس؟
إنه التضييل: ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ (الفي: ٢)، فالله هو المدبر، يسمع ويرى، هم ظنوا أنهم بقبولهم التحدى ضد موسى ﷺ سيعلموا نجمهم أكثر، وسيكون لهم الكبرياء أكثر، وتكون هزيمته عبرة لغيره، وزيادة فى مكانة فرعون وسطوته.

ولكن إستدراج رب العالمين لهم كان بالمرصاد، وفى الوقت الذى ظنوا أنهم أتقنوا المكيدة، كان الله المدبر يُثبِت قواعد التمكين لموسى ﷺ والمستضعفين من أتباعه.

﴿ ثُمَّ أَذْبَرْ سَعَى ﴾ (النازعات: ٢٢)، أى إجتهد فرعون وسعى فى عمل المكائد ليبطل الحق الذى جاء به موسى ﷺ.

المشهد العاشر:

يوم الزينة، يوم عيد للشعب يحتفلون فيه، وكان الميعاد (فى ضحوة من النهار، ليكون الوقت أظهر وأجلى وأبين وأوضح للحق، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم بين

واضح ليس فيه خفاء، ولذا لم يقل ليلاً، ولكن نهراً ضحى فى مكان سوى، أى مكان حالنا فيه سواء^(١).

وجمع فرعون السحرة ووعدهم بالأجر العظيم إن كانوا هم الغالبين، واصطف الناس من عامة الشعب ليروا هذا التحدى العظيم.

وألقى السحرة حبالهم وعصيهم، وقالوا ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (الشعراء: ٤٤)، ومن شدة سحرهم، خيل للناس، ولموسى عليه السلام أنها تسعى وتتحرك: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ (طه - ٦٧).

ولكن! كان الله هناك يسمع ويرى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ۖ﴾ (طه: ٦٨ - ٦٩). ﴿لَقَدْ مَأْصَعُوا إِنَّمَا صَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَىٰ﴾ (طه: ٦٨ - ٦٩).

ولم يتمالك السحرة أنفسهم أن رأوا هذه الآية من رب العالمين، وهم أصحاب العلم والخبرة فى السحر وعلومه، فخرروا ساجدين مؤمنين بالله ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَنِينَ﴾ (الشعراء: ٤٦ - ٤٨). ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ (الشعراء: ٤٨).

— كانت المناظرة قوية فى يوم الزينة، بين أهل الحق والحجة الظاهرة الساطعة، وبين أهل الباطل الذين ألبسوا الباطل ثوب الحق، وهىأوا لأنفسهم ملكاً زائفاً بنوه على الخداع والغش والكذب والاستخفاف بعقول الناس ولذلك ولأن الله ناصر الحق لا محالة على الباطل، كانت نتيجة المناظرة ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١١٨)، ظهر الحق عياناً للناس وانكشف خداع فرعون وسقط قناع القوة والسلطة الزائف الذى كان يرتديه لإرهاب شعبه ﴿فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ (الأعراف: ١١٩).

المشهد الحادى عشر:

ينتفض فرعون، ويقول: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لهُ، قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ (طه - ٧١). ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾: إنه الكبر الذى طمس على بصيرته فجعله يظلم ويطغى، فهو

(١) الاستفادة من قصص القرآن للدعوة والدعاة، ص ٢٢٥

يرى أنهم ليس لهم من أمر أنفسهم شيئاً، فمن يخضع لحكم فرعون لا يستطيع أن يفعل ما يشاء، أو أن يقول ما يشاء، بل ما يأمر به فرعون، وما يحكم به فرعون هو ما يُنفذ فقط.

ثم يتهمهم علانية أنهم دبّروا هذه المكيدة لإحراجة ولتنفيذ خطة موسى لإخراج أهل البلاد منها، فيقول: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ (الأعراف: ١٢٣).

ويتوعدهم فرعون بأفطع عقاب ممكن: ﴿فَلَسَوْفَ نَعْمُوْنَ لَا فُطْعَنَ أَيِّدِكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الشعراء - ٤٩).
﴿وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (طه - ٧١).

ولكن السحرة الذين ءامنوا، بقلوب مطمئنة بالله راضية بقضائه، قالوا: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ (الشعراء: ٥٠ - ٥١).

المشهد الثانى عشر:

فرعون يتلمظ من الغيظ، ويقول للملأ ﴿دَرُوْنِ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ (غافر: ٢٦)، يريد أن ينتقم من موسى فقد أهانه على أعين الناس وحطم سمعته، وهزيمة شر هزيمة وهو المتكبر الذى يرى تحت يديه مُلك البلاد، بل ويصل كبره أن يرى عظمته كعظمة الإله.

ولكن تبقى مُعضلة تواجه فرعون، وهى الطبيعة الشخصية لفرعون نفسه، فهو يميل إلى استعمال أقصى أنواع العنف ضد مُعارضيه أو من يُخالفه فى الرأى، ولكن وضع موسى عليه السلام يختلف، فله مكانة فى قلب الشعب، فهو القوى الأمين الذى تربى فى قصره، والذى إنتصر عليه إنتصاراً ساحقاً أمام الجموع، وبالتالى فإن إنزال العقاب الشديد بموسى ومن معه، أو قتله مُباشرة، له تبعات كبيرة، قد تُهدد مُلكه، وبالتالى كان لابد من وضع خطة تقضى على حب الناس و تعاطفهم مع موسى، وبالتالى تبرر القسوة التى سيتعامل بها ضد موسى ومن معه.

بمعنى كان لا بد من سبب مُقنع، لقتل موسى عليه السلام، وهذا السبب لابد أن يكون له القدرة على تغيير عواطف الناس، وتفتق ذهنه عن الفكرة الآتية: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر- ٢٦).

﴿يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ تساوى: تغيير نظام الحكم.

﴿أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ بمعنى: أن موسى سيسعى لنشر الذعر والفزع ويبث الفوضى الذى يؤدى إلى ضياع الأمن بين الناس.

والعجيب أن هذه الآية توضح مدى خوف ورعب فرعون، فمخاوفه من انتزاع مُلكه منه، بدأت تظهر بعض مؤشراتاتها، حتى وإن كانت ضعيفة فى بداياتها، إلا أن أول السيل قطرة، إن فرعون يخشى موسى ويخشى دعوته، ويمكن أن نطلق على هذه الظاهرة، ظاهرة الخوف المتبادل، ففى الوقت الذى يظن الداعية إلى الله أنه ضعيف، قليل الحيلة، لا يملك من مقومات القوة شئ، ويعيش فى خوف من بطش الظالم وأعوانه، إلا أن هذا الظالم والذى نراه متكبراً، متغطرساً، يخاف أيضاً، خوف يصل إلى درجة الرعب، يخاف أن يُسلب مُلكه وتُسلب سلطته وقوته، ونرى رد فعل هذا الخوف فى شدة تعامله وغلظته التى تصل إلى درجة القتل ﴿سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَسُحْتَىٰ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾، إذاً فالخوف مُتبادل، ولكن فى الوقت الذى يتطلع فيه المؤمنون إلى نصر الله فى الدنيا ورحمته فى الآخرة، فإن نار جهنم تنتظر فرعون فى الآخرة، ولملكه الزوال والبوار فى الدنيا (وهذا ما حدث بالفعل).

وهناك شئ آخر بخصوص هذا الموقف، لماذا اتهم فرعون موسى بهاتين التهمتين تحديداً؟! -تبديل الدين، ونشر الفساد.

أولاً: يلاحظ أن فرعون ادعى الألوهية، فكان الناس ينظرون إليه ويتعاملون معه من منطلق أنه من نسل الألهة، أو أنه هو نفسه إله، والمقصد أنه اخترع للشعب دين جديد يتوافق مع السلطة والقوة التى يريد أن يحصل عليها.

ثانياً: كان فرعون وملائه وجنده متلبسين بالفسق والفجور، والظلم الشديد.

وبالتالى فإن فرعون اتهم موسى عليه السلام بهاتين التهمتين لانه هو نفسه متلبس

بهما، هو نفسه يُطبق هاتين التهمتين على شعبه، وبالتالي فهو اتهم موسى بذلك من مُنطلق أنا أفعل ذلك، وأظنك تريد أن تفعل ذلك أيضاً، كما نقول نحن (يظن السارق أن كل الناس سارقون)، وعندما اتهم فرعون موسى بهاتين التهمتين، فإنه استخدم قوة منصبه، ومكانته، وخوف الناس منه ومن بطشه، لتحويل الكذب الذي يدعيه إلى حقيقة في عقول الناس، فيظهر موسى ﷺ ومن معه بمظهر المفسدون الذين يريدون للأرض الخراب.

المشهد الثالث عشر:

تتنزل الابتلاءات على فرعون وقومه، ما بين جذب وقحط ونقص من الثمرات: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٠)، حتى يتوبوا ويرجعوا عن طغيانهم، فما كان منهم إلا أن استكبروا، وأخذوا يطلقون الإشاعات أن هذا (النحس) هو بسبب موسى ومن معه، وأن الفقر والشدة التي هم فيها بسبب موسى ومن معه: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٣١) فزاد الله عليهم الابتلاء، آيات مفصلات من نكبات وشدائد تتنزل عليهم تبعاً ﴿الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَافَ وَالْذَّمَ أَيْبَ مُفْضَلَتٍ﴾ (الأعراف: ١٣٣) والعجيب أنهم على الرغم من كل هذه الآيات إلا أنهم أصروا على استكبارهم، وكأن عقولهم كأن لم توجد، يسوقهم فرعون بظلمه وكذبه وعلوه فيستجيبوا، ويرسل الله لهم الآيات المفصلات ليؤمنوا به، فلا يؤمنوا، والله إنه لشئ عجاب، ولكن هكذا الناس عندما تفقد الصلة بينها وبين الله بمعاصيهم، ولذلك استحقوا العقاب من رب العالمين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبينٍ﴾ (١٦) ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَأَتْبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ (١٧) ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَخْسُ الْأَوْرَدُ الْمَوْزُودُ﴾ (١٨) ﴿وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَهُ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَخْسُ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ﴾ (١٩) (هود: ٩٦ - ٩٩)

المشهد الرابع عشر:

الخطة الخبيثة للقضاء على موسى وأتباعه:

الجزء الأول من الخطة: يجمع فرعون الملاً ليتباحثوا فيما بينهم أمر موسى:

﴿قَالُوا أَتَقْتُلُوا آبَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَخَيَّرْتُمُوهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ

الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ (غافر: ٢٥-٢٦)، توصل ملاً فرعون إلى ضرورة قتل موسى وقتل من يمكنهم قتله من أتباعه واضطهاد من يتبقى منهم، وذلك عن طريق إتهامه بهاتين التهمتين، كيف سيتم ذلك؟

– يتدخل الملاً لزيادة شحنة الغيظ والغضب عند الناس ضد موسى ﷺ وأتباعه،

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ (الأعراف: ١٣١).

نعم إنتشر الخبر بين الناس أن ما يحدث من بلاء وشر هو بسبب شؤم موسى ومن معه وطار الأمر في طول البلاد وعرضها، أن موسى ﷺ هو سبب البلاء.

فتم اتهام موسى ﷺ بالإتهامات الباطلة، للتقليل من شأنه لدى الناس، فقالوا أولاً ساحر وقالوا مجنون، وقالوا مهين ولا يكاد يبين، وقالوا فقير ليس معه شيء.

وهذا أيضاً ما قام به كفار قريش للصد عن سماع رسول الله ﷺ وسماع القرآن، فقالوا ساحر ومجنون وكانوا يتواصون فيما بينهم، ويوصون الناس بعدم سماع القرآن (وهو صوت الحق) فقالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِيةُ لَكُمْ تَعْلُونَ﴾ (فصلت: ٢٦)

– الجزء الأخير من الخطة: ولإكمال الخطة (كحبكة أخيرة) لخداع الجموع

الغافلة، يأتى الملاً من قوم فرعون على أعين الناس يستنجدون بفرعون، فقد طفق الكيل من موسى وأتباعه، فلا بد من إظهار قوة فرعون وسلطته عليهم:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُسُونَا وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْهَتَكُ﴾، ويظهر

المنقذ، فرعون، الذي سينقذ الناس مما هم فيه من شؤم وضنك وضيق معيشة وغيظ على موسى ومن معه: ﴿قَالَ سَتَقُنُّلُ آبَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾

(الأعراف: ١٢٧).

وسبب أن الملائأتى على أعين الناس بجموعهم ليطلبوا من فرعون قتل موسى هو تحريك عواطف جموع الناس، فالناس تحب التجمعات الضخمة، وفي الجموع يكون عقل الجمهور عقل واحد فيسهل التحكم فيهم، وغرس الأفكار في عقولهم، وهو المطلوب في هذه الحالة.

وبالفعل، وعدهم فرعون أن يجتث ذرية من آمن مع موسى، حتى ينتهوا فلا يبقى منهم أحد، وإفتخر بقوته وسطوته عليهم، فلن يستطيعوا أن يفسدوا في الأرض (كما يدعى الملائ)، ولإثبات ذلك ولتثبيت الناس حتى لا يُفتنوا بموسى ومن معه، جعل يفتخر بإنجازات لم يقم بها ولم يفعلها، بل هى من نعم رب العالمين، وجعل يسخر من موسى فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْنَ الْيَسَّ إِلَىٰ مُلْكِي مِصْرَ وَهَٰؤُلَاءِ الْأَنْهَارُ تُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ (الزخرف: ٥١-٥٣)

وقد يسأل سائل، ما الدليل على أن الجزء الأول من الخطة كان بين فرعون وملائه فيما بينهم، بينما الموقف الأخير على أعين الناس؟

فى الموقف الأول: قال فرعون ﴿ذَرُونِي﴾، يقول د. عبد الكريم زيدان: (هذه العبارة ليست من ألفاظ الجبابرة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم)^(١) وفرعون كان عالياً مستكبراً فما كان ليقول هذه الكلمة على ملائ من الناس حتى لا تضعع هيئته وكبرياه أمامهم.

بينما الموقف الأخير، موقف قوة واستعلاء وغضب، موقف إعلان قوة وسيطرة ﴿سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾، وهذا ما يحبه الجبابرة ويسعون لفعله، فكان موقف الواثق القادر على إنفاذ كلمته لذلك لابد أن يكون على الملائ.

(١) الاستفادة من قصص القرآن للدعوة والدعاة ص ٢٣٠

المشهد الخامس عشر:

يصل الأمر لموسى بقول فرعون وتهديده، ويعلم قوم موسى أيضاً، فيحث موسى قومه على الصبر والثبات والإعتماد على الله.

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٥) وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ (يونس: ٨٦)، (ولفظ فتنة هنا يحتمل معنى الفاتن والمفتون، فكأنهم قالوا: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتننا بهم فتتولى عن إتباع نبينا أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفراً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، فيظنوا أنهم على الحق، وأننا على الباطل) (١)

وتوجه موسى إلى الله بالدعاء أن يهلك فرعون وملائه إنتقاماً منهم لإستكبارهم وظلمهم لأهل الحق فقال ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ (يونس: ٨٨)

ويؤمن هارون عليه السلام على دعائه وتأتى الإجابة من رب العالمين: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يونس - ٨٩).

(وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ): أى لا تستعجلون النصر على فرعون وملائه كالذين لا يعلمون سنن الله فى خلقه، فإن الله لا يخلف الميعاد وكل شئ عنده بمقدار.

ويلاحظ فى هذا المشهد شيئين:

١ - أن ملاء فرعون عندما قتل موسى عليه السلام القبطى، تشاوروا فيما بينهم لقتله

مباشرتاً، و يأتي الخبر لموسى عليه السلام أنهم سيأتون لقتله، وبالفعل لو بقى موسى عليه السلام لقتلوه، لأن هذه كانت نيتهم فى هذه اللحظة.

بينما عندما جائهم موسى وهارون عليهما السلام وحدث التحدى العظيم على أعين الناس، وآمن بموسى ذرية من قومه، هنا إختلف الأمر، فسابقاً كان بمفرده فلا ضير من قتله، أما الآن وهو ذو أتباع، وذو مكانة بين الناس فلا يُمكن قتله مباشرة كان لابد من الحيلة حتى لا يؤدى قتله إلى أضرار كبيرة للملك فرعون كما سبق وأشرت، فنزلت يد بطش فرعون على المستضعفين من أتباع موسى يقتل منهم ويُعذب منهم، حتى ينفضوا من حول موسى فيبقى وحيداً كما بدأ فيسهل القضاء عليه، وعلى دعوته.

٢ - أن موسى عندما وصله الخبر أن الملائكة يريد قتله، بعد قتل القبطى خرج من مصر مباشرتاً، هارباً مُستخفياً حتى لا يشعر به أحد.

بينما الآن، وبعد تكليفه بالرسالة، يأتيه خبر أشد، أن فرعون سينتقم منه وسيُنصب إنتقامه على أتباعه، يقتلهم ويُعذبهم، حتى يرجعوا عن دينهم، وهو خبر أشد، لأن المؤمن قد يرضى أن يُقتل هو شخصياً ولا يتعرض أحد من مُحبيه أو من أتباعه إلى أذى، فما بالكم إن كان الرسول يرى أتباعه يُقتلون ويُعذبون ولا يستطيع أن يحميهم أو ينصرهم.

وفى هذا الموقف نرى ثبات نفس موسى عليه السلام، فهو لم يهرب كما فعل سابقاً بل نرى الثبات فى قوله لقومه: (اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا)، وهذا من ثمار التربية التى رباها له رب العالمين، وثمار إيمانه بدعوته وإنتظاره الفرج من الله بأن يحكم الله بينه وبين عدوه.

المشهد السادس عشر:

استمر عناد فرعون وإستكباره، واستمر الملائكة على إفسادهم وعصيانهم، ولم يبق لهم بعد الحجج والبراهين والآيات التى جاء بها بموسى إلا وقوع العذاب عليهم

بعد طول إمهال، فأمر الله تعالى موسى ﷺ أن يخرج بقومه بنى إسرائيل من مصر، وأن يسير باتجاه البحر.

وعلم فرعون بخروج موسى وقومه، فأرسل سريعاً بجمع الجند من أنحاء البلاد، فلما تكامل جمعهم، سار بهم يريد اللحاق بموسى ومن معه، فلما تقارب الجمعان، فرعون وجنده، وموسى وقومه، بحيث صار كل فريق يرى الفريق الآخر وذلك وقت شروق الشمس على ساحل البحر.

ففرع قوم موسى ونظروا إليه وقالوا ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ (الشعراء: ٦١).
وينطق اليقين في قلب موسى ﷺ أن: ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٦٢)،
ظهرت ثمار التربية التي رباها الله لموسى ﷺ فلقد إختفى الخوف من نفسه، فبعد ﴿ وَلَىٰ مُدَبِّرًا لَّا يَعْصِي ﴾ (النمل - ١٠) إبتدأ، وبعد ﴿ فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴾ (طه: ٦٧)،
الآن، كَلَّا إن معي ربي سيهدين.

إنها تربية العليم الحكيم لعباده المؤمنين، تربية رب العالمين الخبير بالنفوس البشرية لحملة راية التوحيد، التربية على اليقين أنه معهم ناصرهم لا محاله حتى لو كانوا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك.

ويأتى الأمر الإلهي لموسى ﷺ: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء: ٦٣)، ويأتى رب العالمين بكلمتين متتاليتين، تدلان على سرعة الإستجابة، ﴿ فَأَوْحَيْنَا ﴾ ﴿ فَانْفَلَقَ ﴾، وهكذا لا يترك الله عباده المؤمنين إلا ويكون النصر الفوري معهم.

المشهد الأخير:

﴿ فَلَمَّا أَصْفَوْنَا آتَيْنَاهُم مِّنْهُم فَاعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ

﴿ (الزخرف: ٥٥ - ٥٦) ﴾

(أى مثلاً يُعتبر به ويقاس عليه غيره، فمن عمل بمثل عمله جوزى جزائه، ليتعظ الناس به فلا يعمل بمثل عمله.

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف - ١١١)، والإعتبار، أن يقرن الشئ

بمثله فيعلم أن حكمه مثل حكمه، والمقصد أن من عمل مثل أعمالهم، جوزى مثل جزائهم، ليحذر أن يعمل مثل عمل الكافرين، فمن كان من أهل الإيمان قيس بهم، وعلم أن الله يسعده في الدنيا والآخرة، ومن كان من أهل الكفر قيس بهم، وعلم أن الله يشقيه في الدنيا والآخرة^(١).

وتتضح في قصة موسى عليه السلام سنة من سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير وهي: (أن الله عز وجل يبدأ مُعالجة الأمم قبل إهلاكها إهلاكاً شاملاً بإبتلائها بالبأساء والضراء، والمصائب والمكاره الجزئية، رغبة في أن يتضرعوا مُستغفرين وتائبين، سائلين الله أن يكشف عنهم ما نزل بهم مما يكرهون، وبإبتلائها بالبأساء والضراء تنبيه لها وإنذار، فإن تابوا وأصلحوا رفع الله عنهم ما أنزل بهم من إبتلاءات، وإن لم يرجعوا عن بغيهم وظلمهم، رفع الله عنهم ما أنزل بهم من مصائب جزئية وأمهلهم مدة من الزمن، ثم باغتهم بالتعذيب والإهلاك الشاملين، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(٢) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَمَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءِآبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ (الأعراف: ٩٥ - ٩٤).

البأساء: الجوع، والمشقة، والفقر، وضنك العيش، والحرب.
الضراء: الشدة، وكل حالة تضر في الأموال والأنفس^(٣).
والأن ما هي الابتلاءات التي تعرض لها رسول الله موسى عليه السلام، حتى نأخذ منها العبرة:

١ - ابتلاء النعمة:

فموسى عليه السلام نشأ في قصر فرعون حيث الترف والرفاهية، وفرعون كان الحاكم الأوحد، أمره مُطاع وسلطانُه نافذ، وعلى الرغم من ذلك فقد ترك موسى كل ذلك

(١) التفسير الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية، ج ١ بتصرف

(٢) معارج التفكير ودقائق التدبر، د. عبد الرحمن الميداني سورة الأعراف (٥ / ٤٥٨)، بتصرف

وإتجه إلى عبادة الله مثل قومه بنى إسرائيل، وكان قلبه معهم، ولذلك نجده أنه عندما دخل المدينة ووجد رجلين يقتتلان، أخذ الغضب من القبطى، (وسماه الله عدوه، للدلالة على مقدار الغيظ والغضب)، فدفعه دفعة واحدة قضت عليه. والمقصد: لا تجعل أموالك وسلطانك والرفاهية التى تجدها فى حياتك عائق بينك وبين إرتباطك الوثيق بمنهج الله، بل إجعل الله ورسوله أحب إليك مما سواهما، هكذا تحقق الإيمان بالله.

٢ - ابتلاء تكفير السيئات:

لقد قتل موسى عليه السلام رجلاً ولم يكن يريد ذلك، ثم ندم بعد ذلك وأصابه الغم على فعلته، فدعا رب العالمين أن يغفر له، وأخذ العهد على نفسه أن لا يظهر معتدى أبداً (وفيهم من ذلك أن الرجل من بنى إسرائيل كان هو المعتدى على القبطى ولكن ظن موسى عليه السلام العكس فدفع القبطى فقتله).

المقصد: مهما كان الذنب الذى ترتكبه، لا تقطع أبداً صلتك بالله وتيأس من رحمته، بل تب وإرجع سريعاً فسيقبلك الله الذى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء - ٤٨).

٣. ابتلاء الدعوة وابتلاء الصبر:

ففى دعوته إلى الله كان لا مفر من مواجهة فرعون وتحديه، وما يتبع ذلك من تسلط فرعون وغضبه وإنتقامه، فكان لابد أن يصبر على الابتلاء وأن يثبت على طريقه فلا يلين ولا يستكين.

٤. ابتلاء التمكين:

فلقد أصيب موسى وقومه على يد فرعون وجنده أصناف كثيرة من الألام والمعاناة، غير تفتيل الأبناء وإستحياء النساء، ووصلت أعلى درجات زلزلة نفوسهم فى قولهم لموسى عليه السلام (إنا لمدركون)، فهم يعلمون أن فرعون لو لحق بهم لأباد طائفة

منهم وعذب الباقيين أشد العذاب، وصبروا حتى جائهم نصر الله ودمر ما كان يصنع فرعون وملأه.

إن قصة موسى عليه السلام لها أهمية عظيمة في حياة الأمة الإسلامية، فهي تبين طبيعة الطريق الذي سوف تسير فيه الأمة الإسلامية إن أرادت أن تنهض من كبوتها لتسود العالم بتعاليم الإسلام التي أنزلها الله في كتابه، ولقد رأينا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الصور جميعاً من الابتلاءات وكيف وصلت إلى أشدها في غزوة الخندق.

ولم تنتهى قصة موسى عليه السلام عند هذا الحد، بل كان هناك أنواع أخرى من الابتلاءات مع قومه حتى يسيروا على منهج الله ولكنى أكتفى بما ذكر سابقاً خوفاً من الإطالة.

ثالثاً: ابتلاء الصحابة فى غزوة الخندق

كعادة اليهود فى الغدر والخيانة وفى حياكة المؤامرات، فقد ساءهم أن يستقر المسلمون فى المدينة بعد غزوة أحد، وطرد قبائل من اليهود نتيجة خيانتهم إلى حصن خيبر، فشرع اليهود لتدبير مكيدة تستأصل المسلمين، وتقضى عليهم تماماً، فخرج من زعمائهم عشرون رجلاً، ذهبوا إلى مكة لمقابلة سادات قريش ليحرضوهم على غزو رسول الله ﷺ وتدمير المدينة، ووعدوهم بأنهم سيكونون معهم وينصرونهم، فوافق زعماء قريش فهم أيضاً يتحرقون ضد المسلمين، ثم إنطلق بعد ذلك وفد اليهود يطوف فى قبائل العرب يدعوهم ويجمع كلمتهم لمحاربة المسلمين، فاستجاب لهم خلق كثير، وتجمع من قبائل العرب جيش عظيم وصل عدده إلى عشرة آلاف مقاتل، مُدججين بالسلاح، وبمقاييس هذا العصر، كان العدد هائلاً، ربما يزيد عن عدد كل أهل المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ.

وصلت الأنباء إلى رسول الله ﷺ فى المدينة بالخبر، فسارع الرسول ﷺ إلى عقد مجلس الحرب لإستشارة الصحابة فى طريقة الدفاع عن المدينة، فاتفقوا على رأى سلمان الفارسى رضى الله عنه، بحفر خندق حول المدينة يمنع الجيش المعتدى من العبور.

كانت الفكرة ممتازة وجديدة لا يعرفها العرب، وبالتالي ستكون مفاجأة عظيمة للمعتدين تكسر حماسهم للقتال، وتردعهم عن محاولتهم إقتحام المدينة، وبدون قتال مباشر بين هذا الجيش العظيم وجيش المدينة الذى كان يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل، فتحرك رسول الله ﷺ على وجه السرعة مع مجموعة من صحابته لإستطلاع أطراف المدينة لتحديد المكان المناسب لحفر هذا الخندق، وتم تحديد الجانب الشمالى منها، وذلك لأن الجوانب الأخرى محمية بحماية طبيعية تمنع الجيش من النفاذ من خلالها، بالإضافة إلى أن منطقة الجنوب الشرقى للمدينة محمية بديار بنى قريظة (وهم يهود على عهد مع رسول الله ﷺ بالدفاع المشترك عن المدينة ضد أى مُعتدى)، وقد أرسل إليهم رسول الله ﷺ رسالة لتأكيد العهد معهم، وليكون

على يقين أنهم لن يخونوا عهدهم فينفذ جيش المشركين من خلال ديارهم لمهاجمة المدينة، فأكدوا أنهم على العهد.

أصدر رسول الله ﷺ قراراً بحفر الخندق شمال المدينة ليغلق المسافة بين الهضبة الشرقية والهضبة الغربية (الحرّة الشرقية^(١) والغربية)، الموجودتين على جانبي المدينة، وتم ذلك بإستخدام أدوات الحفر البسيطة كالمعول وغيره، فلم تكن هناك وسائل حفر حديثة، وبالنظر إلى طبيعة الأرض الصخرية، وأنه يجب تنفيذ الحفر في فترة زمنية محددة قبل هجوم جيش المشركين وإلا ضاع كل المجهود هباء، فإن المهمة لم تكن سهلة، ولكن قام المسلمون بجد ونشاط بتنفيذ الحفر يساعدهم في ذلك رسول الله ﷺ بنفسه، فكان يحمل التراب الناتج عن الحفر وينقله على كتفه، وكان يشجعهم ويشد من أزرهم، فعن أنس رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة.

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً^(٢)

وكان يردد معهم الأناشيد الحماسية لتشجيعهم على العمل فكان يرتجز بكلمات عبد الله بن رواحة رضى الله عنه، وهو ينقل من التراب، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الإلى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا^(٣)

(١) هضبة طويلة ممتدة شرقى المدينة، فيها مجموعة تلال، وفيها أراض منبسطة، وجزءاً كبيراً من سطحها مغطى بصخور وحجارة بركانية سوداء تجعلها شديدة الحرارة في الصيف

(٢) رواه البخارى كتاب المغازي

(٣) رواه البخارى كتاب المغازي

وزاد على شدة التعب من الحفر ساعات طويلة يومياً ، ما عاناة الصحابة من شدة الجوع ، فقد أخبر أنس رضى الله عنه عن حال طعام أهل الخندق فقال : يؤتون بملء كفى من شعير ، فيصنع لهم بإهالة سَنَخَة^(١) توضع بين يدي القوم ، والقوم جياع ، وهى بشعة فى الحلق ولها ريح مُنتن^(٢).

ومن شدة الجوع كان صحابة رسول الله يربط أحدهم حجر على بطنه ليقفل من أثر الجوع ، وعندما إشتكى بعضهم لرسول الله ﷺ ذلك ، كشف عن بطنه فإذا هو يربط حجرين من شدة الجوع.

أحاط بالمسلمين فى فترة الحفر ابتلاء شديد بين جوع وبرد وخوف من قدوم الأعداء ، وتعب وإرهاق جسدى شديد ، إلا أنهم صبروا مع رسول الله ﷺ ، فما وهنوا وما إرتدوا على أعقابهم ، وإكتمل حفر الخندق حسب البرنامج المُعد وقبل أن يصل جيش المشركين.

ثم أقبل جيش المشركين ، ولندع رب العالمين فيصف لنا المشهد العظيم فيقول تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ ﴾ (الأحزاب: ١٠ - ١٣) ، ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب - ٢٢).

جاءت جيوش الكفر بحدها وحديدها تُريد إستئصال المسلمين ، وكان لمجيئها وقع عظيم على نفوس المسلمين ، وزلزلوا زلزالاً شديداً فظهرت حقائق ما فى أنفسهم.

(١) (فيصنع لهم الشعير) أى يطبخ ، وقوله (بإهالة) : الدهن الذى يؤتدم به سواء كان زيتا أو سمنا أو شحما . وقوله (سنخة) أى تغير طعمها ولونها من قدمها ، ولهذا وصفها بكونها بشعة ، المعانى من

فتح البارى شرح صحيح البخارى

(٢) رواه البخارى كتاب المغازي

من فوقكم: من قبل نجد و موقعها الجغرافى موقع علو بالنسبة للمدينة.
ومن أسفل منكم: من مكة وموقعها الجغرافى منخفض بالنسبة للمدينة.
زاغت الأبصار: (الإضراب النفسى الذى أحدثه الخوف الشديد، جعل الأبصار
تزيغ، والبصر متى زاغ فسدت رؤيته فرأى غير الحقيقة، وجعل الأفكار تضطرب،
ومع الإضطراب تأتى الأوهام، وتأتى واردات الظنون الباطلة)^(١).

وبلغت القلوب الحناجر: تعبير أدبى رفيع فى وصف حالتهم، ويبدو فيه أن
المبالغة أحد عناصره الكبرى، فهو تعبير مُطابق لمشاعرهم بصدق فنى كامل، إذ هو
يكشف حالة مشاعر أنفسهم بصدق، إن الخائف الذى يمسه الذعر الشديد، يشعر
بأن قلبه قد إنشمر مُنقبضاً إلى حنجرتة، فيكاد يختنق، مع أن القلب لم يبرح مكانه
فى الصدر^(٢).

وزلزلوا زلزالاً شديداً: أى أنهم تعرضوا لابتلاء شديد، هزهم هزاً عنيفاً، ووصل
إلى أعماقهم فأخرج ما تكن صدورهم من سرائر، فظهر إيمان المؤمنين، وظهر نفاق
المنافقين.

وفى المقابل كانت مفاجأة عظيمة لجيش المشركين أن يروا مثل هذا الخندق وقد
جالت فى خواطرهم الآمال والأحلام بأنهم من القوة أنهم يستطيعون أن يقضوا على
المسلمين، لقد إستعد المسلمون جيداً، وأعدوا أنفسهم لتحمل هذه الهجمة الشرسة
من أعداء الله وأعداء أوليائه.

لم يستطع جيش المشركين عبور الخندق ف ضربوا الحصار حوله أملاً أن يجدوا
ثغرة يستطيعون منها النفاذ إلى الجانب الآخر، وفى هذا الوقت كان رسول الله ﷺ
وصحابته الكرام على الجانب الآخر من الخندق يحاولون حمايته حتى لا يأخذهم

(١) بصائر للمسلم المعاصر ١٠٨ د. عبد الرحمن الميدانى

(٢) ظاهرة النفاق (١ / ٣٩٣) د. عبد الرحمن الميدانى

المشركين على غرة، وكان شعار المسلمين (حم لا يُنصرون)^(١)، بينما بقى فى المدينة النساء والأطفال وإستخلف عليهم عبد الله بن أم مكتوم.

إستمرت حملات المشركين حول الخندق تبحث عن ثغرة للعبور، أو مكان يستطيعون ردمه بعيداً عن أعين المسلمين فيكون وسيلة للعبور، إلا أن المسلمين كانوا مُتيقظين لذلك ليلاً ونهاراً، يرشقونهم بالسهام، حتى لا يجترئوا على الإقتراب من الخندق، ومن شدة إنشغال المسلمين فى رد هجمات وحملات المشركين لعبور الخندق، فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين، ففى الصحيحين عن جابر رضى الله عنه: أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، جاء يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش، فقال: يا رسول الله ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبى ﷺ: (والله ما صليتها)، فنزلنا مع النبى ﷺ بظلحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب.

وفى مسند أحمد والشافعى أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فصلاهن جميعاً، قال النووى: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أياماً فكان هذا فى بعض الأيام وهذا فى بعضها^(٢).

ولم يتوقف الأمر على هذا الهجوم الشرس القوى من الكافرين، بل كان هناك تخزيل المنافقين وتفريقهم لوحدة الصف المسلم، بالإضافة إلى خيانة اليهود لعهدهم مع رسول الله ﷺ.

• تخزيل المنافقين: عندما عظم البلاء واشتد الخوف، أظهر الله ما فى قلوب المنافقين: ﴿وَلَا يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، هذه المَقُولَة قالها المنافقون لتشكيك المسلمين فى دينهم وفى رسولهم ﷺ، فهم فى باطن الأمر كافرون بالله وبرسوله ﷺ، ولذلك ليس غريباً أن يسعوا لتشكيك المسلمين فى دينهم، وقد أخبر الله عن المنافقين فى موطن آخر أنهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا

(١) فى الحديث الصحيح (إِنْ بَيَّتُمْ فَلْيَكُنْ شِعَارَكُمْ حَم لَا يُنْصَرُونَ)

(٢) الرحيق المختوم

خَبَالًا وَلَا وُضْعُوا خَلَاكُمْ يَغْوَنَكُمْ الْفِتْنَةُ ﴿التوبة - ٤٧﴾.

وَلَا وُضْعُوا: أى أفسدوا، وفى الشر والضر أسرعوا

فيقال لغة: أوضع الرجل بين القوم إذا أسرع فى الإفساد بينهم^(١).

ثم نادت طائفة من المنافقين: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾، دعوة للتخلى عن رسول الله ﷺ والمؤمنين الصابرين المحتسبين معه، وهى تعبر عما يكنه قائلوها من نفاق وعدم إيمان وسعيهم الدائم لتفريق وحدة المسلمين، ويلاحظ هنا فلتات اللسان التى تعبر عما تكن صدورهم فهم قالوا ﴿يَا يَثْرِبَ﴾، فى الوقت الذى كان رسول الله ﷺ قد غير هذا الإسم الجاهلى فأصبح المدينة المنورة.

وجاءت طائفة أخرى تريد الفرار، ولا يرون جدوى من بقائهم (فهم غير مؤمنين بالله ورسوله أساساً)، فجاءوا ليستأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ﴿وَسَتَذْنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ أَنَّنِي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾، أى أن بيوتهم عرضة للسرقة والنهب لأنها ليست محروسة ولا مُحَصَّنَةً، ولكن الله يكشف كذب زعمهم، ويفضح سريرتهم، فأنهم إنما يقولون ذلك أملاً فى الهرب ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

• تخزِيلُ ضَعِيفِ الْإِيمَانِ:

بعض من المؤمنين، ضعيف الإيمان، ولا بصيرة له بالأمر، فيُحسن الظن بالمنافقين، فيجعله ذلك يُلقى السمع لإشاعات المنافقين: ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ (التوبة: ٤٧)، وهذا الصنف من ضعيف الإيمان يستسلم سريعاً للإرتياب والشك، ويتلقى الشائعات وينشرها، وفى هذا خطورة شديدة على الصف المؤمن، لأن ترديد ضعفاء الإيمان لكلام المنافقين قد يؤدى إلى خوف عام يصيب الناس جميعاً، فالخوف مثل العدوى التى تنتشر سريعاً بين الناس.

• خِيَانَةُ الْيَهُودِ:

فى الوقت الذى كان فيه المسلمون يواجهون هذه الشدائد بين تخزِيلِ المنافقون

(١) ظاهرة النفاق (٢ / ٢٤٥)

وهجوم المشركين، والتعب والجوع، والخوف، إذ باليهود كما هي عاداتهم ينقضون عهد رسول الله ﷺ، فقد كان هناك مُعاهدة دفاع مُشترك بين بنى قريظة من اليهود ورسول الله ﷺ، فكان يجب عليهم نُصرة رسول الله ﷺ، ولكنهم على العكس من ذلك فقد قاموا بإلغاء المُعاهدة من طرفهم فى هذا الوقت العصيب، وزادوا على ذلك أن تحالفوا مع الجيش المُعتدى، فبعثوا رجل منهم يطوف بالمدينة حيث المكان الذى يتحصن فيه نساء المسلمين وأطفالهم، حتى ينظرون كيف يستطيعون النفاذ، ولم يكن هناك من حامية تحمى نساء المسلمين، ورسول الله ﷺ وصحابته مشغولون فى الدفاع عن الخندق، فما كان من صفية بنت عبد المطلب عممة رسول الله ﷺ رضى الله عنها، إلا أن هاجمت هذا اليهودى وقتلته، وبذلك فقد حمت امرأة واحدة بشجاعة فائقة نساء المسلمين، وحمت أيضاً مؤخرة جيش المسلمين الذين لم يتوقعوا خيانة من جيرانهم اليهود، ونتيجة لقتلها هذا اليهودى فقد ظن اليهود أن هناك حامية فى المدينة هى التى قتلت هذا الرجل وبالتالي لم يُرسلوا غيره لإكتشاف الأمر.

ولما سمع رسول الله ﷺ بخبر بنى قريظة، أرسل مجموعة من صحابته، ليأتوا له بالخبر اليقين، وقال: (إنطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فألحنوا لى لحناً أعرفه، ولا تفتؤا فى أعضاء الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس)، فلما ذهب هذا الرهط من الصحابة وجدوا اليهود على أخبث ما يكونوا، فقد جاهدوا بالسب والعداوة لرسول الله ﷺ، وقالوا من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، فانصرفوا عنهم، وعندما أقبلوا على رسول الله ﷺ قالوا له قولاً يُفهم منه الخيانة، فقالوا: عضل وقارة (أى أنهم غدروا مثل غدر قبيلتى عضل وقارة بصحابة رسول الله سابقاً).

ولكن مثل هذا الخبر العظيم كان من الصعب إخفائه، فعلم المسلمون ما كان من غدر بنى قريظة، فأصبحوا كما يقال بين المطرقة والسندان، جيش المشركين من أمامهم، وبنى قريظة من خلفهم، ومهما قلنا من كلام فلن نستطيع أن نصف حالة الخوف والشدة التى ضربت المسلمين فى هذا الوقت العصيب مثل ما قال تعالى

عنهم: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَكَلَّغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١٠﴾ هَٰذَاكَ أَبْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾، إشتد البلاء على المسلمين وأحاط بهم من كل جانب، ولكن نصر الله قريب من المؤمنين، بشرهم رسول الله ﷺ وقال: (الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، بفتح الله ونصره).

فهبأ الله لهم فى هذا الوقت رجلاً يقال له نعيم بن مسعود رضى الله عنه، جاء مسلماً إلى رسول الله ﷺ، ولم يعلم قومه بأمره، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما إستطعت، فإن الحرب خدعة)، فإستطاع هذا الصحابى الكريم بمفرده أن يوقع الخلاف بين اليهود وبين جيش المشركين المعتدى، فدبت بين صفوفهم الفرقة وخارت عزائمهم، ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، إهزم الأحزاب، اللهم إهزمهم وزلزلهم)^(١)، ودعا المسلمون أيضاً فقالوا (اللهم إستر عوراتنا، وآمن روعاتنا).

وعندما صبر المؤمنون، عندما جاهدوا باموالهم وانفسهم فى سبيل الله، وبذلوا كل ما يستطيعون بدون ضعف او إستكانة، وعندما تم تنقية الصف المؤمن من المنافقين وظهروا عياناً للناس، جاء المدد وجاء النصر الربانى فى صورة ريح شديدة، لم تترك لجيش المشركين خيمة إلا إقتلعتها، ولم تترك لهم قدراً إلا قلبته، ولم تترك لهم ناراً إلا أطفأتها، وعندما إشتد عليهم الأمر أخذوا قرار الرحيل وفك الحصار عن المدينة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝﴾، نعم لله الفضل والنعمة التى أنعمها على المؤمنين بالنصر بعد الشدة، والأمن بعد الخوف ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ۝﴾ (الأحزاب - ٢٥).

روى الإمام مسلم فى صحيحة أن رجلاً قال عند حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت.

فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقر^(١)، فقال رسول الله ﷺ (ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟) فسكتنا، فلم يجبه منا أحد.

ثم قال: (ألا برجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟) فسكتنا، فلم يجبه منا أحد.

ثم قال (ألا برجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة؟) فسكتنا، فلم يجبه منا أحد.

فقال: (قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم) فلم أجد بداً إن دعاني باسمي أن أقوم. قال: (اذهب فأتني بخبر القوم ولا تدعهم علي)، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام^(٢)، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار، فوضعت سهمي في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله (ولا تدعهم علي) ولو رميته لأصيبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيت فأكبرته بخبر القوم وفرغت، قررت، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال (قم يا نومان)^(٣).

نعم كان بالصحابه من الخوف الشديد والجوع، ما يمنعهم من أن يتحركوا من أماكنهم فضلاً أن يترك أحدهم مكانه، ويذهب فيتجاوز الخندق في هذا الليل المظلم، والريح العاصفة، ويدخل معسكر المشركين ليأتي بخبرهم، ولقد ضمن رسول الله ﷺ الرجوع لمن سيذهب، بل وسيكون رفيقه في الجنة، ولكن الخوف الشديد كان يغلب عليهم.

جاء النصر من عند رب العالمين بعد أن صبر المسلمون ما يقارب الشهر على حصار شديد من المشركين في ظل برد وخوف وجوع، حتى يختبرهم رب العالمين

(١) برد، ومنها قوله قررت، أي بردت (أحس بالبرد)

(٢) أي أنه لم يشعر بالبرد، ولا بالريح الشديدة، فقد عافاه الله منهما ببركة إستجابته لأمر رسول الله ﷺ

(٣) رواه مسلم ١٧٨٨

وينقيهم من الداء الموجود بينهم وهو فريق المنافقين، ويعددهم أيضاً لإنطلاقة قوية (الآن نَغْزُوهم وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ).

إنتهى ابتلاء غزوة الأحزاب، بنصر وتمكين من الله للمؤمنين، ورد الله كيد المشركين، والكافرين، والمنافقين، فأفسد تدبيرهم، وأبطل كيدهم، وجعل خيانة اليهود حسرة عليهم، ولم يتم كل ذلك إلا بصبر ومصابرة المؤمنين، ويقينهم بالله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (الأحزاب- ٢٥)، نعم الله قوى لا يغلبه غالب، فينصر من يشاء، عزيزاً، فينتقم ممن يريد كيفما يريد وعندما يريد.

ولعل فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ، إشارة للمؤمنين أن الغلبة والقوة والعزة لله، مهما اجتمعت قوى الشر، ومهما دبرت من خطط ومكائد، وما على المؤمنين إلا أن يحسنوا الظن بالله، وأن يعملوا ما بوسعهم حتى يستحقوا معونة القوى العزيز.

رابعاً: الابتلاء فى قصة أصحاب الأخدود

عن صهيب رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلى غلاماً أعلمه السحر. فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان فى طريقه، إذا سلك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه. فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسنى أهلى، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسنى الساحر.

فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم، إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس.

فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أى بنى أنت اليوم أفضل منى، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي.

وكان الغلام يبصرى الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع، إن أنت شفيتنى. فقال: إني لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي.

قال: ولك رب غيرى؟

قال: ربي وربك الله.

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجئى بالغلام، فقال له الملك: أى بنى! قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل.

فقال: إني لا أشفى أحدا، إنما يشفى الله.

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجئ بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى، فدعا بالمشار، فوضع المشار على مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جئ بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جئ بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال:

انهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه.

فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: انهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاخذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا.

وجاء يمشى إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به.

قال: وما هو؟

قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم، فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام.

فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرک قد آمن الناس. فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فخذت، وأضرم النيران، وقال : من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له، اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتعاسست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبرى، فإنك على الحق^(١).

الرسائل التى يجب أن نتعلمها من هذا القصة:

١ - أن قصة أصحاب الأخدود صورة من صور الابتلاء العظيم الذى قد يُصيب المؤمنين، ولكن دون أن يكون هناك نصر وتمكين لهم تراه الأعين، هم إنتصروا بثباتهم نعم، هم كانوا على الحق نعم، ولكن الرسالة التى ينبغى أن تفهمها أخى الكريم، أن الله يُمكن لمن يشاء كيفما يشاء، وعندما يشاء، وأن الثبات على الإيمان، والموت عليه هو من النصر العظيم للمؤمنين الذى ينالون به رضا الله والجنة، وهذا من عظيم الشرف للمؤمنين، حتى وإن لم يرى الناس ذلك، ولذلك نجد أن الصبي الصغير يقول لإمه اصبرى، فإنك على الحق، فى الوقت الذى يُساقون فيه إلى الموت، وبالتالي فما عليك إلا الصبر والثبات أما النتائج فهى بإرادة الله يُحققها كيف يشاء.

٢ - أنه عندما تزيد مكانتك فى دين الله سوف يزيد عليك الإبتلاء، فالابتلاء يُصيب عامة المؤمنين، ويصيب بزيادة الدعاة منهم، وذلك لأن الظالم يرى أنه إن استطاع أن يُضل الداعية عن طريقه، فسوف يتبعه الباقين، ولذلك نجد أن الملك لم يقتل الغلام مباشرة، بل كان يرجو أن يرتد عن دينه، وهو شاب صغير أمامه عمر طويل، فيكون سبباً فى رجوع فريق المؤمنين به عن دينهم هم أيضاً.

٣ - حتى المؤمن الواثق فى دينه، قد يخاف من بطش الظالمين، وهذا نراه فى قول الراهب (فإن ابتليت فلا تدل علي)، ولكن هناك فرق بين الخوف من عبد من

(١) رواه مسلم برقم ٣٠٠٥

عبيد الله، وأن تترك دينك أو تتنازل فيه وتعرض نفسك لعقاب الله، وهو شديد العقاب ولذلك، عندما طُلب من الراهب أن يترك دينه وإلا قتل، رفض التنازل عن دينه (فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه).

٤ - أن الداعية له هم وله رسالة يحملها في عقله وقلبه، ويسعى إلى تحقيقها مهما كانت صعوبة الطريق، ومهما كان شدة الابتلاء حتى لو أدى ذلك إلى مقتله، ولذلك نرى أن هذا الغلام قد ضحى بنفسه، وأرشد الملك على الوسيلة الوحيدة لقتله (وقد يكون ذلك إلهام من الله له)، في سبيل أن يؤمن الناس بالله رب العالمين.

٥ - أن الثبات على الإيمان يكون بفضل الله ومعونته، ليس بعلم ولا بقوة شخصية ولا بخبرة عملية، فالله يُدافع عن عباده المؤمنين، يلهمهم الصبر، ويسوق لهم من البُشريات ما يُمكنهم من الثبات على طريق الحق، وهذا ما نراه من قول الصبي بأمر الله لإمه: (يا أمّه اصبرى، فإنك على الحق).

والآن بعد أن علمنا بعض أسباب ابتلاء الله لنا، وكيف يمكن أن يكون هذا الابتلاء، وكيف تعامل المؤمنين الصادقين مع الابتلاء، يبقى الجزء الأخير وهو كيف نستطيع اجتياز اختبار الحياة الدنيا بنجاح حتى نكون من الفائزين؟

كيف ننجوا فى الابتلاء التى نتعرض لها؟

كما أنه لإجتياز الإختبارات الدراسية يحتاج المرء إلى إعداد وتجهيز وبذل جهد ووقت، فإن الفوز فى اختبار الحياة الدنيا يحتاج كذلك من المؤمن إلى إعداد وتجهيز للتغلب على الابتلاءات، ولذلك كان لابد للمؤمن الحريص أن يكتشف الطرق والوسائل التى يمكن أن تقوده إلى النجاة من هذه الإختبارات (الابتلاءات) التى سيقع فيها، ومن هذه الوسائل مايلى:

١ - فهم حقيقة وجودك:

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون - ١١٥).
 أعلم أنك خلقت إلى غاية عظيمة، خلقك رب العالمين لكى تحقق العبودية الكاملة له سبحانه بإرادتك الحرة، ووضعك فى هذه الحياة الدنيا فى موضع إختبار، فالحياة الدنيا ليست دار مُستقر، لكى تجعلها كل همك، وتسعى إليها ليل نهار، بل أنت فيها كما صور حالك رسول الله ﷺ كعابر سبيل إستظل بظل شجرة، ثم تركها ورحل، فأنت راحل لا محالة عن هذه الحياة الدنيا ليُحاسبك الله على ما قدمت فيها، ستقف أمام رب العالمين وتنظر يميناً ويساراً لعلك تجد ما يُنقذك ولكن هيهات، ستجد فقط عملك، وبالتالى، إن كنت عاقلاً حقاً، فاستمع لنادى رب العالمين، إتجه بعقلك وقلبك تجاهه وإبحث بنفسك عن مُراد الله فيك، عندها وعندها فقط ستنجح إن شاء الله فى اختبار الحياة الدنيا أياً كان ما فيه من صعوبات، فطالما أنت بجوار الركن الشديد، طالما أنت بجوار القوى المتين، الفعال لما يريد، فلا تخف ولا تيأس، فإن رحمة ربك قريب من المحسنين.

٢ - فهم طريقك من البداية:

الطريق إلى الله، ما أجمل هذه العبارة، أن ينتبه الإنسان أنه ينبغي عليه أن يسير في طريقه إلى الله، فهو طريق في نهايته الخلد في جنة الرحمن، ولكن... في طريقك إلى الله، هناك عقبات لا بد أن تجتازها أولاً، هناك إبتلاءات، هناك أعداء يتربصون بك من كل جانب، لا همّ لهم إلا صدك عن سبيل الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ (سبأ: ٣٣)

هناك شهوات تصطرع في نفسك التي بين جنبيك، هناك شدائد ستجعل من طريقك شاقاً وصعباً.

إن إخترت السير على منهج الله، فأنت على الصراط المستقيم، وهذه هي القوة الحقيقية التي يريد بها الإسلام من أتباعه، القدرة على السير في الطريق إلى الله مهما كانت الظروف والصعوبات.

إن معرفة هدفك (أن تسير على منهج الله كما أراد الله) وطبيعة طريقك إبتداءً، يجعل لك قدرة عالية على فهم مراد هذا الدين، وقدرة عالية على إحتمال صعوبات الطريق وعوائقه.

إن إستقرار حقيقة أن الله خلقنا لتحقيق العبودية له وحد سبحانه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، مع فهمك لطبيعة الحياة الدنيا التي نعيش فيها من مُنطلق قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فإنه:

إنطلاقاً من المبدأ الأول:

أى نحن خُلِقنا للعبادة، هذا المبدأ سوف يقود المسلم ليعود سريعاً إلى طريق الله إذا ارتكب معصية أو حاد عن الطريق، وذلك لأن النفس سريعة التقلب، فهي تتقلب بين طاعة ومعصية، تدفعها شهوة بعيداً عن سبيل الله، وتردها توبة إلى طريق الله، هذه هي طبيعة نفس المسلم، وحتى في معصيته لله، فإن قلبه ينتفض

خوفاً من عقاب الله ويرجوا لو يتوب الله عليه، لذلك فإن هذا المبدأ سوف يعود به ثانيताً إلى الطريق الصحيح.

بينما إنطلاقاً من فهم المبدأ الثاني:

أى نحن خلقنا للاختبار فى ظروف الحياة الدنيا، ليرى الله من منا أفضل عملاً من الآخر، فستختلف نظرة المسلم إلى طبيعة الحياة الدنيا وسيفهم حقيقتها، وذلك لأن:

(أ) بمعرفة المسلم إبتدأ أن الله سيبتليه بأنواع من الفتن والمصائب، فهو يتهيأ نفسياً مقدماً لما هو آتى، وبالتالي لا يفاجأ بما يجده من محن، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (الأحزاب - ٢٢).

(ب) كذلك فإن رؤية الحياة الدنيا من منطلق أنها إختبار، سيسهل على الإنسان إختيار الطريق الذى ينبغى أن يسير فيه، بين إتباع منهج الله الذى جاء به رسول الله ﷺ، وبين سبل الشيطان، وبالتالي عند وقوع المسلم فى الذنب ثم نزول الابتلاء عليه^(١)، فإنه سيربط مباشرة بين الابتلاء ومعصيته، فإما أن يقطع عن المعصية، وإما أن يخاف أن يرتكب معصية أخرى حتى لا يزيد عليه الإبتلاء، فيسارع إلى التوبة.

(ج) والنقطة الأخيرة أنه إنطلاقاً من هذا المبدأ عند تعرض المسلم للفتنة أو للابتلاء سوف يعلم لماذا حدث ذلك؟ وكيف يمكنه النجاة منه؟ فستختلف طريقة تعامله مع هذه الابتلاءات، وصدق الله إذ يقول ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر - ٩).

لذلك فإن معرفة حقيقة وجودك، وحقيقة أنك موجود على هذه الأرض، تخلف

(١) إنظر ابتلاء رفع الدرجات وتكفير السيئات فى هذا الكتاب

من قبلك من الأمم ليرى الله ماذا ستفعل فيما أمرك به، وفيما نهاك عنه، ستبين لك الطريق الذى يجب أن تسلكه، وتجعلك تفهم طبيعة هذا الطريق ابتداءً، فحياتنا كلها منذ بدايتها إلى نهايتها عبارة عن مجموعة من الفتن والابتلاءات المختلفة التى تتجه جميعاً نحو هدف واحد ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

فى بيعة العقبة الثانية، يُروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، أنه بعد أن سمعوا من رسول الله ﷺ:

قال: فقمنا إليه، فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغر القوم سناً فقال:

رويداً يا أهل يثرب! فإننا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خبيئة، فبينوا ذلك، فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا سعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نسلبها أبداً، قال: فقمنا إليه، فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة^(١)

هذه الكلمات التى قالها أسعد بن زرارة رضى الله عنه (على حادثة سنه) لم تكن تخذيلاً وتثبيطاً لقومه، بل تنبيهاً، وهو ممسك بيد النبى ﷺ يحجزهم عن بيعته، مخافة أن يكونوا لم يفهموا بعد الحقيقة، حقيقة هذا المنهج الربانى والمسئولية التى ستلقى على عاتقهم.

فقد بين لهم عاقبة الطريق الذى سيختارونه، (عداوة العرب، وقتل أشrafهم، وإعلان الحرب عليهم)، وكذلك الطريق الذى يجب أن يسلكوه فى تعاملهم، (إما الصبر على ذلك ولهم الجنة، وإما رفض ذلك إبتداءً)، كلمات واضحة تبين الفهم العميق لطبيعة هذا الدين وهذا المنهج، فأنت ستضحى وتصبر على ما يصيبك ولا تنتظر من ذلك غير ثواب الله.

(١) أخرجه الإمام أحمد

وفى ساعة العسرة، فى غزوة تبوك، خرج النبى ﷺ فى ثلاثين ألف من أصحابه، يجتازون صحراء قاحلة فى شدة حر الصيف، يقول عنها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه: خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا وأصابنا فيه عطش، **حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع**، حتى إن أحداً ليذهب فيلتمس الرّحل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بغيره فيعتصر فرثه فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده.

ونتيجة لقلّة الماء والمؤنة، وشدة الجهد، يقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (لما سار رسول الله ﷺ إلى تبوك جعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله تعالى منه).

مبدأ واضح وضعه رسول الله ﷺ، أن لن يقوم بهذا الدين إلا من كان فيه خيراً يرشده إلى الإتجاه الصحيح الذى ينبغى له أن يسير فيه، فيستحق بذلك معونة رب العالمين.

فمن كان فيه خير فسيلحق بهذا الركب العظيم، ركب محمد ﷺ وحزبه، فى السراء والضراء، وفى العسر واليسر، وإلا ففى الصنف الآخر، الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، وإرتضوا بالحياة الدنيا بديلاً عن الآخرة. أن تسير على منهج الله، أى أن تكون على علم بطبيعة الطريق وأن تكون لك مبادئ راسخة تضعك دائماً على الطريق الصحيح، لا تتذبذب ولا تضعف أمام الحوادث المختلفة.

أن تسير على منهج الله، أى أن تقوم بالفعل الصحيح ولا تخشى فى الله لومة لائم.

٣ - اليقين بالله والتوكل عليه:

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ (النمل - ٧٩)

عندما ترك خليل الرحمن إبراهيم، السيدة هاجر وإسماعيل في صحراء جرداء، بدون زاد وبدون مأوى، قالت له: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شئ؟!!

فقالت له ذلك مراراً وتكراراً، وجعل لا يلتفت إليها.
فقالت له، الله أمرك بهذا؟ قال نعم.

قالت: إذن لا يضيعنا^(١).

إذن لا يضيعنا.....

هو يقين يملأ قلب صاحبه، أن الله مُطلع يسمع ويرى، ولن يضيعه.

يقين يمنع صاحبه من الشك فى طريقه الذى يسير عليه.

يقين يمنع صاحبه من الضعف والتردد والزلل.

يقين يمنع صاحبه من العجز والجبن والكسل.

كان سهل بن عبد الله، يقول: (حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه

سكون إلى غير الله)^(٢).

إذا! لماذا اليقين بالله؟

يحافظ اليقين بالله على إستقرار نفسك وطمأننتها، وثقتها بأن الله لن يخلف

وعده، وأن الله سيجعل لك فرجاً ومخرجاً مهما كان العسر شديداً.

يساعد اليقين على ثباتك على الطريق الذى تسير فيه، فلا تياس ولا تُبدل

ولا تُغير سبيلك نتيجة شدة الابتلاء.

(١) جزء من حديث رواه البخارى

(٢) بستان العارفين للنووى

يقول ابن القيم رحمه الله: (ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة - ٥) منزلة اليقين، وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعمل القوم إنما كان عليه، وإذا تزوج الصبر باليقين، ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤)، ومتى وصل اليقين إلى القلب، إمتلاء نوراً وإشراقاً، وانتفى عنه كل شك وريب، وهم وغم، فإمتلاء محبة لله، وخوفاً منه، ورضى به، وشكر له، وتوكلاً عليه، وإنابة إليه^(١).

عندما هاجر المسلمون إلى الحبشة، وإطمئنوا بأرضها، رأت قريش أن يبعثوا رجلين إلى النجاشي ملك الحبشة، ليرداهم عليهم، ويخرجهم من أرضه. فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقتة.

وعندما أحس عمرو بن العاص أن النجاشي لن يُسلم له المسلمون، قال (والله لأتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم).

فقال له عبد الله بن أبي ربيعة: لا نفعل فإن لهم رحماً وإن كانوا قد خالفونا. قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد. وفي اليوم التالي ذهب عمرو للنجاشي وقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً.

فأرسل النجاشي إليهم ليسألهم عنه.

وفي هذه اللحظة وقع المسلمون في ابتلاء شديد، فقد هاجروا من التعذيب والمعاناة في مكة، والآن هناك مكيدة تحاك على الملك الذي يعيشون في أرضه حتى يطردهم منها، فماذا سيكون الرد في سؤال إجابته ضد إعتقاد النصاري حيث دينه وملته. أخذ المسلمون هناك يتشاورون، ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟

قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائننا في ذلك ما هو كائن.

فلما دخلوا على النجاشي، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه: نقول فيه الذى جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول. فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، إذهبوا فأنتم شيوم^(١) بأرضي، من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لى دبراً^(٢) من ذهب وأنى أذيت رجلاً منكم. هذا هو جوهر اليقين بالله، لما توكلوا على الله واعتزوا به، أيدهم بحفظه، فلم يمسسهم سوء، رغم شدة المكيدة، ورغم تربص الحاقدين، وصدق الله القائل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق - ٣).

وفي مشهد آخر من مشاهد اليقين بالله، مشهد عظيم صوره القرآن، سحرة فرعون يأتون بسحرهم ليتحدوا به رسول الله موسى ﷺ، ويقسموا بعزة فرعون إنهم هم الغالبون، فما علموا من إله لهم غيره، ولكن بمجرد تصديقهم بالحق الذى جاء به موسى ﷺ، ونزول الإيمان فى قلوبهم، ينقلب الحال، ويظهر الإيمان فى صورة يقين عجيب، يقين بالله رب العالمين، صابرين محتسبين طغيان فرعون عليهم، قال تعالى عن حالهم: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ (٤٦) ﴿قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (٤٨) ﴿قَالَ ءَأَمْنَتُمْ لَهُ فَقُلْ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٩) ﴿قَالُوا لَا صَبْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (٥٠) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥١) (الشعراء: ٤٦ - ٥١)

وفي سورة طه يخبر الله عن مدى يقينهم، وذلك فى قوة خطابهم لفرعون، فيقول تعالى ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِ هَٰذِهِ الْحَيَاةَ

(١) الأمنون

(٢) أى جبل من ذهب

الدُّنْيَا ﴿٧٦﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ ﴿طه: ٧٢ - ٧٣﴾
وأنت في إتباعك لمنهج الله سوف تُبتلى بمن يسخر منك، ومن يؤذيك، ومن يسبك، ومن يخوفك بسلطانه، ومن يقاتلك، وستشعر بألم الغربة حتى وأنت في بلدك وبين معارفك، ولكن اليقين بالله أكبر من الألم، اليقين بالله أكبر من المعاناة، اليقين بالله أكبر من الخوف، هذا اليقين أشبه بالجبال التي تُثبت الأرض حتى لا تميد ولا تتمايل عن مسارها الذي قدره الله لها، وكلما عظم يقين المؤمن، كلما إشتد ساعده، وقويت نفسه، فلا يخضع لإغراء فتنة، ولا يخضع لشدة إبتلاء، قال تعالى:
﴿وَكَانَ مِنْ نَجِيِّ قَتْلٍ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ (آل عمران - ١٤٦).

وعند الله، عندما يُنصب الميزان، ويصطف الناس للحساب، سيكون هناك شأن آخر بينك وبين من ظلمك، ستكون أنت في منزلة جند الله، وهو في أحقر المنازل، أنت في أعلى عليين، وهو (إن لم يتب) في أسفل سافلين، قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٤١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْوَمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٤٤﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا سَحَّجَ ﴿٤٦﴾﴾ (المطففين: ٢٩ - ٣٦).

نعم الجزاء من جنس العمل، الله الواحد، خلقنا وخلق للمؤمن دار خُلد يعيش فيها أبداً، لا يذوق فيها نصب ولا هم ولا حزن، ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ (الحجر: ٤٦ - ٤٨).

فاليقين اليقين، إن الله حافظ دينه وحافظ عباده المؤمنين، وما الإبتلاء إلا فترة عابرة في عمر المؤمن، يتبعها راحة أبدية في جوار الرحمن، وقد جاء دورك الآن لتثبت إيمانك بالله ويقينك به.

٤. تغيير ما فى نفسك أولاً:

فهمت حقيقة وجودك، وفهمت طبيعة الطريق الذى ستسير فيه، ولديك اليقين بالله أنه لن يُضيعك، أعلم أنه ينبغى عليك أن تُعد نفسك داخلياً إعداداً صحيحاً لتحقيق مُراد الله فيك.

إن مفتاح تغيير الأمر الواقع، والابتلاء الذى تعيشه أنت الآن والذى تعيش فيه الأمة الإسلامية، من وهن وضعف، يقبع داخل نفسك أنت، فى الفئة المؤمنة التى أخذت على عاتقها الدعوة لدين الله وحمل منهجه والعمل به.

لقد سبق صحابة رسول الله ﷺ لأن الغالبية العظمى منهم، فقهوا بمجرد إسلامهم المطلوب منهم فى دين الله، فبمجرد إسلامهم تحولوا لدعاة فى سبيل الله، وتحولوا لمقاتلين فى سبيل الله، وجعلوا من كل حياتهم الدنيا وسيلة لبلوغ الدار الآخرة، كائناً فى ذلك ما كان، فقد باعوا أنفسهم وأموالهم لله رب العالمين.

إن أنت تغيرت داخلياً، وإتخذت خطوات عمليه، لتغيير ما فى نفسك أولاً، وتنقيتها من كل شئ يقف حائلاً بينها وبين السير على منهج الله، إن فعلت ذلك، فاعلم أن نصر الله سيكون معك مهماً كانت الظروف من حولك، سنة الله الذى قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقَوْمٌ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد - ١١)

يقول الأستاذ جودت سعيد (من المفارقات، أن نتطلع بشوق إلى تغيير الواقع، دون أن يخطر فى بالنا، أن ذلك لن يتم إلا إذا حدث التغيير قبل ذلك، بما بالأنفس، ونحن مطمئنون إلى ما بأنفسنا، ولا نشعر أن كثير مما فيها، هو الذى يعطى حق البقاء لهذا الواقع الذى نريد أن يزول، ونحن نشعر بثقل وطأته علينا، ولكن لا نشعر بمقدار ما يساهم ما فى أنفسنا لدوامه وإستمراره، فهذا ما يريد القرآن أن يُعلمه للبشر، فى تفسير ما يحل بهم، حين يلح فى إظهاره، أن مرد المشكلة إلى ما بالأنفس، وليس من الظلم الذى يحيق بالإنسان من الخارج، بل من الظلم الذى ينزله

الإنسان بنفسه، وهذا هو لب التاريخ وسنة الإجتماع، الذى يقرره القرآن^(١). عند وقوع الابتلاء فأنت فى مواجهة اختبار حقيقى، اختبار ستبنى به شخصيتك الجديدة وردود أفعالك القادمة فى المواقف المختلفة، وستتحدد به ملامح الحياة التى قررت أنت أن تحيا بها، ولذلك فإن الفترة البينية بين بداية الابتلاء ونهايته، تمثل تحدياً كبيراً للمؤمنين، وخاصة فى ابتلاء الدعوة وابتلاء التمكين، فبلنظر إلى النتائج المرجوة (نشر دين الله والتمكين له فى الأرض) مقارنتاً بالواقع الذى يعيشه المؤمنون، هناك فجوة كبيرة جداً، هذه الفجوة تؤدى عند بعض الناس إلى اليأس أن يأتى نصر الله على هذه الحالة، والبعض الآخر يعلم علم اليقين أن نصر الله آت، ولكن عجزه عن تغيير الأمر الواقع والذى يتطلبه بالضرورة تغيير ما بنفسه أولاً، يظهر جلياً فى ردود أفعاله، وسلوكه، فهو لا يفعل أى شئ للقيام بأسباب النصر والتمكين، نعم قد يرفع يده بالدعاء والتضرع، ويظن نفسه متوكلاً على الله، الله الذى أمره أن يأخذ بكل الأسباب أولاً، ويساند هذه الأسباب التوكل عليه سبحانه، ولذلك سيتأخر النصر حتى تتحرك هذه الفئة المؤمنة وتكتشف أين مواطن الخلل وتسعى فى إصلاحها حتى يأتى وعد الله.

إن المنهج ثابت، والطريق واضح وصريح لأنه من عند الله رب العالمين، ولكن الذى حدث هو أن تغير شئ ما بالنفس، فتغيرت طريقة إستقبالها للمنهج. ولذلك يجب على المؤمنين أن يسعوا جاهدين لإصلاح وتغيير ما بأنفسهم أولاً، تغيير طريقة إستقبالهم لمنهج الله، وتغيير نظرتهم للعالم المحيط بهم.

– إيماناً كاملاً بالله وبمنهجه ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُتِبِ الَّذِى نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ (النساء - ١٣٦)، (فهو إيمان بالله ورسوله، يصل قلوب المؤمنين بربهم الذى خلقهم، وأرسل إليهم من يهديهم إليه، وهو الرسول ﷺ، وإيمان برسالة الرسول وتصديقه فى كل ما ينقله لهم عن ربهم الذى أرسله. وهو إيمان بالكتاب الذى نزل على رسوله، يربطهم بالمنهج الذى اختاره الله

(١) حتى يغيروا ما بأنفسهم. جودت سعيد

لحياتهم وبينه لهم في هذا الكتاب، والأخذ بكل ما فيه، بما أن مصدره واحد، وطريقه واحد، وليس بعضه بأحق من بعضه بالتلقى والقبول والطاعة والتنفيذ (١). ثم يتبع الإيمان الكامل بمنهج الله، العمل بإجتهد، عمل دؤوب لتغيير الواقع المؤلم الذي تعيش فيه الأمة، حتى تسير على منهج الله، هذا العمل لا بد أن يكون قائم على أساس من العلم والمعرفة والخبرة.

- علم بالأمر الواقع بدون تهويل أو إقلال، وإحاطة به من كل جوانبه، وعلم بأعداء المؤمنين الحقيقيين وكيف يكيدون المكائد للقضاء على الإسلام والمسلمين. إن العالم المحيط بك ليس جميلاً، أو كريماً كما تراه أو تظنه، وذلك لأنك تراه من منطلق قيمك وقناعاتك الشخصية وهذا من أكبر الأخطاء التي قد يقع فيها مؤمن، يقول أحد قادة الغرب (إذا أردت أن تصنع السلام فاستعد للحرب) لقد فهموا وعملوا ما لم نفهمه نحن ولم نعمل به، إن الواقع يفرض عليك كمؤمن بالله أن تكون عاقل ذو فطنة لا تنخدع بالمظاهر ولا بالكلام المعسول والوجه الباسم الجميل، فيوجد خلف هذا المظهر المخادع وجه آخر قبيح، وجه ذئب جائع يود لو أن يدمرك تدميراً. وقد كرر رب العالمين في قرآنه الآيات التي توضح هذه المسألة مراراً وتكراراً لعلنا نسمع أو نعقل فقال:

- ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة - ٢١٧).
- ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ (البقرة - ١٠٩).
- ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

(آل عمران - ١١٨).

- ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة - ٨).

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً، ولذلك يقول رب العالمين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ

(١) في ظلال القرآن سورة النساء بتصرف

إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١﴾، نعم ماذا ينقصك بعد كل ذلك حتى تعلم تدبير عدوك وقرارة نفسه؟! **معرفة** بمستوى إيمان الصف المؤمن، وردود أفعالهم، وإستجابتهم فى المواقف المختلفة، حتى لا يغتر المؤمنون بعدد أو بعدة، ثم عند الاختبار الحقيقى لا يجدوا شئ يُرتكن إليه، وخير مثال ساقه رب العالمين إلينا لتعلم منه هذه المسألة، ما كان من بنى إسرائيل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ الْمَلِكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والسبب ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ ثم ما كان منهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٦)، وهذه من طبائع النفس البشرية، قد تأخذها الحماسة فى لحظة من اللحظات ثم تفتر عند مواجهة الواقع، لذلك يأمر الله نبيه الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال - ٦٤)، (إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها، وتفقه منهجها، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها، إنها تفقه حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وتفقه أن الألوهية لا بد أن تنفرد وتستعلى، وأن العبودية يجب أن تكون لله وحده بلا شريك، وتفقه أنها هى الأمة المسلمة المهتدية بهدى الله، المنطلقة فى الأرض بإذن الله لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وأنها هى المستخلفة عن الله فى الأرض، وكل ذلك فقه يسكب فى قلوب العصابة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين)^(١)

ولذلك فمن المعرفة، معرفة الأمور على حقيقتها المجردة، أن لن يقف معك ولن يساندك إلا من كان مؤمن بالله مثلك وفقط، مؤمن بقضيتك فيصبر معك فى المنشط والمكره.

ومثال على ذلك: إخوة يوسف عليه السلام كانوا أحد عشر، تأمر منهم عشرة عليه وألقوه فى البئر، بينما موسى عليه السلام كان له أخ وحيد، هارون عليه السلام، وقف معه وصدقه وسانده، وأشركه الله معه فى الأمر.

(١) فى ظلال القرآن سورة الأنفال

نحن نغتر بالعدد والكم، وهذا خطأ شديد، وذلك لأن الرجل المؤمن قد يعدل ألف مما سواه.

أما الخبرة: فأقصد منها دراسة التاريخ جيداً، وخاصة دراسة المراحل شديدة الصعوبة في عمر الأمة الإسلامية، ودراسة حياة وسلوكيات الشخصيات التاريخية المؤمنة والتي كان لها دور عظيم في تغيير مسار الأمة من ضعف إلى قوة، وأقوالهم الماثورة والتي عبرت مئات السنين حتى تصل إلينا الآن، وذلك لأنهم تعرضوا لمحن شديدة كما نتعرض نحن، وإستطاعوا الصمود والنجاح فيها، هذه الدراسة ستعطى لك بُعد نظر وفراسة في معرفة وتوقع الأمور، أكثر كثيراً مما لو لم تدرس هذا التاريخ.

وإن كان البعض يظن أن التعلم واكتساب الخبرة سوف يكون عن طريق التجربة والخطأ، فهو واهم لا محالة، ولن يجد الوقت لاكتساب هذه الخبرة، وسيتفوق عليه عدوه بمراحل، لماذا؟!!

لأن عدوك يتربص بك ويتجسس عليك، ولن يدع لك الفرصة لتقوم من كبوتك، أو تنهض من جديد، هناك دول، وأجهزة، ومؤسسات تعمل جاهدة من أجل طمس الإسلام ومحاربة أهله.

أنت كمؤمن لديك خبرات الأجيال السابقة، ما عليك إلا دراستها جيداً، وإستخلاص الحكم والعبر منها، وإلا لماذا كل هذا القصص القرأني عن الأمم السابقة؟!!

أنت كمؤمن مطالب بالتغيير، مطالب أن يكون تغيير الأمر الواقع همك الشاغل ليل نهار، كما أن أعداء الله، ويمكرون بك، ويمكرون للصد عن سبيل الله ليل نهار ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ (سبأ - ٣٣)، ولن يكون ذلك إلا أن تبدأ من الآن أن تغير ما بنفسك أولاً.

إجعل من التاريخ جاسوساً لك، يخبرك عن الطغاة وطبائعهم، وعن عدوك وكيف

يخطط لك، وعن المؤمنين وكيف نجحوا في اجتياز الصعاب، إجعل من التاريخ نوراً يضيئ لك الطريق فترى الأمور على حقيقتها، مجردة من الأهواء والزينة والخداع. سيجعل لك التاريخ بصيرة تحميك من الوقوع في الأخطاء، إن كنت مؤمناً حقاً، لأن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

وقد يسأل سائل، ما المطلوب تغييره؟!

في غزوة أحد، أخذ الرماة أمراً صارماً من رسول الله ﷺ، أن لا يبرحوا أماكنهم مهما حدث، سواء إنتصر المسلمون أو إنهزموا، كان أمراً واضحاً لا لبث فيه، ولكن عندما لاحت الدنيا لغالبية الرماة والمتمثلة في الغنيمة، بعد إنهمام المشركين، تركوا أماكنهم ولم يكتروا لأمر رسول الله ﷺ، وسارعوا إلى أخذ نصيبهم من هذه الدنيا، وهنا إنقلب الأمر، تحول النصر إلى هزيمة، وتحولت الفرحة إلى تعاسة وشقاء ومصيبة، فقد دارت الدائرة على المسلمين، وبعد فرارهم، رجع المشركون ليقتلوا المسلمين وأصابوا رسول الله ﷺ إصابة بالغة!!! ولكن كيف حدث هذا؟!

يُخبر رب العالمين في كتابه أن السبب في الهزيمة والمصيبة بعد قتل سبعين من صحابة رسول الله ﷺ والتمثيل بجثثهم كان: حب الدنيا، الذي أدى إلى عصيان أوامر رسول الله ﷺ من بعض الأفراد، وبالتالي حدث الإختلاف والفرقة والضعف، والنتيجة هزيمة المسلمين ونصر المشركين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَاعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ (آل عمران - ١٥٢).

كم كان جيش المسلمين؟

كم كان عدد الرماة الذين عصوا أوامر رسول الله ﷺ؟

كان عدد جيش المسلمين سبعمائة مقاتل.

كان عدد الرماة الذين عصوا أمر رسول الله ﷺ، أربعين مقاتل.

بنسبة ١٧ : ١ تقريباً.

بمعنى: أن من كل ثمانية عشر رجلاً هناك رجل واحد عصى الأمر بينما سبعة

عشر ظلوا على طاعتهم، ولكن النتيجة تُخبرنا أن معصية هذا الفرد أثرت أثراً كبيراً على مجموع الأفراد.

والأن يتجاوز عدد المسلمين المليار، كم فرد منهم مُلتزم بأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ؟

وحتى لا تذهب بعيداً وتجري حساباتك، إسأل نفسك، هل أنت شخصياً مُلتزم بأوامر الله وأوامر رسوله ﷺ كاملة بدون زيادة أو نقصان؟

هل أنت تطبق سنة رسول الله ﷺ كاملة، أم تطبق فقط ما يتوافق وطبيعة حياتك الشخصية؟ هل يُسيطر حب الدنيا والسعى لها على قلبك؟ أم أن الآخرة هي شُغلك الشاغل؟

إجابة هذه الأسئلة ستحدد لك ما المطلوب تغييره في نفسك أولاً، حتى يأتي نصر الله ويُرفع البلاء عن الأمة كاملة.

٤ - الإستعانة بالصبر :

- (قَدَّرَ اللهُ وما شاءَ فعَلَ) إن الله هو المُدَبِّرُ، لا بد ان تضع هذا في قرارة نفسك، وبالتالي فإن الله هو الذى ساق إليك هذا الإبتلاء، وهو الذى ساق إليك هذه الأحداث التى تمر بك تحديداً، إن الله هو الذى دبرها لك لحكمة يعلمها سبحانه، وقد تعلم أنت أسبابها لأنك أدركت نفسك، وأنت كمؤمن عليك الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره، مع البحث عن أسباب هذا الإبتلاء حتى تحقق مُراد الله فيرفعه الله عنك.

- ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدر - ٧)، إشارة إلى رسول الله ﷺ، وإلى من سار على نهجه أن هناك ابتلاء على طريق الدعوة، فليس الأمر يسير كما قد يظن المرء، بل هناك ألم، هناك معاناة، هناك هوان على الناس، بما يتضمنه من سخرية وإستهزاء، لذلك يأتى الأمر من الله، أن يصبر المؤمن ويكون صبره لله وبالله، وقد أشار رب العالمين إلى عاقبة من يصبر على طريق الإيمان بيقين من الله، أن سيكون منهم أئمة يهدون بأمر الله، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة - ٢٤).

وبالتالى فإن أساس النجاح فى اختبار الإبتلاء، أن تصبر وتحتسب ألمك، وجُهدك ومعاناتك، إبتغاء وجه الله، وهذا خير دليل على إيمانك بالله العزيز الحميد.

يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة - ١٥٣) (نداء للمؤمنين أن يعملوا بمقتضى إيمانهم بالله، والإستعانة تعنى: أن أمراً فى حركة حياتك فاق عن طاقتك وقدرتك، وإلا لو أن كل امر دخل فى حدود قدرتك لما طلبت معونة، فأنت تطلب المعونة عند عدم القدرة، فإذا ما جاء فعل يفوق قدرتك فاستعن بالقادر الذى لا تنفذ قوته، فهذه الآية لا تُؤسّس انساناً من شئ فى الحياة، وأن يُقبل على الأشياء مستعيناً بمن خلق الاشياء.

ودلت كلمة الإستعانة، على أن هناك أحداث ستأتى لتُجهد الطاقة البشرية،

وكلمة الصبر تدل على أن هذه الاشياء فيها ألم ومشقة، وكأنه يُعد النفس المؤمنة لعملية جهادية كبيرة ستستنفذ طاقة الإنسان، وتتطلب المشقة فيها أن يصبر الإنسان على ما يلاقه، فهو لا يُمنينا بطريق مفروش بالورود، إن لكم مهمة في الحياة، إنكم أصحاب مبدأ حق، ومبادئ الحق لا تأتي إلا حينما يشتري الباطل، والباطل حين يرى دنيا الباطل تُزلزل من تحت قدمه يحاول جاهداً أن يصد جنود الحق، فستواجهون عنفاً، وستواجهون شراسة، وستواجهون مكرًا، وستواجهون كيداً، إياكم أن تخوروا فإن لكم مهمة، هذه المهمة هي إعادة الخلافة للمؤمن في الأرض، وكل الذين حاولوا أن يخرجوا عن ملك الله بمعصيته، ستحاربونهم، ولن يُسلموا لكم الراية يسيره، بل سيتكالبون، فكونوا أنتم أشد منهم قوة، واستعينوا بالصبر^(١).

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ - ١٥٦)

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إنها إقرار بأنك أنت ومالك وأبناءك وحياتك ومماتك، كل ذلك لله سبحانه وتعالى. وبما أننا وما نملك ملك لله، فليفعل الله بنا ما يشاء يهب لمن يشاء، وينزع ممن يشاء، ولتطمئن الأنفس، فإننا إلى ربنا راجعون، فيوفي كل ذي حق حقه.

لذلك كان يوصي النبي ﷺ بكثرة قول إنا لله وإنا إليه راجعون، فعن أبي هريرة رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: (ليسترجع أحدكم في كل شيء، حتى في شئ^(٢) نعليه، فإنه من المصائب)^(٣).

كان الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مرض موته يئن منه أنيناً فقيلاً له: يا إمام، إن طاوساً يقول: إن الأنين يُكتب، وذلك لقوله تعالى ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

(١) تفسير الشعراوي سورة البقرة

(٢) الشَّعْرَاءُ رِبَاطُ الْحِذَاءِ

(٣) رواه ابن السني عن أبي هريرة رضى الله عنه، ضعيف الجامع (٤٩٤٩)

(ق- ١٨) فيقول الراوى: فما أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى حتى مات

قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۚ ﴾ (التغابن- ١١)،

قال علقمة: هى المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى.

إن صبرت واحتسبت ما تجده فى دنياك من فتن وإبتلاءات إبتغاء وجه رب

العالمين فلن يضيع الله أجرك، بل ستوفى أجرك بأحسن ما كنت تعمل وعند الله المزيد

﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (هود- ١١٥).

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (غافر- ٥٥)، (الدعوة إلى الصبر، الصبر على التكذيب،

والصبر على الأذى، والصبر على نفخة الباطل وانتشائه بالغلبة والسلطان فى فترة

من الزمان، والصبر على طباع الناس وأخلاقهم وتصرفاتهم من هنا ومن هناك،

والصبر على النفس وميولها وقلقها وتطلعها ورغبتها فى النصر القريب وما يتعلق

به من رغائب وآمال، والصبر على أشياء كثيرة فى الطريق قد تجىء من جانب

الأصدقاء قبل أن تجىء من جانب الأعداء.

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ مهما يطل الأمد، ومهما تتعقد الأمور، ومهما تتقلب

الأسباب، إنه وعد من يملك التحقيق^(١).

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ (الروم- ٦٠)، (إن الصبر وسيلة المؤمنين فى الطريق

الطويل الشائك الذى قد يبدو أحيانا بلا نهاية، والثقة بوعد الله الحق، والثبات بلا

قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك، الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب

الآخرين، ومن تكذيبهم للحق وشكهم فى وعد الله، ذلك أنهم محجوبون عن العلم

محرومون من أسباب اليقين، فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله فطريقهم

هو طريق الصبر والثقة واليقين، مهما يطل هذا الطريق، ومهما تحتجب نهايته

وراء الضباب والغيوم، وهكذا تختم السورة التى بدأت بوعد الله فى نصر الروم بعد

بضع سنين، ونصر المؤمنين، تختم بالصبر حتى يأتى وعد الله، والصبر كذلك على

(١) فى ظلال القرآن سورة غافر آية ٥٥

محاولات الاستخفاف والزرعة من الذين لا يوقنون^(١).

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (غافر - ٧٧).

(وهنا نقف أمام لفظة تستحق التدبر العميق، إن هذا الرسول الذى يلاقى ما يلاقى من الأذى والتكذيب والكبر والكنود، يقال له ما مفهومه: أد واجبك وقف عنده، فأما النتائج فليست من أمرك، حتى شفاء صدره بأن يشهد تحقق بعض وعيد الله للمتكبرين المكذبين ليس له أن يعلق به قلبه، إنه يعمل وكفى، يؤدي واجبه ويمضى، فالأمر ليس أمره، والقضية ليست قضيته، إن الأمر كله لله، والله يفعل به ما يريد.

وإنه لأمر شاق على النفس البشرية، أمر يحتاج إلى الصبر على أشواق القلب البشرى العنيفة، أعله من أجل هذا كان التوجيه إلى الصبر فى هذا الموضع من السورة، فلم يكن هذا تكراراً للأمر الذى سبق فيها، إنما كان توجيهاً إلى صبر من لول جديد، ربما كان أشق من الصبر على الإيذاء والكبر والتكذيب.

إن احتجاز النفس البشرية عن الرغبة فى أن ترى كيف يأخذ الله أعداءه وأعداء دعوته، بينما يقع عليها العداء والخصومة من أولئك الأعداء، أمر شديد على النفس صعب، ولكنه الأدب الإلهى العالى، والإعداد الإلهى لأصفيائه المختارين، وتخليص النفس المختارة من كل شئ لها فيه أرب، حتى ولو كان هذا الأرب هو الانتصار من أعداء هذا الدين.

ولمثل هذه اللفتة العميقة ينبغى أن تتوجه قلوب الدعاة إلى الله فى كل حين، فهذا هو حزام النجاة فى خضم الرغائب، التى تبدو بريئة فى أول الأمر، ثم يخوض فيها الشيطان بعد ذلك ويعوم^(٢).

(١) فى ظلال القرآن سورة الروم أية ٦٠

(٢) فى ظلال القرآن سورة غافر أية ٧٧

٥. الإستعانة بالصلاة:

إن المؤمن الحق لديه قوة مذهلة، وطاقة هائلة، طاقة متجددة لاتنضب أبداً، هذه القوة موجودة فى أعماق أعماق قلبه، ولذلك فهو يصبر صبراً لا يُطيقه أحد غيره، ويقوم بطاعات وواجبات لا يستطيعها سواه، ولكن على الرغم من وجود هذه الطاقة فى قلب كل مؤمن، إلا أنها موجودة بنسبة تتوافق مع مستوى إيمانه.

هذه الطاقة مستمدة من معونة رب العالمين، القوى المتين، الذى قال: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة-٤٥)، (إن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه، ويتلو كتابه هان عليه كل ما فى الدنيا رغبة فيما عند الله ورهبة منه، فيتباعد عن كل ما لا يرضى الله، فيرزقه الله ويهديه)^(١).

(يتكرر ذكر الصبر فى القرآن كثيراً، ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذى تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذى يقتضيه القيام على دعوة الله فى الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، والذى يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج، ولا بد من الصبر فى هذا كله، لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصى، والصبر على جهاد المشاقيق لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقله العناد، ومضاضة الإعراض.

وحين يطول الأمد، ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد إذا لم يكن هناك زاد ومدد، ومن ثم يُقرن الصلاة إلى الصبر، فهى المعين الذى لا ينضب، والزاد الذى لا ينفد، المعين الذى يجدد الطاقة، والزاد الذى يزود القلب، فيمتد حبل الصبر ولا ينقطع، ثم يضيف إلى الصبر، الرضى والبشاشة، والطمأنينة، والثقة، واليقين.

(١) أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن

إنه لا بد للإنسان الفانى الضعيف المحدود أن يتصل بالقوة الكبرى، يستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الباطنة والظاهرة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامع، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد وهى عنيفة، حينما يطول به الطريق وتبعد به الشقة فى عمره المحدود، ثم ينظر فإذا هو لم يبلغ شيئاً وقد أوشك الغيب، ولم ينل شيئاً وشمس العمر تميل للغروب، حينما يجد الشر نافثاً والخير ضاوياً، ولا شعاع فى الأفق ولا معلم فى الطريق.

هنا تبدو قيمة الصلاة، إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفانى والقوة الباقية، إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذى لا يغيض، إنها مفتاح الكنز الذى يغنى ويقنئ ويفيض، إنها الانطلاقة من حدود الواقع الأراضى الصغير إلى مجال الواقع الكونى الكبير، إنها الروح والندى والظلال فى الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود^(١)

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول (يا بلال، أقم الصلاة، أرحنا بها)، وأيضاً كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر يفرغ إلى الصلاة، أى: إذا نزل به أمر مهم أو أصابه هم أو غم.

نعم أن رسول الله ﷺ إذا أهمله أمر ما انطلق مسرعاً إلى المعين الذى يستمد منه القوة، كان ينطلق إلى رب الأرباب وصاحب الأسباب، القوى المتين يسأله المعونة، وهذا ما تعلمه الصحابة والصالحين من بعدهم وساروا على نفس الطريق.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَاكَ بِصِيقِ صَدْرِكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (١٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ

(١٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (١٩) (الحجر: ٩٧ - ٩٩).

(١) فى ظلال القرآن سورة البقرة آية ١٥٣

٦ - فهم حقيقة الابتلاء :

وهو ما أحاول توضيحه في هذا الكتاب، فالابتلاء كما قلت سابقاً هو سنة من سنن الله، يصيب بها المؤمنين كافة لأسباب قد أوضحت بعضها سابقاً، وهي سنة لا تحابى أحد من خلق الله، فكل المؤمن مبتلى إما بالسراء وإما بالضراء، وبالتالى بفهمك لحقيقة هذا الابتلاء تستطيع أن تصبر وتحتسب لله ما يقع لك من ألم ومشقة وجهد، وتتعلم الدرس ليؤدى الابتلاء الدور الإيجابى الذى نزل من أجله.

٧ - الإعداد النفسى للابتلاء و معرفة سنن الله فى ابتلاء المؤمنين:

ذكرت فى ابتلاء الدعوة مقولة ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ ، (ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك) ، ومقولة : (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) ، فتخيل رسول الله ﷺ وهو لم يكلف بالرسالة بعد يستقبل هذا الخبر من عالم خبير يعلم ما يقوله.

إنه يخبره أن المستقبل به شدائد وإضطهادات وعداوات ، وممن ! من أقرب الأقربين ، من قومه الذين يلقبونه بالصادق الأمين ، ويحفظون له مكانته وفضله بينهم ، فكان لابد من هذه الرسالة الصغيرة لرسول الله ﷺ قبل البعثة ليستعد نفسياً لما هو قادم ، وهى رسالة لكل مؤمن وليست لرسول الله ﷺ فقط.

إن معرفة كيف أن أنبياء الله وهم أكرم خلقه وأتقاهم قد إبتلوا ابتلاء شديداً ، يجعل لك قوة نفسية عظيمة على تحمل الابتلاءات مهما كانت شدتها ، ولك أن تتخيل حجم المحنة والمعاناة التى كانوا فيها فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة - ٢١٤).

نعم ، يسأل المؤمنون وفيهم رسولهم بين أظهرهم ، متى نصر الله؟! الألم شديد ، المعاناة شديدة ، المحنة على أشد ما تكون ، هذه هى طبيعة ابتلاء المؤمنين الصادقين.

وكذلك معرفة كيف أن رسول الله ﷺ وصحابته قد إبتلوا مثل هذا الإبتلاء ، والصالحين من بعدهم ، كل ذلك يمثل إطار مرجعى يهيئ المؤمن نفسياً للقدرة على الصبر على الابتلاء واجتيازه بنجاح ، وأقصد بالإطار المرجعى كمفهوم عام ، مجموعة الأفكار والقيم والخبرات التى تشكل فى مجموعها وجهة نظر الإنسان تجاه الأحداث المختلفة ، وعلى أساس هذا الإطار المرجعى يكون رد فعل الإنسان تجاه الحوادث المختلفة ، بل وطريقة تعامله مع الناس من حوله.

هذا الإطار المرجعي، سيجعل في خلفية عقلك صورته لابتلاء رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله وهو يعرض نفسه على القبائل، وهو يؤذى ويخرج مهاجراً من بلده. سيجعل في خلفية عقلك صورته للابتلاء الذي واجهه بلال بن رباح، والابتلاء الذي واجهه عمار بن ياسر وأبويه.

سيجعل في خلفية عقلك صورة للابتلاء الذي واجهه الإمام أحمد بن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم من الدعاة إلى الله. سيجعل في خلفية عقلك صورة لأصحاب الأخدود، وصورة لسحرة فرعون لما آمنوا.

سيجعل في خلفية عقلك صورة لقارون وماله، وأن ماله لم يغني عنه من الله شيئاً.

ووصيتي لك أخي الكريم، اقرأ تاريخك جيداً، فمن لا تاريخ له، لا مستقبل له أيضاً.

في بداية الدعوة وقع الصحابة في ابتلاء الإيمان وصبروا وتعلموا الدرس. في غزوات أحد والخندق وحنين، وقع الصحابة في الابتلاء، وتعلموا الدرس. في حروب الردة وقع الصحابة في الابتلاء وتعلموا الدرس. الأجيال المتعاقبة من أجيال المسلمين العظماء، جميعهم وقع عليهم الابتلاء بأنواعه وأشكاله المختلفة، وكل جيل يسلم للجيل الذي يليه خبرات التجارب والأحداث.

والآن جاء دورنا في الابتلاء، فهل تعلمنا الدرس؟! هل لا بد أن نقع في نفس الابتلاء الذي وقع فيه من سبقونا؟ وبدلاً من أن نعتبر بمن سبقنا، نكون نحن عبرة لم يأتي من بعدنا.

إن لله سنن لا تتبدل ولا تتغير، فإن نحن بدلنا وغيّرنا في ديننا (كما يحدث الآن) فإننا لا محالة سنقع في الابتلاء الشديد، والخوف كل الخوف أن يكون ابتلاء أستبدال ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ (محمد - ٣٨).

هي دعوة للمسلمين عامة وللمؤمنين خاصة، أن يعودوا إلى دينهم ومنهج ربهم كاملاً غير منقوص، لا تغرنهم الحياة الدنيا، ولا يخافون في الله لومة لائم، وأن يتعلموا من تجارب من سبقوهم، فالؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

٨. النظرة الشاملة والأمل:

بعد غزوة أحد، قرر المشركين في قريش القضاء نهائياً على الدعوة الإسلامية، فجهزوا جيشاً جراراً منهم ومن حلفائهم بلغ تعدادها عشرة آلاف مقاتل، وكان ذلك العدد، عدداً مهولاً، بمقاييس قدرات المدينة وقدرات أهلها في ذلك الوقت، وتحرك الجيش بقيادة أبى سفيان بن حرب بهدف وحيد، طمس الإسلام وإبادة المسلمين.

وبلغت الأخبار للمسلمين في المدينة وأخذ رسول الله ﷺ باقتراح سلمان الفارسي رضى الله عنه، حفر خندق يمنع وصول الجيش المعتدى إلى المدينة.

وفى معاناة شديدة، بين عوامل جويه صعبة، وظروف معيشية ضيقة، وخوف من قدوم الأعداء على غرة، حفر الصحابة الخندق بأيديهم، ونقلون التراب على ظهورهم، يساعدهم في ذلك رسول الله ﷺ.

وبينما هم كذلك إذ اعترضت صخرة عظيمة مسار الحفر، ولم يستطع الصحابة التعامل معها، فجاء رسول الله ﷺ وأخذ المعول وقال بسم الله، ف ضرب ضربة كسر منها ثلث الحجر، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله، وضرب ثانية فكسر ثلث الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنى لأبصر المدائن وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله، وضرب ضربة كسرت بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا.

إنها البشارة النبوية في هذا الوقت العصيب تثبيتاً للمؤمنين، إنها البشارة أنه مهما كانت المعاناة الآن... ومهما كان الألم الآن... ومهما كان الجهد الآن... فإن دين الله ومن سار على هُده لا محالة منتصر، وستكون له السيادة، طال الزمان أم قصر.

إننا في العادة ننظر إلى الأحداث نظرة قاصرة لحظة وقوعها، ولا نربط بينها وبين الأحداث المتتالية عبر فترة زمنية طويلة نسبياً وبالتالي نفقد القدرة على

الربط بين المقدمات البعيدة والنتائج الحالية، وما هكذا ينبغي أن يكون المؤمن، لأن رب العالمين قد جعل لنا العبرة والمثال في القصص القرآني، أن الأحداث حتى وإن كانت شديدة وإن كانت مؤشرات تدل على اليأس والإحباط، إلا أن الله يخرج النصر والتمكين في أشد اللحظات صعوبة على المؤمنين، فينقلب الحال من ظلام سائد إلى نور ساطع، وقد رأينا ذلك في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، ورسول الله موسى عليه السلام، والأحداث التاريخية المختلفة حال مراقبتها على فترات زمنية طويلة دليل على ذلك.

إن الله هو المدبر، فله تدبير آخر غير تدبير البشر، وله حكمة قد لا يعلمها البشر، وما يبدو للنظر على أنه سلسلة عشوائية من الأحداث الغير مترابطة لحظة وقوعها، هي في الأساس من تدبير رب العالمين العليم الحكيم، فتقود المؤمنين في مسار مُقدر حتى يتم تحقيق مراد الله في أرضه.

وبالنظر إلى الابتلاء على أنه مرحلة عابرة، يأتي بعدها نصر وتأييد من الله، فإن المؤمن الواثق بالله، بنظرة شاملة، وانتظاراً للفرج من الله، ستقوى نفسه، وتقوى دوافعه للثبات على الصبر، وتزداد حماسته، بل وتفيض على من حوله، ويستطيع بإذن الله أن يتحمل عناء الابتلاء الذي قد يقع عليه، خاصة وأن معه بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: (ليبلغن هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله عز وجل بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل، عز يعز الله عز وجل به الإسلام، أو ذل يذل به الكفر)^(١).

ووعده من رب العالمين، أنه سيبدله بعد الخوف أمن، وبعد الضعف سيادة وتمكين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور - ٥٥).

(١) أخرجه أحمد، والطبراني في مسند الشاميين، والحاكم في المستدرک رقم (٨٣٢٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

٩ - الدعاء واللجوء إلى الله:

عندما يصيبك الهم والألم من الابتلاء، قف بين يدي الله وارفع يدك إلى السماء وقل يارب، وإقرأ سورة الضحى، لتريح قلبك، وتذكر ما ودعك ربك وما قلى.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر - ٦٠).

اللجوء إلى الله والتضرع بين يديه لكشف البلاء، أهم وأقوى أسلحة المؤمن التي يدفع بها الضر والبلاء، ويواجه به ما لا قبل له به.

إن الله يعلم ما بالأنفس من إيمان وتقوى فهو خالقها ولطيف بها ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (المالك - ١٤).

ولذلك كان اللجوء إلى الله بالدعاء ضرورة لا غنى عنها للمسلم، لحماية نفسه من الفتن والابتلاءات التي تصيبة عسى الله أن يجعل له منها فرجا ومخرجا.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة - ١٨٦)

وقال ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل - ٦٢)

سحرة فرعون لما آمنوا وهددهم فرعون بالقتل و الصلب قالوا: ﴿وَمَا نَقِمُ مِنْكَ إِلَّا أَنْتَ أَمْنًا بِأَيِّدِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُنَا أَفَرِحَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (الأعراف - ١٢٦)

ويقول د. عبد الرحمن الميداني في تدبره لقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ (الأعراف: ٥٥)، (المعنى: أسألوا الله الذي هو ربكم يمدكم دوماً بعباءات ربوبيته، في كل أموركم، سواء منها ما تجدون أسبابه مسخرة لكم بيئسر، أم لا تتيسر لكم أسبابه، فهو خالق الأسباب والمسببات، ودُعاءكم له هو أول تعبير لتلقائي عن عبادتكم له، متى صح إيمانكم به، وبأنه مالك كل شيء، وبأنه المتصرف بخلقها، وبأنه لا يكون شيء في الوجود إلا بأمره أو بإذنه وتمكينه، وتسخيره للأسباب وبهدايته ومعونته)^(١).

(١) معارج التفكير ودقائق التدبر (٤ / ٢٩٥)

إن الدعاء هو الركن الشديد الذى يرتكن إليه المؤمن، فيكون قلبه مُتصلاً برحمة الله، مُنتظراً معونته وتأييده، فيستمد منه القوة للصبر على البلاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

(الدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإذا كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه).

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أصاب أحداً هم ولا حزن قط فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همي إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحاً)

قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات؟

قال: (أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)^(١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ، فَلْيَكْثِرِ الدَّعَاءَ فِي الرِّخَاءِ)^(٢).

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

(ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم: إذا نُكِّثَ، قال: الله أكثر)^(٣).

(١) صحيح، صححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ١٩٩

(٢) رواه الترمذى والحاكم، قال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبى، وقال الألبانى (حسن) حديث ٦٢٩٠ فى صحيح الجامع.

(٣) حديث حسن صحيح رواه الترمذى فى سننه كتاب الدعوات، رقم ٣٥٧٣، ومسنَد الإمام أحمد برقم

ولذلك كان عبد الله التيمي يقول: (أكثرُوا من سؤال الله العافية، فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى يأمن البلاء، وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم)^(١).
وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه كان يقول: جدوا بالدعاء فإنه من يكثُر قرع الباب يوشك أن يفتح له^(٢).

ولكن!!!

أقول لك قاعدة عامة حتى لا تيأس من دعائك وأنت ترى أن الله لا يستجيب لك:
(ما يحتاج البذل لا يكفى فيه الدعاء)

قد يظن البعض أنه لإنجاز أهم الأشياء وأصعبها، قد يظن البعض انه لتغيير الوضع القائم والحياة التى يعيش فيها من بؤس وضنك ومشقة وألم، يكفيه أن يرفع يده إلى السماء ويدعوا رب العالمين ويتكل على ذلك، ويظن أنه يحسن صنعا، فيخدع نفسه ويقول: يقول الله: ﴿وَسَئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء- ٣٢)، ثم يترك العمل ويُهمل البحث عن الرزق وينتظر أن ينزل عليه ذهب من السماء، أو من يقول يقول الله فى الحديث القدسى: (استهدونى أهدكم)، فيرفع يده ويقول اللهم إهدنى، وينتظر علامات الهداية تنزل عليه من الرحمن، دون أن يبذل جهده فى العمل الصالح لعل الله يهديه إلى الطريق المستقيم الذى يدعى أنه يبحث عنه، وكذلك من يطلب النصر والتمكين على الأعداء فيدعوا الله ليل نهار، وينتظر أن يأتى هذا النصر إلى بابه ليطرقة دون ان يبذل لتحقيق أسباب النصر.

نعم يُجيب الله المضطر الذى لا يجد حيلة ولا مُعين، ولكن إن توفرت لك كل الأسباب التى يُمكنك الإعتماد عليها، ثم تُهمل كل ذلك وترتكب إلى الدعاء، فقد

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر رقم ١٥٧

(٢) المصنف لابن أبى شيبه كتاب الدعاء

خالفت سنة رسول الله ﷺ، وإقرأ مثال على ذلك فى الهجرة النبوية والمعاناة التى عاناها رسول الله ﷺ والصديق أبا بكر رضى الله عنه، حتى تتم الهجرة، ألم يكن يكفيه الدعاء إن كان الدعاء يكفى؟!
إنّبه يرحمك الله حتى لا تياس وتظن أن الله تركك بدون نصرة، حقق الأسباب كاملة وستأتى معونة الله مع الدعاء إن شاء الله.

١٠. التزام طاعة الله فى الرخاء:

فكما أن الجزاء من جنس العمل، إن إتبعنا طاعة الله فى وقت رخاءك ويسرك، ينجيك الله فى وقت احتياجك وعسرك.

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال: (كنت رديف النبي ﷺ فقال يا غلام أو يا غليم: ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن فقلت بلى، قال: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله...) (١)

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار فى جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم،

فقال أحدهم اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران وامرأتى ولى صبية صغار أرعى عليهم فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى وأنه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجننت بالحلاب فقامت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء.

وقال الآخر اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيتها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجننت بها فلما وقعت بين رجليها قالت يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا

بحقه فقامت عنها **فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج** لنا منها فرجة ففرج لهم.

وقال الآخر اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز فلما قضى عمله قال أعطنى حقى فعرضت عليه فرقه فرغب عنه فلم أزل أزعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها فجاءنى فقال اتق الله ولا تظلمنى حقى قلت اذهب إلى تلك البقر ورعاءها فخذها فقال اتق الله ولا تستهزئ بى فقلت إنى لا أستهزئ بك خذ ذلك البقر ورعاءها فأخذه فذهب به **فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج** لنا ما بقى ففرج الله ما بقى^(١).

ولكن ليس بالدعاء فقط تتم النجاة، بل لابد معه من عمل صالح يقوى الدعاء، فرعون وهو يغرق ينادى الله أن ينجيه، ويصف حاله رب العالمين فيقول:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَآمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَآمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (يونس - ٩٠)، فرعون الطاغية المتجبر، الظالم الذى قتل الأبرياء والضعفاء الذين وقعوا تحت سطوته، الذى نزع الرحمة من قلبه، يسأل الله أن ينجيه الآن، وينزل جبريل مسرعاً ليدس فى فمه من طين القاع مخافة أن تدركه رحمة رب العالمين.

روى الترمذى، عن ابن عباس، أن النبى ﷺ قال:

لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل: يا محمد، قلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فيه، مخافة أن تدركه الرحمة^(٢).

ولكن الله أهلكه وذكر سبب ذلك فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس - ٩١)، فهو قبل ذلك كان مفسد فى الأرض، ظالم، مستكبر عن الخضوع لله، ولا

(١) صحيح مسلم كتاب الرقائق

(٢) قال الترمذى: هذا حديث حسن. وقال الألبانى: صحيح لغيره

يحب الحق وأهله، فلا نجاة له ولا لمن على شاكلته، ولذلك قال الله ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ أَيْنِنَا لَغَفُلُونَ﴾ (يونس - ٩٢).

لما وقع يونس عليه السلام في الكرب والهيم، وهو في ظلمات بطن الحوت، نادى ربه، فقال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء - ٨٧) فاستجاب له رب العالمين ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء - ٨٨)، وذلك لأنه كان من الذاكرين قبل ذلك: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ (الصافات: ١٤٣ - ١٤٤).

١١ - التزام الاستغفار

﴿لَوْلَا سَتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل - ٤٦)
 ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود - ٩٠)
 ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾ (هود - ٥٢)
 ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ فَلَا أَقِيمُ رَبِّي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَّأ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ (نوح: ١٠-١١).

(أى: إذا تبتتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه، كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أى: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها)^(١).

قال قتادة: (إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دوائكم فالاستغفار)

وكان على كرم الله وجهه يقول: العجب ممن يهلك ومعه النجاة!
 قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار.

ومع الاستغفار، تعلم من أخطأك:

اعلم أخى الكريم أن الطبيعة البشرية متمردة، ليس من السهل التغلب عليها، بل لابد من صبر ومصابرة طويلة، وفى خلال ذلك، فإن المؤمن قد تغلبه نفسه، فيقع فى الخطأ والمعصية، فيفعل ما لا ينبغى له أن يفعله، ولكن المؤمن يتعلم من أخطائه، فيرجع ويتوب سريعاً عما بدر منه، ويعزم على عدم الرجوع، ويكون بذلك قد تعلم درس جديد، وإزداد حكمة أكثر مما كان لديه، حتى ترتقى نفسه إلى أعلى صور الإيمان، وهو مقام الإحسان، حيث يعبد الله كأنه يراه، ومن هذا المنطلق يمكن القول

(١) تفسير ابن كثير

أن الفتن والابتلاءات التي تصيب المؤمن، صورة من صور التوجيه والتعليم وتحديد المسار الذي ينبغي للمؤمن أن يسير فيه إن فطن إلى دور الابتلاءات في حياته وأراد لنفسه الفوز برضوان الله.

إن الفرق بين المؤمن وغيره، أن المؤمن يتعلم من أخطاؤه، فيزيد من حصيلته الإيمانية والمعرفية، بينما غير المؤمن، ما تزيده الابتلاءات والفتن إلا خسراناً وإرتداداً حتى يصل إلى أسفل الدركات.

لا تيأس من نفسك إن ارتكبت الذنب، وتكرر وقوعك فيه، إن إبليس يريدك أن تكفر بنفسك، وتقع فريسة لوسوسته أن الله لن يغفر لك، وأن نفسك أضعف من أن ترجع إلى الله، يريدك أن تشاركه بعض صفاته، فتخسر كما خسر، أعلم أن الله يقول: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر - ٥٣).

إن الله يغفر الذنوب جميعاً، فلا تيأس من رحمة الله، وجاهد نفسك واستغفر دائماً حتى تعود إلى طريق ربك.

١٢. التزام الجماعة:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران - ١٠٣)

عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى فقلت يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر قال نعم قلت وهل بعد ذلك الشر من خير قال نعم وفيه دخن قلت وما دخنه قال قوم يهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر قلت فهل بعد ذلك الخير من شر قال نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها قلت يا رسول الله صفهم لنا قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت فما تأمرنى إن أدركنى ذلك قال تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.

من حديث حذيفة رضى الله عنه يبين لنا رسولنا الكريم ﷺ أن فى إلتزام الجماعة المؤمنة بالله نجاة من الشر (الفتن) التى تصيب الناس بشده فى آخر الزمان. التزم الجماعة يحمى المؤمن من الانحراف إلى طرق أهل الفتنة الذين هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، وقلوبهم قلوب شياطين، وينخدع الناس بهم لتزينهم للباطل فلا يشعر الناس أنهم يُساقون إلى الفتنة.

إلتزام الجماعة من أسباب تقوية الإيمان والمحافظة عليه ، فالصلاة والصوم والحج وغيرها من شعائر الإسلام تؤدى بشكل جماعى ، مما يُثبت أن التزم الجماعة من أهم العوامل التى تزيد الإيمان وتقويه.

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من ثلاثة نفر فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) (١)

(١) رواه الحاكم فى مستدركه و أبو داود بإسناد حسن

قال ابن مسعود رضى الله عنه : عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذى أمر الله به ، وإن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة .
وعنه أيضاً رضى الله عنه فى قول الله تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ قال : الجماعة روى عنه وعن غيره من وجوه ، يقول القرطبى : والمعنى كله متقارب متداخل فإن الله تعالى يأمر بالألفة وينهى عن الفرقة فإن الفرقة هلكة ، والجماعة نجاة .

قال النبى ﷺ : (وأنا آمركم بخمس ، الله أمرنى بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم .

فقال رجل يا رسول الله ، وإن صلى وصام قال وإن صلى وصام ، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله) ^(١) .

بينما التفرق من أسباب الضعف وذهاب القوة ، وسيؤدى لا محالة إلى الهلاك بالإضافة إلى العقاب من رب العالمين ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران - ١٠٥)

وقال ﴿ وَلَا تَنَزَعُوا أَنْفُسَكُمْ فَيُخْذَكُمُ اللَّهُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأنفال - ٤٦)

وفى سورة العصر : (فى هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريد الإسلام ، وتبرز معالم التصور الإيمانى بحقيقته الكبيرة الشاملة فى أوضح وأدق صورة ، إنها تضع الدستور الإسلامى كله فى كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها ، فى آية واحدة هى الآية الثالثة من السورة ، وهذا هو الإعجاز الذى لا يقدر عليه إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفَى خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾

أما التواصى بالحق والتواصى بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة (أو الجماعة المسلمة) ذات الكيان الخاص، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة.

الجماعة التى تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها، والتى تعرف حقيقة ما هى مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح، الذى يشمل فيما يشمل قيادة البشرية فى طريق الإيمان والعمل الصالح، فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى

فمن خلال لفظ التواصى ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة (أو الجماعة) المتضامنة المتضامنة، الأمة الخيرة، الواعية، القيمة فى الأرض على الحق والعدل والخير، وهى أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة، وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام، هكذا يريد أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير، متواصية بالحق والصبر فى مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصى فى القرآن.

والتواصى بالحق ضرورة، فالنهوض بالحق عسير، والمعوقات عن الحق كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة، وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين.

والتواصى تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى فى الهدف والغاية، والأخوة فى العبء والأمانة، فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معا فتتضاعف. تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله، وهذا الدين (وهو الحق) لا يقوم إلا فى حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال.

والتواصى بالصبر كذلك ضرورة، فالقيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولا بد من الصبر، لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبعد النهاية.

والتواصى بالصبر يضاعف المقدرة، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وتساند الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والاصرار، إلى آخر ما يثيره من معانى الجماعة التى لا تعيش حقيقة الإسلام إلا فى جوها، ولا تبرز إلا من خلالها، وإلا فهو الخسران والضياع^(١)

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس إنى قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا فقال:

(أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفتشوا الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد.

من أراد بحبوبة الجنة فليلزم الجماعة، من سرتة حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن^(٢).

(١) فى ظلال القرآن، سورة العصر يتصرف

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى برقم ٢١٦٥، وقال حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه

١٣ - اليقين بموعود الله، اليقين بالجنة:

اليقين بموعود الله هو مُفتاح الصبر، فلكى يستطيع المؤمن أن يصبر على ما ينزل به من ابتلاءات ومصائب لابد أن يكون على يقين راسخ وثقة فى موعود الله. فى غزوة بدر الكبرى، بعد أن اشتد القتال بين جيش المشركين وجيش رسول الله ﷺ، أمرهم النبي ﷺ بالهجوم المضاد قائلاً لهم: (شدوا)، وكان مما قال أيضاً: (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)، وحينئذ قال عُمَيْرُ بن الحُمَامِ رضى الله عنه: بَخْ بَخْ.

فقال رسول الله ﷺ: (ما يحملك على قولك: بخ بخ؟) قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها. قال: (فإنك من أهلها)، فأخرج تمرات من قَرْنِه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قُتل.

وفى حديث خباب بن الأرت رضى الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستضر لنا، ألا تدعونا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون).

تخيل هذا الألم والمعاناة التى نالها من يُنشر بالمناشير أو يُمشط بأمشاط الحديد، ما الذى دفعة إلى كل هذا الصبر؟! إنه اليقين بموعود الله.

إن الرغبة فى شئ ما حاجة إنسانية شديدة القوة، فهى تدفع الإنسان دفعاً فى سبيل إشباع هذه الحاجة، وكلما زادت الرغبة فى حاجة ما، زادت شدة التعلق

بها، ويتجه العقل والقلب والوجدان في هذا الإتجاه، إتجاه إشباع هذا الرغبة. ومن أعظم الرغبات الطمع في رضوان الله والفوز بجنته، والمؤمن الذى على يقين أن مواعده هناك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، يستطيع بعون الله أن يصمد أمام الفتن والابتلاءات التى تصيبه، فعقله وقلبه مُعلق هناك فى جنة الرحمن، يراها دائماً أمام عينيه.

جنة الرحمن خلقها الله للمؤمنين، وأعدها لهم لتكون مُستقرهم الأبدى وجعل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بل وأعظم من ذلك فسقفها عرش الرحمن.

١٤ - تعظيم الله وأوامره فى نفسك:

فكلما عظم الله فى نفسك، كلما زدت خوفاً منه، فيمنعك الخوف أن تقع فى معاصيه.

ويكون تعظيم الله عن طريق التفكير فى خلقه وعظيم قدرته.

هل تعلم أن العقل البشرى يعجز عن استيعاب الحجم الهائل للكون الذى نعيش

فيه، والذى إن دل يدل على عظمة خالقه!

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَنَّتُنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ

الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء - ٣٠).

خلق الله الكون من كتلة إبتدائية واحدة^(١)، كدليل على أن الخالق واحد!

ثم بأمر الله انفلقت هذه الكتلة، ونشأت منها الذرات وتشكل الدخان الكونى

الذى تكثف فيما بعد وشكل السماء والأرض، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَسَوْنَهُ إِلَى الْمَاءِ وَهِيَ

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١١) فَفَضَّيْنَهُنَّ سَحَابَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي

كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (١٢)

(فصلت: ١١ - ١٢).

الكون الذى نعيش فيه يتكون من مجرات، والتى تتكون من مجموعات شمسية،

والتى هى الأخرى تتكون من نجوم وكواكب وأقمار.

المجرات والنجوم تشكل فى مجملها نسيجاً تم حبهه بإحكام، وفى ذلك يقول

تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ (الذاريات: ٧).

ولكن، كم عدد المجرات فى الكون؟

أحصى العلماء أكثر من مائة ألف مجرة للكون المعروف بالنسبة لنا، (فالكون

عبارة عن فضاء معروف و غير معروف، المعروف هو ما اكتشفه العلم و الغير

(١) وهى ما اصطلح عليه العلم الحديث بنظرية الانفجار الكبير big bang

معروف الذى لم يكتشفه العلم) ولكن العدد الإجمالى للمجرات غير معروف، رغم أن بعض العلماء يقدره بنحو مائتى مليار مجرة!!!
 هل تعنى ماذا يعنى الرقم مائتى مليار مجرة، يعنى ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مجرة، هل تستطيع تخيل العدد المهول للمجرات.
 نأتى للنجوم:

النجم، هو كرة ضخمة من الغازات الساخنة، وينتج عنها ضوء وحرارة بفعل حدوث تفاعل يسمى الاندماج النووى، ومثال عليها الشمس، ويقدر العلماء عدد النجوم فى مجرة درب التبانة التى توجد فيها الأرض التى نعيش عليها، بأنه يتراوح بين مائة مليار إلى ثلاثمائة مليار نجم.
 هذا بالنسبة لمجرة واحدة متوسطة الحجم، فما بالك بباقى المليارات من المجرات، هل تستطيع تخيل عدد النجوم؟
 نأتى الآن للمسافة بين النجوم:

على الأرض نقيس المسافات بالكيلو متر او الميل، بينما فى الفضاء تقاس بالضوء، كيف ذلك؟

مثال بسيط: اذا تحركت مكوك فضاء يصل سرعته إلى ٣٠,٠٠٠ كيلومتر فى الساعة فى إتجاه القمر فإنه سيحتاج إلى ما يُقارب ١٣ ساعة متواصل بهذه السرعة، وذلك لأن متوسط المسافة بين الأرض والقمر تقريباً ٣٨٤,٠٠٠ كيلومتر، بينما المسافة بين الشمس والأرض نجدها تقريباً ١٥٠ مليون كيلومتر، وتعنى السفر بهذه السرعة ٥٠٠٠ ساعة بما يقارب ٧ أشهر متواصلة.

لذلك وللضخامة المسافات فى الفضاء، قام علماء الفلك بقياس المسافات فى الفضاء بطريقة أخرى، حيث أستخدم العلماء الضوء كمقياس للمسافات فى الفضاء.
 فإستخدم العلماء مصطلح الثانية الضوئية، على أنها المسافة التى يقطعها الضوء فى الثانية، ومصطلح السنة الضوئية وهى المسافة التى يقطعها الضوء فى السنة وتعادل تقريباً ٩٣٣١٢ مليار كيلومتر.

سرعه الضوء تقريبا ٣٠٠ الف كيلو متر فى الثانية الواحدة، بمعنى أن الضوء يقطع مسافة مليون كيلو متر تقريبا في ٣ ثواني.

لذلك وبهذه السرعة الهائلة يحتاج الضوء تقريبا إلى ثانية واحدة حتى يصل من القمر وإلى ٨ دقائق حتى يصل من الشمس.

بينما أقرب النجوم إلينا بعد الشمس يبعد عنا نحو ٤,٢ سنة ضوئية، أى أن الضوء بهذه السرعة المذهلة يلزمه أكثر من أربع سنوات للوصول إلينا من هذا النجم.

المجرة التى نعيش فيها تسمى درب التبانة، قرصية الشكل، ويبلغ قطرها تقريبا

١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية وسمكها حوالى ١٠٠٠ سنة ضوئية.

اقرب مجرة لنا اسمها Andromeda وتبلغ المسافة بين الارض و هذه المجرة حوالى ٢,٥٣٧ مليون سنة ضوئية بمعنى أن الضوء يحتاج مليونين و ٥٣٧ سنة حتى يصل منها.

بينما المجرات البعيدة تصل المسافة بينها وبين الأرض أكثر من مليار سنة ضوئية.

هل صدمتك هذه الحقائق المذهلة؟! هل أصابك الدوار والذهول وأنت تقرأ ذلك؟! هذا الكون الهائل بكل ما فيه هو أحد المعجزات الدالة على أن هناك قدرة لا محدودة خلقتة وأبدعته ووضعت نظامه بدقه متناهيه حيث ﴿وَكُلٌّ فِي فَائِ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:٤٠)، هى قدرة رب العالمين الذى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢)، وكل هذا الملكوت يندرج تحت السماء الاولى فقط، وسبحان الله الذى قال:

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، إن عظمة المخلوق تدل على عظمة الخالق، والسؤال الآن: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ٦).

ولم تنتهى صدمة الحقائق المذهلة عن الكون بعد، فهناك حقيقة أخرى أعظم

وأعظم، ذكرها رب العالمين فى كتابة الكريم للدلالة على قوته التى لا تُقهر، وعظمته اللامحدودة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء - ١٠٤). وقال:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر - ٦٧).
عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال (١):

جاء خبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! أو يا أبا القاسم! إن الله تعالى يُمْسِكُ السماوات يوم القيامة على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الخبر، تصديقاً له. ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وعن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

(يطوى الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوى الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟) (٢)

فكما بدأ الله خلق الكون من كتلة واحدة، انفجرت وتوسعت وشكلت الكون الحالى الذى نراه ونشعر به، فسوف يجمع ذلك كله بقوته وقدرته على ما كان عليه إبتداءً (٣).

(١) متفق عليه

(٢) متفق عليه

(٣) وهى إحدى النظريات العلمية عن إنتهاء الكون وتسمى الإنسحاق العظيم the big crunch، يقول د. زغلول النجار:

إن الله عظيم، كن على يقين من ذلك، إجعل (الله أكبر) جزءاً من حياتك، وفي كل أمر من أمورك، وستغلب بيقينك على ما تواجهه من إبتلاءات وشدة ومعاناة، فهو لا يترك عبادة المؤمنين بدون معونة.

انظر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.

انظر كيف أغرق الأرض بالطوفان لنوح ومعه قلة من المؤمنين،

انظر كيف شق البحر لموسى عليه السلام لينقذه ومن معه من المؤمنين.

وانظر كيف غير من طبيعة النار فجعلها برد وسلاماً على إبراهيم.

وانظر كيف أخرج يوسف من غيابات البئر وظلمات السجن، ليُمكن له في الأرض.

وكيف حمى رسول الله صلى الله عليه وسلم من كفار قريش وجعل من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً، فأغشاهم فلم يبصروه وهو يسير بينهم.

هذا هو الله، فأرى الله من نفسك خيراً حتى تستحق معونته وتوفيقه.

(ومن عجائب القرآن التي لا تنقضي أن تأتي الإشارة إلى هاتين النظريتين نظرية الانفجار العظيم، ونظرية الانسحاق العظيم، في سورة واحدة هي سورة الأنبياء. فسيحان من أنزل القرآن الكريم على عبده ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وسيحان القائل في محكم كتابه:

﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣)

وأخيراً، احذر واحترس

وهى الرسالة الأخيرة فى هذا الكتاب، فى هذه الفترة الزمنية من عمر أمة الإسلام، حيث ضُفَّ الإسلام فى نفوس أتباعه، وإبتعدوا كل البُعد عن تعاليمه، وإتبعوا سنن الذين من قبلهم من يهود ونصارى، فضلوا ضلالاً بعيداً، فتركوا الصلاة وإتبعوا الشهوات وأهواء النفس، هنا لابد أن يكون لك أخى الكريم وقفه تراجع فيها نفسك وتعرف ما هو مُلخص حياتك الدنيا، لابد أن تعرف من أنت حقيقة؟ أنت نطفة صغيرة نمت فى مكان ضيق مظلم، ثم خرجت إلى دنيا واسعة زاهية مُضيئة، لم تكن تعلم شيئاً، ولم تكن تملك شيئاً، كنت ضعيفاً هشاً، ثم صارت لك سلطة وقوة، وأصبح لديك أموال وبنين، ثم بعد ذلك، كما بدأت ستعود، ستصبح ضعيفاً، لا تملك من أمر نفسك شئ، ثم ستكون تراباً كما بدأت.

ولكن ليس الأمر هكذا وفقط، إن الله الذى أنشأك من هذه النطفة، ثم أمدك بالقوة والرزق، سوف يبعثك من جديد ليحاسبك على ما كان منك فى رحلة حياتك الدنيا. إن الله عليك حق، أن تعبدته ولا تشرك به شئ، وأن تكون حياتك ومماتك طبقاً للمنهج الذى إرضاه لك، فإن وفيت بذلك، أمدك بقوة ثانية، ولكنها قوة دائمة لن تزول، وسيمدك بمُلك آخر ورزق آخر ولكنه أيضاً لا يزول.

أنت محظوظ أنك مسلم مؤمن بالله، أنت محظوظ أنك حى ترزق، لم ينتهى الوقت بعد، يمكن أن تنقذ نفسك مما تجده من الفتن المحيطة بك، لم يُغلق باب التوبة بعد، ما زالت الفرصة مُتاحة، ولكن إحذر وإحترس، أنت لا تدري متى سيأتى أجلك وتنتهى هذه الفرصة فاغتنمها الآن، إبدأ فوراً من الآن، إبحث فى حياتك الشخصية، ضع علامات على جوانب الخلل فيها، عالج نفسك بنفسك، قبل أن يأتى يوم تقول فيه رب إرجعون، حتى تُغير وتعديل ما كان يجب عليك تعديله وأنت حى، إن الأمر راجع إليك أنت، إن أردت النجاة فى هذا العصر الصعب الشديد. إن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، يريد الله لهم الرحمة ولا يريد لهم العذاب.

إن الله عندما يبتلى المسلم فإنه يقود المسلم إلى الطريق الذى يؤدى به إلى تحقيق العبودية له سبحانه وإلى الطريق الذى يرفع من درجته فى الجنة، وإن استطاع هذا المسلم أن يفهم مراد الله فى خلقه والمسار الذى تُبنى عليه حياة كل واحد منا، لرضى بقضائه وقدره، واطمأنت نفسه أن من يُدبر له هو العليم الحكيم، ومن حاد عن هذا فقد ضل ضلالاً بعيداً وإقرأ معى هذا الموقف:

عن سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه قال: التقى النبی ﷺ هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره، ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفى أصحاب رسول الله ﷺ رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأنا اليوم أحد كما أجزأ فلان! فقال الرسول ﷺ: أما إنه من أهل النار!

فقال رجل من القوم: أنا صاحبه.

قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذى ذكرت آنفاً أنه من أهل النار فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت فى طلبه ثم جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه فى الأرض وذبابه بين ثدييه ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة^(١).

لننظر إلى حال هذا الرجل قبل موته، وإلى الطريق الذى كان يسير عليه، فلقد كان (فيما يبدو للناس)، مؤمناً بالله وبرسوله، بل وخرج مجاهداً مع رسول الله ﷺ وأثبت شجاعة فائقة فى القتال، فهو طريق فى نهايته الجنة إن شاء الله، ولكن!

(١) رواه البخارى، باب: لا يُقال فلان شهيد

هذا الرجل لم يصبر على الابتلاء، لم يصبر على آخر امتحان وُضع فيه قبل موته، فقتل نفسه، فأصبح من أصحاب النار، فالإختبار كان له، وهو إستعجل الموت ولم يرضى بقضاء الله، ولكن الله بعلمه المحيط أخبر نبيه بما سيكون من أمر هذا الرجل حتى يكون عبرة لمن خلفه من المؤمنين، أنه ليس فقط أنك على الطريق إلى الله، يعنى أنك ستظل عليه وستموت عليه، بل ينبغى عليك كمؤمن أن تصبر أيضاً على هذا الطريق، أن تجاهد نفسك، وتجاهد أملك ومعاناتك حتى لا تسقط وأنت قاب قوسين أو أدنى من حصولك على مكانك فى جنة الرحمن.

إن المؤمن قوى ثابت على دينه، له منهج واضح وطريق يسير عليه، لا يتزحزح عنه مهما كانت الحوادث، نعم يتألم من الفتن والابتلاءات التى تحيط به، وتقع عليه، نعم يتألم مما يرى ويسمع وتذوب نفسه أن يعصى رب العالمين جهراً ليل نهار، نعم يتألم من سجن الحياة الدنيا، ولكن شعاره لنا أعمالنا ولكم أعمالكم.

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّهُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ٥٨﴾ (يونس: ٥٧ - ٥٨).

فَهْرِسْتِ الْمُخْتَوَاتِ

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
معنى الابتلاء	١٧
تمهيد	١٩
لماذا ينزل الابتلاء بالمؤمنين	٣٩
الدروس والحكمة الخفية في الابتلاء	٤٢
أمثلة على بعض من الحكمة الخفية في الابتلاءات	٤٥
أنواع من الابتلاءات	٥١
١ - اختبار الإيمان	٥٣
٢ - اختبار الصبر	٥٧
على ماذا يجب أن نصبر؟	٦٠
لماذا لا نصبر	٦٢
رسالة إلى الذين لا يصبرون	٦٣
صورة من ابتلاء الصبر	٦٤
٣ - ابتلاء رفع الدرجات وتكفير السيئات	٦٧
مثال لابتلاء رفع الدرجات وتكفير السيئات	٧٠
٤ - ابتلاء التحذير	٧٣
صورة من ابتلاء التحذير (قصة أصحاب الجنة)	٨١
٥ - ابتلاء الضنك	٨٥
كيف بُعد المؤمن بالله، عن الله؟!	٨٧
ففروا إلى الله	٩٤

٩٤	لماذا لا نتوب
٩٨	صورة من صور ابتلاء الضنك
١٠٥	٦ - ابتلاء النعمة
١١٠	كيف تكتشف نفسك؟
١١١	الغاية تبرر الوسيلة
١١١	مكانتك عند الله
١١٣	صورة من ابتلاء النعمة (ابتلاء قارون)
١١٧	٧ - ابتلاء الدعوة إلى الله
١٢٣	صور من ابتلاء الدعوة
١٢٥	ظاهرة أبى لهب
١٢٩	٨ - ابتلاء التمكين
١٣٩	فاصبر إن العاقبة للمتقين
١٤٢	المؤمن كالنخلة
١٤٤	بين الابتلاء والدرجة في الجنة
١٤٧	دراسة لبعض صور الابتلاءات الشديدة للمؤمنين
١٤٩	أولاً: الابتلاء في قصة يوسف عليه السلام
١٥٦	ثانياً: ابتلاء رسول الله موسى عليه السلام
١٧٨	ثالثاً: ابتلاء الصحابة في غزوة الخندق
١٨٨	رابعاً: الابتلاء في قصة أصحاب الأخدود
١٩٢	كيف ننجو في الابتلاء التي نتعرض لها؟
٢٤٠	وأخيراً، احذر وأحترس
٢٤٣	فهرس المحتويات